

1401 AH - 1981 AC

المعهد العلمي للفكر الإسلامي

سلسلة قضايا الفكر الإسلامي (٥)

محمد الغزالي

كيف نتعامل

مع لقيتكم

في مدارس إجراها

الدكتور نافع عبد الحسي

الشيخ محمد الغزالي

- ولد الشيخ محمد الغزالي السقا في ٥ ذو الحجة ١٣٣٥هـ الموافق ٢٢ سبتمبر ١٩١٧م بقرية «نكلا العنب» مركز ايتاي البارود بمحافظة البحيرة بمصر.
- تلقى تعليمه الأولي والثانوي في معهد الاسكندرية الديني.
- التحق بكلية أصول الدين بالجامع الأزهر سنة ١٣٥٦هـ الموافق سنة ١٩٣٧م وكان الشيخ عبد المجيد اللبان عميداً للكلية ومن أساتذته فيها الشيخ عبد العظيم الزرقاني والشيخ محمود شلتوت والشيخ محمد يوسف موسى والشيخ محمد غلاب.
- عُيِّن عام ١٣٦٢هـ/١٩٤٣م إماماً وخطيباً بمسجد العتبة الخضراء، بالقاهرة.
- كان الشيخ الغزالي من أوائل الأعضاء البارزين في جماعة الإخوان المسلمين وكان مقرباً للشيخ حسن البنا، وفي أوائل الخمسينيات عمل في مجالات الحركة الإسلامية دون انتماء لجماعة من الجماعات.
- ترقى الشيخ الغزالي في مناصب وزارة الأوقاف فعين مستشاراً في المساجد ثم واعظاً بالأزهر الشريف ثم وكيلاً لقسم المساجد ومديراً للمساجد ومديراً للتدريب وفي عام ١٣٩١هـ/١٩٧١م عين مديراً عاماً للدعوة والإرشاد ، وفي نفس العام انتدب وكيلاً لوزارة الأوقاف بمصر.
- أُعير أستاذًا بجامعة أم القرى بمكة المكرمة عام ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م.
- عُيِّن عام ١٤٠١هـ/١٩٨١م وكيلاً لوزارة الأوقاف لشؤون الدعوة الإسلامية بمصر.
- عمل بجامعة قطر، كما عين رئيساً للمجلس العلمي لجامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية بقسنطينة/ الجزائر إلى أن استقال في ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م.
- للشيخ الغزالي في مجال التأليف دراسات متنوعة تنتشر بين الجماهير وتصل مؤلفاته إلى خمسين كتاباً كان أولها «الإسلام والأوضاع الاقتصادية» وآخر ما صدر له كتابه عن «قضايا المرأة بين التقاليد الراكدة والواقعة» (١٤١١هـ/١٩٩٠م). كما ترجمت بعض أعماله إلى عدة لغات.
- زار الشيخ الغزالي معظم الدول العربية والعديد من الدول الأفريقية والآسيوية والأوروبية والأمريكية للمشاركة في نشاطات الدعوة الإسلامية.
- يرأس الشيخ الغزالي - حالياً - المجلس العلمي للمعهد العالمي للفكر الإسلامي بالقاهرة.

الأستاذ عمر عبيد حسنة

- ولد الأستاذ عمر عبيد حسنة في سورية عام ١٣٥٣هـ/١٩٣٥م.
- حصل على الإجازة في الشريعة من جامعة دمشق عام ١٣٧٩هـ (١٩٦٠).
- شارك في تحرير وإدارة مجلة حضارة الإسلام الدمشقية من عام ١٣٨٦ إلى عام ١٤٠٠هـ والموافق (١٩٦٦-١٩٨٠م).
- عمل مديراً لتحرير مجلة الأمة القطرية من عام ١٤٠١-١٤٠٦هـ والموافق (١٩٨٠-١٩٨٦م).
- يشرف على تحرير وإعداد سلسلة «كتاب الأمة» التي يصدرها مركز البحوث والمعلومات برئاسة المحاكم الشرعية والشؤون الدينية في دولة قطر.
- من مؤلفاته:
 - «نظرات في مسيرة العمل الإسلامي».
 - «فقه الدعوة: ملامح وآفاق» جزءان.
 - «نحو إعادة ترتيب العقل المسلم».
 - «تأملات في الواقع الإسلامي».
 - «نحو صياغة فكرية معاصرة (رسالة)».
 - «البعد الثقافي لإنتاج المستشرقين (رسالة)».
 - إلى جانب العديد من الكتابات والمقالات في مجلة الأمة وغيرها.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ
وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى خَاتَمِ النَّبِيِّينَ وَالْمُرْسَلِينَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ
يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ
وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ
وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾

(المائدة: ١٥-١٦)

كَيْفَ نَتَعَامَلُ

سَبْعَ الْفُرْسَانِ

الطبعة الأولى

١٤١١ هـ — ١٩٩١ م

بمَحمد الغزالي

كَيْفَ نَتَعَامَلُ

مع القرآن

في مُدارسة أجزائها

الدكتور نواف عمر عبد الحسنة



المعهد العالمي للفكر الإسلامي

ميرندن - فيرجينيا - الولايات المتحدة الأمريكية

سلسلة قضايا الفكر الإسلامي (٥)

© حقوق الطبع محفوظة
للمعهد العالمي للفكر الإسلامي
هيرندن — فيرجينيا — الولايات المتحدة الأمريكية

© 1411 AH/1991 AC by:
The International Institute of Islamic Thought
555 Grove Street
Herndon, Virginia 22070-4705
U.S.A.

Library of Congress Cataloging-in-Publication Data

Al Ghazālī, Muḥammad, 1341/1922 –
Ḥasanah, 'Umar 'Ubayd, 1353/1935 –
*Kayfa nataʿmalu ma'a al Qurʾān: mudārasah bayna al Shaykh
Muḥammad al Ghazālī wa al Ustādh 'Umar 'Ubayd Ḥasanah.*
p. cm.-(*Silsilat qaḍāyā al fikr al Islāmī; raqm 5*)
Includes bibliographical references and indexes.

ISBN 0-012463-51-1

1. Koran—Study. 2. Koran—Appreciation. I. Ghazālī, Muḥammad,
1917—. II. Title. III Series: *Silsilat qaḍāyā al fikr al Islāmī; 5.*
BP130.8.H38 90-5013 CIP

Printed in the United States of America
by: International Graphics
4411 - 41st Street
Brentwood, Maryland 20722 U.S.A.
Tel.: (301) 779-7774 Fax.: (301) 779-0570

الفهرس

١	مدخل الكتاب: الدكتور طه جابر العلواني	١
٢	مقدمة: الأستاذ عمر عبيد حسنة	٩
٣	تمهيد: الشيخ محمد الغزالي	٢٣
٤	مدخل	٢٥
٥	من آثار هجر القرآن	٣٠
٦	العودة إلى القرآن	٣١
٧	من تجربتي الذاتية	٣٢
٨	حسن استثمار مرحلة الطفولة للحفظ	٣٤
٩	تقنيات الحفظ وضرورة استمرار التواتر في المشافهة	٣٦
١٠	دور المناهج التراثية في فهم القرآن والتعامل معه	٣٧
١١	المدارس القرآنية الحديثة	٤١
١٢	شمول الرؤية القرآنية	٤٤
١٣	أهمية النظر في الآيات الكونية	٤٦
١٤	التكلف في التعامل مع القرآن	٤٧
١٥	أبعاد المنهج المطلوب	٤٩
١٦	الحاجة إلى فقه السنن الكونية	٥٣
١٧	الآثار المدمرة لتعطيل قانون السببية	٥٦
١٨	السنن القرآنية: من الإدراك إلى التسخير	٥٩
١٩	تصويب مناهج الفكر ووسائل تلقي	٦٠
٢٠	موطن الخلل	٦٣
٢١	التعامل مع النصوص من خلال واقع التخلف	٦٧
٢٢	انقلاب الوسائل إلى غايات	٧٠

٢٣	—	الفقه: بين دلالة القرآن واصطلاح الفقهاء	٧٣
٢٤	—	انفصال العلم عن الحكم	٧٥
٢٥	—	اختلال في العلم الديني	٧٨
٢٦	—	الفقه الحضاري	٨٠
٢٧	—	الرؤية الموضوعية.. والرؤية الموضوعية	٨٣
٢٨	—	العجز عن إدراك المعنى الجامع	٨٦
٢٩	—	نماذج للنظر الجزئي	٨٧
٣٠	—	خلود القرآن: هي يعني خلود أصول المشكلات التي يعالجها ..	٩٢
٣١	—	مفهوم النسخ في القرآن	٩٦
٣٢	—	شمول الرؤية القرآنية: الكون المادي والمعنوي	١٠١
٣٣	—	القصور عن إدراك محاور القرآن	١٠٢
٣٤	—	القرآن فتح النوافذ أمام النظر العقلي	١٠٦
٣٥	—	الدور المفقود للعلوم الاجتماعية والإنسانية	١٠٨
٣٦	—	قصور في إدراك الفكر القرآني	١١٠
٣٧	—	غياب المنهج القرآني	١١٣
٣٨	—	التدرج في العودة إلى الأحكام القرآنية	١١٥
٣٩	—	الاختلاف.. هل يعني تفريق الدين؟	١١٩
٤٠	—	الحكمة والميزان	١٢٣
٤١	—	هل اختلاف وجهات النظر الاجتهادية يعني تفريق الدين؟	١٢٨
٤٢	—	رد خبر الآحاد إذا خالف اليقين	١٣٦
٤٣	—	إدراك السنن الإلهية في الأنفس والآفاق: وسيلة الشهود الحضاري	١٤٢
٤٤	—	سنّة الأجل	١٤٣
٤٥	—	سنّة التداول الحضاري	١٥٢
٤٦	—	سنّة المدافعة	١٥٧
٤٧	—	سنّة التسخير	١٦١

٤٨ —	نصيب الفرد من الخطاب القرآني	١٦٦
٤٩ —	الإعجاز العلمي في القرآن	١٧٠
٥٠ —	القرآن والكسب العلمي	١٧٨
٥١ —	أزمة فكر.. لا أزمة منهج	١٨٤
٥٢ —	الاستبداد السياسي ووسائل التغيير في الخطاب القرآني	١٩٢
٥٣ —	تغيير الأفكار والنفوس هو الأساس	١٩٤
٥٤ —	عصمة عموم الأمة	١٩٨
٥٥ —	فهم متميز للخطاب القرآني	٢٠٠
٥٦ —	الاكتفاء بالتراث عن الكتاب والسنة	٢٠٧
٥٧ —	تأسيس منهج العودة إلى القرآن	٢٠٩
٥٨ —	فقه سيدنا عمر رضي الله عنه واجتهاده في تطبيق النص القرآني	٢١١
٥٩ —	كيف نتعامل مع القرآن ليكون مصدر العلوم الاجتماعية	٢١٣
٦٠ —	أثر الوراثة والاكتساب في حياة الأمم	٢١٦
٦١ —	نماذج للاستبداد السياسي والظلم الاجتماعي، وثواب الصمود والمواجهة (من خلال الرؤية القرآنية)	٢١٨
٦٢ —	تدبر القرآن: عاصم من السقوط الحضاري	٢٢٩
٦٣ —	لم ننتفع بالوحي.. ولم نعتبر بالتاريخ	٢٣١
٦٤ —	الله أعلم حيث يجعل رسالته..	
٦٥ —	هل تنطبق على الأمة كما تنطبق على الفرد	٢٣٢
	من مستلزمات التلقي القرآني والتعامل مع النص:	
٦٦ —	معرفة معهود العرب في الخطاب	٢٣٧
٦٦ —	ترجمة معاني القرآن	٢٣٩
٦٧ —	دور اللغة في إدراك مقاصد النص القرآني وصياغة وحدة الأمة	٢٤٤
٦٨ —	قضايا مطروحة للنظر والرأي	٢٤٦

٢٤٨	التفسير بالمأثور .. والتفسير بالرأي	٦٩ —
٢٥١	من ضوابط التفسير بالرأي	٧٠ —
٢٥١	أمية الأمة .. وأمية الشريعة	٧١ —
٢٥٩	القرآن .. والزمن	٧٢ —
٢٦٣	فهم القرون الأولى	٧٣ —
٢٦٧	القرآن .. والعلم	٧٤ —
٢٦٩	بين فلسفة العلوم وآلات فهمها	٧٥ —
٢٧٣	الشهود التاريخي .. والشهود الحضاري	٧٦ —
٢٨٠	الإمكان الحضاري	٧٧ —
٢٨٤	خاتمة	٧٨ —
٢٨٨	فهرس الآيات القرآنية	٧٩ —
٣٠٢	فهرس الأحاديث والآثار	٨٠ —
٣٠٦	فهرس الأعلام	٨١ —

مدخل الكتاب

طه جابر العلواني

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم النبيين وعلى آله وصحبه ومن تبعه بهديه الى يوم الدين.

وبعد : فإنه ليشرف المعهد العالمي للفكر الإسلامي ان يفتح ملفاً ثقافياً متنوع الجوانب للقرآن العظيم، وذلك تحقيقاً لرسالة المعهد، التي تقوم على العمل لإصلاح مناهج فكر المسلمين، وإعادة بناء النسق الثقافي الإسلامي بتقديم علوم اجتماعية وإنسانية إسلامية معاصرة، والبحث عن المنهج الأمثل للتعامل مع القرآن العظيم، والسنة النبوية المطهرة، وفق خطة محددة تقوم على دعائم أربع:

أولاً وأهمها:

إعادة استدعاء القرآن العظيم للساحة الثقافية الإسلامية، وإنهاء حالة الهجر والفصام بينه وبين العقل المسلم، وجعله المصدر الأول والأهم للمسلم المعاصر، كما كان كذلك عند السلف، يرجع إليه ليستقي منه العلم والمعرفة الدقيقة السليمة في نظراته إلى الإنسان والحياة والوجود، في الفطرة الإنسانية والاجتماعية، في قضايا الفرد والأسرة والمجتمع، والعلاقات والنظم.

والدعامة الثانية:

تأصيل منهج فهم السنة، والسيرة النبوية وسبل الاستفادة منهما في بناء الثقافة والحضارة الإسلامية المعاصرة.

والدعامة الثالثة:

استيعاب التراث الإسلامي، ومناهج فهمه، وتوظيف الصالح الإيجابي منه في بناء ثقافتنا الإسلامية المعاصرة واستفادة العبر والدروس من قضاياها والتنبيه إلى سلبياتها.

والدعامة الرابعة:

معرفة الفكر المعاصر (الغربي) وآليات فهمه، ووسائل استخدامه والاستفادة من

الصالح منه، والتنبيه إلى جذوره ومصادره، ونبذ سلبياته ، وبناء منهج للتعامل مع ذلك كله.

فمن الطبيعي والأمر كذلك أن يولي المعهد قضية فهم مناهج القرآن العظيم وطرائق التعامل معه من الاهتمام ما تستحقه، ولذلك تقرر فتح (ملف للقرآن العظيم) تدور الأبحاث فيه ودراساته حول مناهج فهم القرآن المجيد، وكيفية جعله المصدر الأول لثقافة المسلم المعاصر، ومعرفته وعلمه وتوجيهه، وقضايا تفسيره وتأويله، وتصنيفه وتبويبه، وعلاقته بعلوم المسلمين قديماً وحديثاً وعلاقتها به، وغير ذلك، مما يُمكن العقل المسلم من العودة إلى التعامل السليم مع القرآن الكريم، ويعيد القرآن العظيم إلى مركز الدائرة في ثقافة المسلم المعاصر، ومعرفته وحضارته، ليستعيد العقل المسلم عافيته، ويسترد القرآن المجيد دوره في عطائه وإنارته.

ولقد رأى المعهد أن يبدأ هذا الملف القرآني المبارك ببيان مناهج التعامل مع القرآن الكريم من خلال مدارس، بين الشيخ الجليل محمد الغزالي مستشار المعهد، والأستاذ الفاضل الأخ عمر عبيد حسنة المشرف على إعداد وتحرير «كتاب الأمة»، الذي تفضل مشكوراً بإعداد أفكار هذه المدارس، وصاغ أسئلتها، وفقاً لأهداف المعهد وغاياته من فتح هذا الملف. وستتلو هذه الحلقة إن شاء الله تعالى دراسات وأبحاث، تتناول الجوانب المختلفة من هذا الموضوع، الذي نرجو أن نوفق فيه لأداء الواجب الشرعي، وهو تيسير الذكر للمدكرين.

وفي إطار هذه الجهود أعد المعهد أيضاً مجموعة كبيرة من مرويّات السلف في التفسير، وقيد الطبع منها: «مرويّات الإمام أحمد بن حنبل في التفسير» التي يشرف الأستاذ الدكتور حكمت بشير أستاذ التفسير في الجامعة الإسلامية في المدينة المنورة على إصدارها ، وستصدر في مجلدين إن شاء الله.

وفي حلقات هذا الملف كتاب: «نظرية المعرفة في القرآن العظيم»، التي يعكف الأستاذ محمد أبو القاسم حاج حمد على إعدادها الآن.

وسعيًا لتحقيق الهدف الكبير، وهو هيمنة القرآن العظيم على العقل الإنساني وقيادته لهدايته: جرت وتجري محاولات التكشيف والتصنيف الموضوعي للقرآن العظيم.

والمعهد وهو يطوف في رحاب القرآن العظيم الفسيحة، يود أن يؤكد لأولئك الجاحدين والمعاندين أن أية محاولة فهم للإسلام، أو إصلاح لأحوال المسلمين تتجاوز القرآن العظيم، أو تهجره، أو تتخطاه، أو تقرؤه بنفس الأعين التي تقرأ بها معلقات امرئ القيس، وطرفة، وعنترة، وخمريات أبي نؤاس، إنما هي محاولات بائرة خاسرة، لا تحاولها إلا أبصار كليله وبصائر صدئة.

كما أن تلك القراءات التي تقوم على الهذمة، والقراءة اللغوية، والفهم المعتمد على تردد البصر بين الآية، والمعجم اللغوي، والذهن العملي، أو الآلي لن توصل إلى الوعي الحضاري العمراني بالقرآن، ولذلك فتح المعهد ملف القرآن العظيم ليكون سلسلة من الأبحاث والدراسات في القرآن العظيم وحوله، تنتهي بتعليم القراءة المتدبرة التي تهّي المسلمين للفهم الرسالي للقرآن العظيم، وتخرجهم من إطار الفهم الحرفي الفني المهني — الذي سنضعه موضعه من الوسائل الفنية للفهم والإدراك الغائبين الشاملين للكتاب المجيد.

وتتسم هذه المدارس بمداخل نقدية عديدة تبعاً لتنوع الموضوعات التي تشملها في محاولات يبدؤها كل من المتدارسين السائل والمجيب لاستخلاص وعي قرآني بشروط معرفية، تقارب ضوابط المنهج الذي لا يأخذ بكل ما ورد ضمن الفكر السائد الموروث دون تمحيص وتحليل ونقد.

والمدارس تعمل على استدعاء القرآن في إطار عالمي متغير، وبشروط وعي جديد، لا ندعي أنه قد اكتمل في هذه المدارس، التي تكمن أهميتها في تصحيح كثير من المفاهيم المتعلقة بالتعامل مع القرآن والموضوعات الإسلامية، كخطوة أولى يؤسس بموجبها الوعي المنهجي الإسلامي المعاصر، فهي مدارس تأخذ جانب المراجعة والتقييم لموروثنا الإسلامي من زاويته البشرية.

وهذه المدارس لم تتجه لإحداث (قطيعة معرفية) مع موروثات الفكر الإسلامي السائد في التفسير وغيره، بل استصحب منها ما يمكن توثيقه، مع انفتاح إيجابي على تيارات ومدارس الفكر الإسلامي كافة، خاصة السابقة في نشأتها على عصور الانحطاط والتخلف والتوقف العقلي.

ولا نريد أن نضيف في هذا المدخل ما سيأتي في المدارس المتعددة الموضوعات، أو أن نستبق قضاياها، ولكننا رأينا أن نمهد لهذه المدارس بتوضيح مشروعتنا، ورؤيتنا لطبيعة القرآن العظيم، وما يواجهنا من قضايا في مجال التعامل معه.

لقد استمد العلماء — كل في مجال تخصصه — معارف مختلفة من القرآن الكريم، وأستندوا إليه بأفهامهم وعالجوه بطرائق مفهومية شتى، وذلك تبعاً لحالات التطور الفكري في سياق التاريخ البشري، فالذي يقرأ القرآن في إطار وحدته الكلية غير الذي يقرؤه قراءة انتقائية، تسليخ الآيات عن سياقها الكلي، كما أن الذي ينظر إليه قصصاً وتشريعاً وترغيباً وترهيباً، غير الذي ينظر إليه جامعاً شاملاً خالداً مجرداً عن حدود الزمان والمكان يغطي الوجود الكوني وحركته، باعتبار أن القرآن هو المعادل

الموضوعي في الوعي للكون وحركته وعلاقاته، وعبر استمرارية وتغيرات الزمان والمكان.

لقد حدد القرآن نفسه مواصفاته باعتباره كلام الله تعالى، وأوضح أنه وحي كامل، يستجيب لما كان من حالات تاريخية سابقة، ويستمر باتجاه المستقبل عبر مختلف العصور:

﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ * ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ يُؤْذِنُ اللَّهُ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ (فاطر: ٣١-٣٢).

إن هاتين الآيتين تشيران بشكل واضح إلى أن الكتاب الكريم يستمر في العطاء، ليستجيب لمختلف العصور، وتكون الاستجابة بمكوناته التي تنكشف طبقاً لحالات الاستدعاء الزماني، فهو متجدد العطاء:

﴿فَلَا أَقْسَمُ بِمَوْقِعِ النُّجُومِ * وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ * إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ * فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ * لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ (الواقعة: ٧٥-٧٩).

ومن خواص القرآن العظيم أنه الوحيد المعصوم من بين جميع الكتب السماوية، ومن خلاله حفظ الله - سبحانه - ذكر من سبقنا كذلك، فلولا القرآن العظيم لضاع الصحيح السليم من تراث الأنبياء:

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (الحجر: ٩).

فهو المرجع الموثق الوحيد للآخرين وقضاياهم أيضاً
﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَهُمْ أَعْلَمُ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ * بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (النحل: ٤٣-٤٤).

﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ (المائدة: ١٨)

فهو الكتاب المهيم على ما حَرَفَ من الكتب السابقة:

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ وَلَوْ لَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ﴾ (فصلت: ٤٥).

خصائص القرآن عديدة، ويمكن تلمسها في وحدته الكلية المنهجية خاصة في ترتيبه التوقيفي، فيما تجاوز مرحلة النزول الجزأ والمرتبط بالمناسبات، فصار لكل سورة عمودها وهدفها الأساس، ووضح المحور الكلي للقرآن العظيم في وحدته الكاملة.

كما يمكن تلمسها في الحفظ الإلهي، وتجدد العطاء وتكشف المكنون تبعاً للاستدعاء الزماني، فهو المهيمن على الزمان والمكان والمتغيرات، بما يمنحه من وعي كامل للوجود الكوني وحركته وعلاقاته. إنه وعي الكون كله بما فيه مدركاً بكلمات الله، فلا يمكن للماضي أو الحاضر أو المستقبل أن يحيط بوحي الكتاب مطلقاً، وإنما يأخذ منه ما يستدعيه عصره بنسبية الظرف التاريخي ومتعلقاته الاجتماعية والحضارية وعبر طرائق فكره.

وأهمية هذه الدراسة لا تكمن في إعادة تفسير أو تأويل، وإنما تكمن في محاولة تخلص الفكر الإسلامي من شوائب كثيرة تمهيداً لإحداث النقلة النوعية باتجاه المعرفة والمنهج، في مجتمع إسلامي، لا نقول: إنه قد استوعب المتغيرات الحضارية العالمية الجديدة، ولكنه بدأ في ذلك. فعالمية الخطاب والفكر والتوجه هي من خصائص الإسلام، الذي أسس أول عالمية دينية بوصف النبي ﷺ خاتماً للأنبياء ورحمة للعالمين، وبوصف القرآن المجيد خاتماً للكتب السماوية ومهيماً عليها.

عالمية التوجه مؤصلة في بنائنا الإسلامي، ولهذا نلمس في المدارس انفتاحاً حضارياً عالمياً، بحيث تمضي المدارس إلى معالجة أزمات الحضارة العالمية بالإسلام، وبوعي منهجي يصوب منجزات الفكر البشري المعاصرة، موضعاً بذلك هيمنة الإسلام على التجربة البشرية كلها من غير أن يطوع نصوص القرآن بعصرانية مفتعلة!! وفي هذا الصدد نود أن نشير إلى أن شروط الوعي المنهجي المعاصر، الذي نلمس بعضاً من دلالاته في هذه المدارس، لا يتم بمجرد الانتماء الزماني لهذا العصر، دون انتماء مكاني، فالنمو والتطور ليس مجرد تراكم كمي لمستجدات معاصرة، تضاف أو تلحق ببناء المجتمع القديم، وإنما هو تحول كيمي في بنية المجتمع الاقتصادية والاجتماعية والفكرية، تستدعي تواصلًا جديداً مع القرآن، وبشروط وعي جديد، يكونها هذا الواقع المستجد. فمفهوم المعاصرة، أو المجتمع المعاصر، لا يعني استمرار المجتمع القديم بأزمته الفكرية في مرحلة زمنية متقدمة، وإنما يعني ما يصيب هذا المجتمع من تحول تاريخي، يستحق بموجبه صفة المعاصرة، وفق مقاييسها الموضوعية العالمية الراهنة، التي تمكنه من إعادة وجوده، وفي ذلك إعادة اكتشاف المعنى القرآني نفسه في واقع متغير، وعلى هذا الأساس فإن الكثير من مجتمعاتنا العربية والإسلامية قد ترى نفسها معاصرة للعالم بالقياس الزمني، أي لأنها موجودة في نطاق هذا العصر، ولكنها لا تعيش في الواقع حالة عصرية، تنفتح بموجبها على شروط الوعي الحضاري العالمي الجديد، بما فيه من عقلية نقدية، وتحليلية، وتطلع إلى ضبط المعرفة بالمنهج ومعالجة مشكلات العصر.

إنه نتيجة لهذا الفصام ما بين وجود المجتمعات العربية والإسلامية اليوم بأزماتها

الفكرية التاريخية، وانغلاقها وانشدادهما إلى الماضي، وكونها تعيش في حقبة الزمن العالمي المعاصر، أعطتها ذلك شعوراً بالمعاصرة من جهة، مع عجزها عن التفاعل المكاني، والزمني الذي يؤهلها لاكتشاف شروط الوعي العالمي المعاصر من جهة أخرى، ولذلك نجد أن بعض القيادات الفكرية لهذه المجتمعات لا تزال تعيد التأليف في فكر الواقع التاريخي وحده، وتحاول إعادة إنتاج مراحل سابقة في مراحل لاحقة دون اكتشاف مضمون المتغير العالمي تاريخياً واجتماعياً، إنها تكتفي بترديد موضوعات السلف الصالح — رضوان الله عليهم — بما كانوا عليه من اجتهاد في عصرهم وفي قضاياهم، دون الأخذ بمضمون المتغير التاريخي وضرورة الاجتهاد في عصرنا هذا، فعوضاً من أن نجعل من السلف الصالح قدوة في الاجتهاد جعلنا منهم نماذج للتقليد.

إن المدارس في الحقيقة هي محاولة لكسر هذا الطوق، فقد حاولت بعقل العالمين بغايات الدين ومقاصد الشريعة، وبوعي تام على التطورات التاريخية، التي أسرت انطلاقة الفقه الإسلامي بمعناه الشامل للفقه السياسي والدستوري وفقه العلاقات الاقتصادية والدولية، تحديد كيفية تأثير تلك التطورات التاريخية على موقف الأمة والتزامهم ناحية فروع الفقه، كما التزم المحدثون برواية السنن وقضايا الإسناد، ومن خلال هذا التصور التاريخي يسعى الشيخ الغزالي لأن يستعيد للفقه مكانته التي تأثرت سلباً بالواقع التاريخي، ويكشف هنا عن ثنائيات تعارضت وما كان ينبغي لها ذلك في ظل الإسلام، كثنائية الحكم والعلم، والفقه والتصوف، والتعارض بين الذين عكفوا على القرآن دون تتبع السنن، أو عكفوا على السنة دون التزام بموازين القرآن، وبمعنى آخر فإن المدارس تكشف عن توجهات المدارسين لتحقيق الاستقطاب الموحد لفعاليات الأمة الإسلامية وتوجهاتها ضمن إطار قرآني جامع، يتجاوز الثنائيات المتعارضة ويتعالى على الجزئيات، وذلك بهدف تحقيق القرآن العظيم لحضارة كاملة: ﴿... وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ (النحل: ٨٩).

ومن هذا المنطلق جاء التوجه لتأسيس التفسير الموضوعي للقرآن وبالنظر للسورة القرآنية على أنها وحدة كاملة وانتقاد النظرات التجزئية.

وقد تعرضت المدارس في أحد جوانبها إلى قضية (النسخ) في القرآن حيث فسر بعض العلماء النسخ: بأنه انتهاء أحكام بعض الآيات، أو رفعها، وقد انتقدت المدارس هذا التعريف ورفضته استدلالاً بسياق الآيات وترباطها، وبأقوال بعض العلماء كالشيخ محمد رشيد رضا، والأستاذ محمد الخضر حسين، بأن النسخ يتجه إلى خرق ما كان من معجزات حسية، وقد فرقت المدارس بين الآيات التكوينية والآيات التكوينية،

معتقدة أن النسخ ينحصر في الآيات التكوينية ولا ينصرف إلى الآيات التكليفية، فالنسخ بهذا المعنى يتناول مرحلة تاريخية نسخت ولا ينصرف إلى آيات تكليفية نسخت، ويعتبر هذا الفهم العلمي مجالاً لدراسة أخرى حول الأديان المقارنة، والتشريعات الدينية في سياق التطور التاريخي للبشرية.

كما أوضحت المدارس أن الباب مفتوح لدراسات دينية مقارنة.. يمكن أن تمهد لاكتشاف عالمية الإسلام وشمولية خطابه، وأن هذه المقارنة سوف تساعد البشرية على اكتشاف خصائص الإسلام.

كما حفلت المدارس بنظرات صائبة متنوعة توجه إلى كيفية التعامل مع القرآن العظيم بوصفه مصدرًا للعلوم الاجتماعية والإنسانية والثقافة والحضارة.

إن المعهد العالمي للفكر الإسلامي وهو يقدم هذه المدارس ليأمل أن يكون بذلك قد فتح الباب على مصراعيه لدراسات متنوعة يكون محورها القرآن العظيم، تساعد المسلم المعاصر على التزود بالوعي المنهجي، والفكر الموضوعي، والقدرة العلمية على بناء نسقه الثقافي، وتصحيح منهجه الفكري.

جزى الله أستاذنا الشيخ الغزالي على جهوده هذه خير الجزاء ونفع المسلمين بعلومه وثواب رأيه وصائب توجيهه، وشكر الله لأخينا الأستاذ عمر عبيد حسنة جهوده المتنوعة في خدمة الفكر الإسلامي وفي إعداد هذه المدارس وبارك في المتدربين وفي المستفيدين من مدارستهما، إنه سميع مجيب. وآخر دعوانا ان الحمد لله رب العالمين.

طه جابر العلواني

رئيس المعهد العالمي للفكر الإسلامي

جمادى الأولى ١٤١١هـ

نوفمبر ١٩٩٠م

هيرندن — فيرجينيا
الولايات المتحدة الأمريكية

مقدمة

عمر عبيد حسنة

الحمد لله الذي خلق الإنسان ، علمه البيان ، وأنزل القرآن ، ويسره للذكر ،
واستنفر لذلك العقل وجعله مناط التكليف ، وأداة النظر والتدبر :
﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴾ (القمر : ١٧) ،
ونعى على الذين يعطلون عقولهم ، ويغلقون نوافذ المعرفة :

﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمُّ بِكُمْ عُمًى
فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ (البقرة : ١٧١) ،

كما نعى على الذين لا يتدبرون القرآن ويكتفون منه بالقراءة التي لا تتجاوز تراقيهم إلى
قلوبهم وعقولهم :

﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ (محمد : ٢٤)

وصلى الله على محمد النبي الخاتم الذي انتهت إليه أصول الرسالات السماوية
جميعاً ، وتجمعت لرسالته تجربة النبوة من لدن آدم عليه السلام ، فحمل القرآن بين
دفتيه الشهود التاريخي ، بما قصّ من أخبار الأمم السابقة ؛ والشهود الحضاري بما
تجسد من سيرة الرسول ﷺ ، وتمثّل في خير القرون ؛ والشهود المستقبلي بما أصل من
قواعد ، ووضع من معالم ، وكلف من نظر وتدبر في سنن الله في الأنفس والآفاق التي
هي السبيل للتمكين في الأرض ، والقيام بالشهادة على الناس ، والقيادة لهم :

﴿ وَلَنَعْلَمَنَّ نَبَأُكُمْ بَعْدَ حِينٍ ﴾ (ص : ٨٨)

وبعد ؛

فواقع معظم المسلمين اليوم مع القرآن ، مؤرق ، وعلاقتهم به يحكمها الهجر

والعقود إلى درجة نخشى معها أن نقول : إن علل الأمم السابقة التي حذر منها القرآن ، ونبّه إليها الرسول ﷺ ، تسربت إلى العقل المسلم :

﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيًّ ﴾ (البقرة : ٧٨) ،
أي : لا يعلمون الكتاب إلا تلاوة وترتيلاً .

قال ابن تيمية^(١) رحمه الله ، عن ابن عباس^(٢) وقتادة^(٣) في قوله : ﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ ﴾ ، أي : غير عارفين بمعاني الكتاب ، يعلمونها حفظاً وقراءة بلا فهم ، لا يدرون ما فيها ... وقوله : ﴿ إِلَّا أَمَانِيًّ ﴾ ، أي : تلاوة ، لا يعلمون فقه الكتاب ، إنما يقتصرون على ما يُتلى عليهم ...

والأمية العقلية هذه ، تسود الأمة في حال التقليد ، والغياب الحضاري ، والعجز عن تدبر القرآن ، والتعامل مع الأحداث ، واتخاذ المواقف ، واكتشاف سنن الله في الأنفس والآفاق ، وحسن تسخيرها ، ومعرفة كيفية التعامل معها ، والنفاز من منطوق النص وظاهره إلى مقصده ومرماه ، والتدخل حين نعلم السنة وأنها تتكرر ولا تتبدل ، فنستطيع توجيهها إلى حيث نريد ونفيد ، فنصل إلى مرحلة مغالبة القدر بقدر أحب

(١) هو أحمد بن عبد الحلیم بن عبد السلام بن تيمية الحرّانيّ الدمشقيّ ، تقي الدين . الإمام شيخ الإسلام . حنبلي . ولد في حرّان عام ٦٦١ هـ . وانتقل به أبوه إلى دمشق فنبغ واشتهر .. سجن بمصر مرتين من أجل فتاواه . وتوفي بقلعة دمشق معتقلاً . كان داعية إصلاح في الدين ، آية في التفسير والعقائد والأصول ، فصيح اللسان ، مكثراً من التصنيف . توفي عام ٧٢٨ هـ .
من تصانيفه «السياسة الشرعية» و «منهاج السنة» و «درء تعارض العقل والنقل» وطبعت فتاواه في الرياض في ٣٥ مجلداً .

(٢) هو عبد الله بن عباس بن عبد المطلب . قرشي هاشمي . حبر الأمة وترجمان القرآن ، ولد عام ٣ قبل الهجرة . أسلم صغيراً ولازم النبي ﷺ بعد الفتح وروى عنه . كان الخلفاء يجلبونه . شهد مع عليّ الجمل وصفين . وكف بصره في آخر عمره . كان يجلس للعلم ، فيجعل يوماً للفقه ، ويوماً للتأويل ، ويوماً للمغازي ، ويوماً للشعر ، ويوماً لوقائع العرب ، توفي بالطائف عام ٦٨ هـ .

(٣) هو قتادة بن دعامة بن قنادة السدوسي . من أهل البصرة . ولد ضريراً عام ٦١ هـ . أحد المفسرين والحفاظ للحديث . قال أحمد بن حنبل : قتادة أحفظ أهل البصرة . وكان مع علمه بالحديث رأساً في العربية ، ومفردات اللغة وأيام العرب ، والنسب ، مات بواسط في الطاعون عام ١١٨ هـ .

إلى الله ، أو نفر من قدر الله إلى قدر الله ، كما قال عمر بن الخطاب (٤) رضي الله عنه .. يقول ابن القيم (٥) رحمه الله : ليس الرجل الذي يستسلم للقدر ، بل الذي يخارب القدر بقدر أحب إلى الله ... (مدارج السالكين ، ج ١) .

إنها الأمة العقلية التي نعيشها اليوم مع القرآن ، والتي تعني ذهاب العلم على الرغم من تقدم فنون الطباعة ، ووسائل النشر ، وتقنيات التسجيل .. ولعل فيما يذكره ابن كثير (٦) رحمه الله عند تفسير الآية الثالثة والستين في سورة المائدة ، في الجدل الذي وقع بين الرسول ﷺ وصاحبه زياد بن لبيد (٧) ، مؤشراً دقيقاً على الأمة العقلية التي صرنا إليها مع كتاب الله .

(٤) هو عمر بن الخطاب بن نفيل ، أبو حفص ، الفاروق . صاحب رسول الله ﷺ ، وأمير المؤمنين ، ثاني الخلفاء الراشدين . كان النبي ﷺ يدعو الله أن يعز الإسلام بأحد العمرين ، ولد عام ٤٠ قبل الهجرة ، فأسلم هو ، وكان إسلامه قبل الهجرة بخمس سنين ، فأظهر المسلمون دينهم . ولزم النبي ﷺ ، وكان أحد وزيري ، وشهد معه المشاهد . بايعه المسلمون خليفة بعد أبي بكر ، ففتح الله في عهده الفتوح ، ونشر الإسلام حتى قيل : أنه انتصب في عهده اثنا عشر ألف منبر . وضع التاريخ الهجري . ودون الدواوين . قتله أبو لؤلؤة المجوسي وهو يصلي الصبح عام ٥٢٣ هـ .

(٥) هو محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد الزرعي . شمس الدين من أهل دمشق . من أركان الإصلاح الإسلامي ، وأحد كبار الفقهاء . تتلمذ على ابن تيمية وانتصر له ولم يخرج عن شيء من أقواله ، وقد سجن معه بدمشق . كتب بخطه كثيراً ، وألف كثيراً . ولد عام ٦٩١ هـ ، وتوفي عام ٧٥١ هـ .

من تصانيفه : « الطرق الحكيمة » ، و « مفتاح دار السعادة » ، و « الفروسية » ، و « مدارج السالكين » .

(٦) هو إسماعيل بن عمر بن كثير بن ضوء بن كثير ، أبو الفداء ، البصري ثم الدمشقي الشافعي ، المعروف بابن كثير . مفسر ، محدث ، فقيه ، حافظ ، قال العيني وابن حبيب : كان قدوة العلماء والحفاظ ، عمدة أهل المعاني والألفاظ ، وسمع وصنف ودرّس وألف . وكان له اطلاع عظيم في الحديث والتفسير والتاريخ ، واشتهر بالضبط والتحرير ، وانتهت إليه رئاسة العلم في التاريخ والحديث والتفسير . ولد عام ٧٠١ هـ ، وتوفي عام ٧٧٤ هـ .

من تصانيفه : « شرح تنبيه أبي إسحاق الشيرازي » ، و « البداية والنهاية » ، و « شرح صحيح البخاري » ، و « تفسير القرآن العظيم » ، و « الاجتهاد في طلب الجهاد » ، و « الباعث الحثيث إلى معرفة علوم الحديث » . و « جامع المسانيد » جمع فيه أحاديث الكتب الستة والمسانيد الأربعة .

(٧) هو زياد بن لبيد بن ثعلبة بن سنان بن عامر الأنصاري ، شهد العقبة وبدراً وكان عامل النبي ﷺ على حضرموت ، وولاه أبو بكر رضي الله عنه قتال أهل الردة من كندة .

فعن الإمام أحمد^(٨) رحمه الله ، قال : ذكر النبي ﷺ شيئاً فقال : « وذاك عند ذهاب العلم » ، قلنا يا رسول الله ، كيف يذهب العلم ونحن قرأنا القرآن ونقرئه أبناءنا ، وأبنائنا يقرئون أبناءهم ؟ فقال : « ثكلتك أمك يا ابن لبيد ، إن كنت لأراك من أفقه رجل في المدينة ، أو ليس هذه اليهود والنصارى بأيديهم التوراة والإنجيل ولا ينتفعون مما فيهما بشيء ؟ »^(٩) .

وقد تكون مشكلة المسلمين كلها اليوم ، في منهج الفهم الموصل إلى التدبر ، وكسر الأقفال من على العقول والقلوب ، وتجديد الاستجابة ، وتحديد وسيلتها ، ليكونوا في مستوى القرآن ، ومستوى العصر ، يحققوا الشهود الحضاري ، ويتخلصوا من الحال التي استنكرها القرآن :

﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفُرَاتِ أَمْرًا عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالَهَا ﴾ (محمد : ٢٤) ،

﴿ كَتَبْنَا إِلَيْكَ مَبْرُوكًا لِيَذَبُ رُءُوسَ الْإِنْتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴾ (ص : ٢٩) .

وهنا قضية ، اعتقد أنه من المفيد التوقف عندها ولو قليلاً ، ذلك أن كثيراً من العاملين في حقول الفكر والمعرفة ، يظنون أن معادلة المسلمين الصعبة اليوم وأزمته الفكرية تتمثل في غياب المنهج ، ويجهدون أنفسهم بالبحث والدرس ، وتقليب الأمر على وجوه كثيرة ، وقد يكون من ذلك التطلع إلى ما عند الآخرين !

وفي تصوري : أن الأزمة التي لا نزال نعاني منها ، ليست بافتقار المنهج ، فالمنهج (مصدر لمعرفة) موجود، ومعصوم، ومُختبر تاريخياً.. لكن، المشكلة بافتقار وسائل

(٨) هو أحمد بن حنبل الشيباني ، أبو عبد الله . من بني ذهل بن شيبان الذين ينتمون إلى قبيلة بكر بن وائل . إمام المذهب الحنبلي ، وأحد أئمة الفقه الأربعة . أصله من مرو ، ولد ببغداد . امتحن في أيام المأمون والمعتصم ليقول بخلق القرآن فأبى وأظهر الله على يديه مذهب أهل السنة . ولما توفي الوائق وولي المتوكل أكرم أحمد ، ومكث مدة لا يولي أحداً إلا بمشورته . ولد عام ١٦٤ هـ ، وتوفي عام ٢٤١ هـ .

له « المسند » وفيه ثلاثون ألف حديث ، و « المسائل » ، و « الأشربة » ، و « فضائل الصحابة » وغيرها .

(٩) الحديث رواه أحمد في مسنده ، ورواه ابن ماجه في سننه عن زياد بن لبيد الأنصاري رضي الله عنه — في كتاب الفتن ، ورواه الترمذي في سننه في باب ما جاء في ذهاب العلم ، وقال هذا حديث حسن غريب .

الفهم الصحيحة، وأدوات التوصيل، وكيفية التعامل مع القرآن.. اي: منهج فهم القرآن والسنة، فالله سبحانه وتعالى يقول:

﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ (المائدة : ٤٨)

ويقول :

﴿وَأَنْ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ (الأنعام : ١٥٣)

والرسول ﷺ يقول : « لو أن موسى كان فيكم حياً ما وسعه إلا أن يتبعني » (١٠) ، وذلك عندما تطلع بعض الصحابة إلى تحصيل المعرفة من التوراة.

ونخشى عند التساهل والقبول بأن الأزمة التي نعاني منها أزمة منهج ، وليست أزمة فهم للقرآن الذي هو مصدر للمعرفة، عندها قد ينأى بنا السير إلى السقوط في التعامل مع مناهج أخرى ، والافتتان عما نزل إلينا ، أو بعضه :

﴿وَأَحْذَرُهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ (المائدة : ٤٩)

لذلك ، لا بد أن نقرر : بأن الأزمة أزمة فهم ، وأزمة تعامل ، وأزمة أمية عقلية صرنا إليها بذهاب العلم (مناهج الفهم) ، (وسائل المعرفة).

والجهود ، فيما نرى اليوم ، يجب أن تنصب على منهج الفهم ، وإعادة فحص واختبار المناهج القائمة التي أورثتنا مانحن عليه، والتحرر من تقديس الأبنية الفكرية الاجتهادية السابقة التي انحدرت إلينا من موروثات الآباء والأجداد والمناخ الثقافي الذي يحيط بنا منذ الطفولة ، ويتسرب إلى عقولنا فيشكلها بطريقة التفاعل الاجتماعي ، الأمر الذي أدّى إلى انكماش الفكر والرؤية القرآنية في واقع حياتنا.، وتحول القرآن من مراكز الحضارة وصناعة الحياة ، إلى الركود والتحنط في بطون التاريخ التي تشكلت في عصور التخلف والتقليد والتي حالت دون إدراك أبعاد النص القرآني ، والقدرة على

(١٠) الحديث رواه أحمد في مسنده ، وأبو يعلى والبخاري ، عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما ، وذكر الهيثمي أن في رواه مجالد بن سعيد ، ضعفه أحمد ويحيى بن سعيد وغيرهما [مجمع الزوائد ١/ ١٧٤] .

تعديته للزمان والمكان . ذلك أن الصورة التي طبعت في أذهاننا ، في مراحل الطفولة ، للقرآن ، أنه : لا يُستدعى للحضور إلا في حالات الاحتضار والنزع ، والوفاة ، أو عند زيارة المقابر ، أو نلجأ لقراءته عند أصحاب الأمراض المستعصية ، وهي قراءات لا تتجاوز الشفاه .

ولذلك ، اقترنت الصورة الموروثة للقراءة بحالات من الخوف والاكتئاب ، ينفر منها الإنسان ، ويستعيد بالله من سماعها .. فإذا تجاوزنا مؤسسات الأمية والعامية التي تشكلت من خلالها تلك الصور المفزعة للقرآن ، إلى مراكز ودروس تعليم القرآن الكريم ، رأينا أن الطريقة التي يُعلّم بها ، يصعب معها استحضار واصطحاب التدبر والتذكر والنظر ، إن لم يكن مستحيلاً .. فالجهد كله ينصرف إلى ضوابط الشكل من أحكام التجويد ومخارج الحروف ، وكأننا نعيش المنهج التربوي والتعليمي المعكوس .. فالإنسان ، في الدنيا كلها ، يقرأ ليتعلم ، أما نحن فنتعلم لنقرأ ! لأن المهم كله ينصرف إلى حسن الأداء .. وقد لا يجد الإنسان أثناء القراءة فرصة للانصراف إلى التدبر والتأمل ، وغاية جهده إتقان الشكل .. وقد لا يعيب الناس عليه عدم إدراك المعنى قدر عيهم عدم إتقان اللفظ ! ولا أزال أذكر أننا وبعد عدة سنوات من التعليم ، كان مدرس القرآن يراجع بعضنا في تحسين النطق بأعوذ بالله من الشيطان الرجيم مفتتح القراءة .

ونحن هنا ، لا نهوّن من أهمية ضبط الشكل ، وحسن الإخراج ، وسلامة المشافهة ، لكننا ندعو إلى إعادة النظر بالطريقة ، حتى نصل إلى مرحلة التأمل والتفكير والتدبر التي تترافق مع القراءة ، وقد يكون ذلك بأن نبدأ التلقين بالأداء الحسن ابتداءً ، مع التوجيه اللافت للنظر صوب المعنى ، ولا نلتفت إلى ضبط الشكل إلا في حالات التصويب ، ولتكن حالات الاستثناء .

وقد يكون من أخطر الإصابات التي لحقت بالعقل المسلم فحالت بينه وبين التدبر ، وكسر الأقفال ، ووضع الأغلال والآصار ، والتحقق بالفكر القرآني والرؤية القرآنية الشاملة ، والاعتراف منها لعلاج الحاضر ، والامتداد صوب المستقبل ، واعتماده

مصدراً للمعرفة والبعث الحضاري ؛ التوهم بأن الأبنية الفكرية السابقة التي استمدت من القرآن في العصور الأولى ، هي نهاية المطاف ، وأن إدراك أبعاد النص مرتين بها ، في كل زمان ومكان ، وما رافق ذلك من النهي عن القول في القرآن بالرأي ، وجعل الرأي دائماً قرين الهوى ، وسوء النية ، وفساد القصد . وفي هذا ما فيه من محاصرة للنص القرآني ، وقصر فهمه على عصر معين ، وعقل محكوم برؤية ذلك العصر ، وحجر على العقل ، وتخويف من التفكير ، الأمر الذي يحول بين الإنسان والتدبر المطلوب إليه بنص القرآن . هذا ، علاوة على أن الاختصار على هذا المنهج في النقل والتلقي ، يحاصر الخطاب القرآني نفسه ، ويقضي على امتداده وخلوده ، وقدرته على العطاء المتجدد للزمن ، وإلغاء لبعده المكاني :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ (سبأ : ٢٨) ،

ولبعده الزماني :

﴿ وَلَٰكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ﴾ (الأحزاب : ٤٠) ،

وإلغاء التكليف القرآني من السير في الأرض ، والنظر في البواعث والعواقب ، واستمرار النظر في الأنفس والآفاق ، والاكتشاف المستمر للسنن والقوانين ، والتعامل معها في ضوء العطاء العلمي ، والكشوف البشرية في إطار علوم الكون والحياة :

﴿ سَتَرِيهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾ (فصلت : ٥٣)

ولعل ، ترسب هذه القناعة العجيبة الغريبة ، هي من الأقفال الأولى التي يجب كسرها لينطلق الفهم من قيوده وأغلاله وآصاره ، فيتحقق العقل بالرؤية القرآنية في أبعاد الحياة المختلفة ، وينضج معرفة وحضارة مستمدة من الوحي المعصوم ، لأن هذه القناعة إذا استمرت ، سوف تلغي الحاضر والمستقبل معاً ، وتسقط عن القرآن صفة الخلود الزماني ، والامتداد المكاني .

ومن المفارقات العجيبة حقاً للعقل المسلم جرأته على إلغاء التكليف القرآني بالنظر والتدبر وإسقاطه باجتهاد بشري ، وذلك لعدم إدراكه للنص النبوي

— البيان القرآني — الذي يقرر : أنها قد تتأثى فهم مستقبلية أكثر وعياً وإدراكاً للنص القرآني : « بلغوا عني ولو آية »^(١١) ، « فربّ مبلغ أوعى من سامع »^(١٢) ، « فربّ حامل فقه إلى من هو أفقه منه »^(١٣) ... ونحن بهذا ، لا ندعو إلى القفز فوق الفهم التاريخية للقرآن ، وهذا الميراث الثقافي الذي يعتبر مفخرة من مفاخر الفكر ، والاعتراف من القرآن مباشرة ، بمؤهلات وبدون مؤهلات ؛ وإنما نريد أن نحرر العقل من قيوده حيث حُرّم عليه النظر ، وندعو إلى النظر الذي لا يتحقق ولا يتأثى ، ولا يستحق أن يسمى نظراً إذا تجاهل الفهم السابقة ، ولعل من أبسط مستلزماته : اصطحاب الاجتهادات السابقة ، ولكن لا تقتصر عليها ، فلكل عصر رؤيته ، في ضوء مشكلاته ومعطياته .

إن الدعوة إلى محاصرة العقل ، والحجر عليه ، وقصر الفهم والإدراك والتدبر على فهم السابقين هو الذي ساهم بقدر كبير في الانصراف عن تدبر القرآن ، وأقام الحواجز النفسية المخيفة التي حالت دون النظر ، وأبقى الأقفال على القلوب ، وصار القرآن تناغم وترانيم . وبدل أن يكون الميراث الثقافي وسيلة تسهل الفهم ، وتغني الرؤية ، وتعين على التدبر ، أصبح — من بعض الوجوه — عائقاً يحول دون هذا كله .. وشيئاً فشيئاً ، تتحول القدسية من القرآن إلى السنة ، فتُجعل السنة حاکمة على القرآن ، ومن ثمّ ، انتقلت القدسية لفهم البشر ، وبقي الكتاب والسنة للتبرك .

فالمشكلة المستعصية ، في اختلاط قداسة النص ببشرية التفسير والاجتهاد لذلك النص ، وإدراك مرماه . حيث عُذّ رأي الشيخ أو المتبوع في تفسير نص ما

(١١) الحديث رواه البخاري في صحيحه ، عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما — في كتاب الأنبياء ، باب ما ذكر عن بني إسرائيل .

(١٢) الحديث رواه الترمذي في سننه بلفظ : « نضر الله إمرأاً سمع منا شيئاً فبلغه كما سمعه ، فرب مبلغ أوعى من سامع » وهو من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ، في أبواب العلم ، باب الحث على تبليغ السماع ، وقال هذا حديث حسن صحيح .

(١٣) الحديث رواه الترمذي في سننه بلفظ : « نضر الله إمرأاً سمع منا حديثاً فحفظه حتى يبلغه غيره ، فرب حامل فقه إلى من هو أفقه منه ، ورب حامل فقه ليس بفقيه » ، وهو من حديث زيد بن ثابت رضي الله عنه ، في أبواب العلم ، باب الحث على تبليغ السماع ، وقال حديث حسن .

أو فهمه، هو الأمر الوحيد، والممكن، والمحتمل، والأكمل لدلول ذلك النص! وصار أي رأي أو احتمال آخر، خروجاً عن الإجماع، أو نوعاً من الابتداع! وقد لا نستغرب في هذا المناخ أن ينتهي بعض الفقهاء والأصوليين إلى القول: (كل آية أو حديث تُخالف ما عليه أصحابنا، فهو مؤول أو منسوخ)! وهذا القول منسوب لأبي الحسن الكرخي^(١٤) من الأحناف.

وقد يكون هذا واقع العقل المسلم لكثير ممن سيطر عليهم مناخ التقليد الجماعي، وإن لم يصرحوا به، وأصبح كف العقل عن فهم وتدبر القرآن، مناخاً عاماً يصعب الانفلات منه. وجاءت ثمرة ذلك: مجاهدات عقلية، وجهود فكرية غير مجدية، استغرقتها مسائل الفروع التي كُتبت فيها مئات المؤلفات من المتون، والخواشي، والشروح، والاختصارات، وضاعت بذلك مقاصد الدين، وحوصر امتداد القرآن والسنة عن شُعب المعارف الأخرى، كما توقف الامتداد في بُعدي الزمان والمكان، وانطفأت بذلك جذوة العقل المسلم، وتجمدت قيم الدين ومقاصده في مجال الشورى، والعدل الاجتماعي، والمساواة والحرية، وغاب الفقه القرآني بمعناه الشامل ليقف عند حدود الجُلّ والحرمة لبعض الفرعيات، وقطعت الرؤية القرآنية الشاملة، وسادت النظرات الجزئية، وعم العجز، وتوقفت النظرة الموضوعية لتخلي مكانها للرؤى الموضعية.

لقد أُوْرَثْنَا مناخ التقليد الجماعي الذي عطّل فينا ملكة الاجتهاد، والإبداع، والإنجاز لقرون طويلة نوعاً من العجز المزمّن جعلنا دون سوية التعامل مع القرآن، وإدراك سننه في الأنفس والآفاق، والاقتصار على بعض مئات من الآيات نظر فيها الأقدمون على أنها آيات الأحكام التشريعية .. ولا نزال، إلى اليوم، نبدي فيها ونعيد

(١٤) هو عبيد الله بن الحسين، أبو الحسن الكرخي. فقيه حنفي. انتهت إليه رئاسة الحنفية بالعراق. مولده بالكرخ عام ٢٦٠هـ، ووفاته ببغداد عام ٣٤٠هـ.

من تصانيفه: رسالة في الأصول التي عليها مدار فروع الحنفية، و « شرح الجامع الصغير »، و: « شرح الجامع الكبير » وكلاهما في فقه الحنفية.

من خلال ميراث الفقهاء وليس من خلال موقعها من الرؤى القرآنية حيث للآيات مقاصد عدة : تربية ، واجتماعية ، ونفسية ، وكونية ، ومنبهات حضارية ، ووسائل الكشف العلمي حيث لا يخرج الحكم التشريعي عن أن يكون واحداً منها .

ويمكن أن نقول : بأن العجز لحق أيضاً بطريقة التعامل مع آيات الأحكام نفسها التي أخذت هذا الجهد، وتلك المساحة من الميراث الثقافي، وأصبحنا اتباعاً مقلدين غير قادرين ليس فقط على تجاوز فهم السابقين والامتداد بالآيات الى آفاق إضافية، وإنما عاجزين أيضاً عن الإتيان بمثال آخر غير ما جاء به الأقدمون، وهذا، من أشنع حالات التقليد.

وكما أن مناخ التقليد الجماعي جعلنا عاجزين عن الامتداد ، ودون سوية التعامل مع القرآن ، فكذلك أصبحنا — بذلك — دون سوية التعامل مع الواقع المعاصر ، لأننا أوقفنا عطاء القرآن للزمن ، وهو المتغير السريع ، وحاولنا التفاهم معه بفهوم عصر آخر يختلف في طبيعته ، ومشكلاته ، وعلاقاته ، ومعارفه عن عصرنا ، وأعطينا صفة القدسية والقدرة على الامتداد والخلود لاجتهاد البشر ، ونزعنا صفة الخلود والامتداد عن القرآن ، عملياً ، وإن كنا نرفضها نظرياً ، كما أسلفنا .

وكلون من التعويض عن العجز في الامتداد بالرؤية القرآنية، والتعامل مع العصر — (الشهود الحضاري) — ما نراه اليوم من التوسع فيما اصطلح على تسميته : « الإعجاز العلمي في القرآن » ، على الرغم من التحفظات على هذه التسمية لدى كثير من علماء المسلمين الذين يرون أن ميدان الإعجاز ليس المجال العلمي أصلاً ، فالعلم في تقدم وتطور مستمر ، وقد بلغ اليوم شأواً واسعاً ، وكلما تقدمت الأيام ، تراكمت المعارف ، وتقدمت الحقيقة العلمية أكثر .. وخلود الرسالة يعني ، فيما يعني ، خلود المعجزة ، وعدم قدرة الإنسان على الإتيان بمثلها في كل زمان ومكان . وأظن أن تطبيق هذا في مجال الإعجاز العلمي سيؤدي إلى كثير من المفارقات والتمحلات .. والقرآن ، كتاب هداية ، وليس كتاب « تكنولوجيا » .. ولا أحد يستطيع أن ينكر أن القرآن ، عرض لبعض الحقائق العلمية ، ولفت نظر الإنسان

إليها ، ليحقق هدفه في الهداية ، وينبه الإنسان إلى وسائل التعمير وبناء الحضارة ، ويفتح طريق البحث العلمي أمام المسلمين ، وإن كثيراً مما ذكر من الحقائق لم تكن معروفة في عصر نزول القرآن ، وأن العلم أثبتتها بعد آحاد طويلة .

وقد تؤكد المعارف العلمية كل يوم ، ما يكسبنا الاطمئنان إلى صحة النصّ القرآني . ولا شك ، أن الحقائق العلمية التي عرض لها القرآن في عصر الأمية العلمية ، تعتبر من دلائل النبوة ، وبرهان صدقها ، أما تسميتها « إعجازاً » ، فالأمر ليس بهذه السهولة ، والبساطة ، على الرغم من أن القرآن وضع العقل البشري في المناخ العلمي ، ووفر له الإسلام الشروط والظروف المطلوبة .. فموضوع القرآن : صياغة الإنسان ؛ ووظيفة الإنسان : القيام بأعباء الاستخلاف ، والإعمار عن طريق اكتشاف سنن التسخير ، وحسن التعامل معها . لذلك ، طلب القرآن : النظر ، والتدبر ، والملاحظة ، والاختبار ، وإدراك علل الأشياء ، وأسبابها ، وامتد في ذلك إلى استشراف المستقبل :

﴿ وَلَنَعْلَمَنَّ نَبَأُ بَعْدَ حِينٍ ﴾ (ص : ٨٨) .

والمسلمون اليوم، مطمئنون إلى صدق النبوة، وصحة النص، وإن احتجنا اليوم لهذا اللون من الطرح، فقد يكون مفيداً مع غير المسلمين.

وأخشى ما أخشاه، أن يستغني المسلمون اليوم عن محاولة الإبداع والإنجاز العلمي في مختلف الميادين في ضوء هداية القرآن، والاستنفار لذلك، بالكلام عن الإعجاز العلمي كلون من التعويض. إذ نرى بعض مسلمي اليوم، كلما اكتشفت نظرية ، أو حقيقة علمية على يد غير المسلمين، يجهدون أنفسهم — عن حسن نية — في التدليل على أن القرآن عرض لها، وأثبتها قبل العلم! وأعتقد أن هذا دليل للواقع المتخلف والعاجز، فإذا كان القرآن قد عرض لها، فما بال المسلمين لم يفقهوها؟

لذلك ، نخشى أن ينقلب موضوع الإعجاز العلمي المعاصر من منبه حضاري

مؤرق، إلى صورة من التفاخر والتظاهر المعوق ، وتكريس التخلف والأمية العقلية .

وقضية أخرى ، نرى أنه لا بد من أن نعرض لها في هذه المقدمة ، وهي : أن لكل علم من العلوم الإنسانية والتجريبية ، مناهج ، وآلات ، وتقنيات خاصة لفهمه وإدراكه ، حتى إننا نرى اليوم ، لكل شعبة أدوات خاصة لفهمها في مجال العلم الواحد . ففي مجال النقد الأدبي ، مثلاً ، هناك مناهج متعددة ، وفي مجال التربية ، والأخلاق ، والتاريخ ، والسياسة ، والاجتماع ... الخ ، أصبح لكل علم أدواته وآلات فهمه ، ولكل منهج خصائصه وشروطه وميزاته ، ولكل معرفة وسيلتها التي توصل إليها .

ومن هنا ، نقول : إن منهج علماء الأصول ، على دقته وعبقريته في استنباط الحكم التشريعي من آيات الأحكام ، لا يُمكن أن يعتمد ليكون وسيلة علماء التاريخ ، والاجتماع ، والسياسة .. الخ .

بل ، بإمكاننا القول : إن هذا المنهج ، على دقته ، قد يكون مفسداً للنتائج والحقائق لو استعمل في غير ميدانه الذي وضع له ، على الرغم من بعض التلاقي والأدوات المشتركة أحياناً في ميدان العلوم المتجانسة .

والمطروح بالحاح : كيف يمكن التعامل مع القرآن ، وتدبر آياته ، والإفادة من معطيات العلوم وآلات فهمها ، ليكون القرآن مصدر المعرفة ، وفلسفتها في شباب العلوم الاجتماعية جميعاً؟ حيث لا بد لنا من العودة إلى القرآن كمصدر لمعارف الحياة ، وفقه المعرفة والحضارة ، للقيام بدورنا بمسؤولية الشهادة على الناس ، والقيادة لهم ، وإلحاق الرحمة بهم ، واستئناف السير الذي توقف من عهد بعيد في كثير من شعب المعرفة التي يمنحها القرآن .

لذلك ، كان لا بد من طرح القضية ، وتقليب وجهات النظر في جوانبها المختلفة ، في محاولة لتحقيق الرؤية القرآنية الشاملة .

وما نقدمه في هذا الكتاب من « مدارس » مع الشيخ الغزالي نعتقد أنه عَرَض

لمجموعة من الأمور المهمة، وقدم إضاءات جديدة على طريق بناء الفكر والثقافة القرآنية .. ولا ندعي بأننا استطعنا بهذه « المدارس » تقديم أو إنضاج منهج للتعامل مع القرآن، والخروج بالمسلمين من حالة الهجر التي أورثتهم الأزمات الفكرية ، والتي يعانون منها ، فالوصول إلى منهج لفهم القرآن بأبعاده ومحاوره المتعددة ليكون مصدراً للمعرفة ، ليس بالأمر السهل الذي يمكن أن يتحقق بكتاب ، أو حوار، أو مدرسة؛ ولكننا نستطيع أن نقول بكل اطمئنان: إننا استطعنا تقديم آفاق ، ومؤشرات ، ومعالم على الطريق تثير وتستدعي كثيراً من النظر ، والبحث ، والتأصيل .

وقد نقول: بأن هذه «المدارس» ،أمكنا طرح القضية، واستدعائها إلى محل الاهتمام، وتقديم مجموعة ملاحظات يُمكن أن تُعدَّ أساساً لبناء فكر قرآني قادر على الانطلاق باتجاه الشهود والإنجاز الحضاري، وإحياء موات الأمة.

ولا شك ، أن مثل هذه النقلة الثقافية ، محتاجة إلى شروط ومواصفات لها علاقة بالنظام التعليمي ، والإعلامي ، والتربوي ، ومؤسسات تعليم القرآن ، وحفظه ، وتفسيره ، وإن شئت فقل : لها علاقة بالتشكيل الثقافي للأمة بشكل عام .

ولعل ما نقدمه في هذا الكتاب ، يشكّل محاولة لكسر أقفال القلوب ، وفتح النوافذ أمام العقول، ووضع الأغلال والآصار التي أثقلت الكواهل، وأوقفت فاعلية العقل المسلم.

ولا نحب أن نتكلم عن الشيخ الغزالي — أمد الله عمره — ونظراته الدقيقة والتميزة في هذا الموضوع ، وهو غني عن التعريف حيث استجاب مأجوراً للحوار الذي أصرَّ على تسميته: «مدارس»، وأوكل لنا مشكوراً أمر صياغته.

وقد آثرنا في العرض : إبقاء الحوار « المدارس » مترسلاً على طبيعته ، دون تدخل كبير في إعادة الترتيب ، آمليْن أن يتواصل السير ، وتأخذ القضايا المطروحة حظها من البحث ، والمناقشة ، والإثراء ، والإنضاج .

ولابد أن نشير إلى أن الكتاب هو اقتراح للمعهد العالمي للفكر الإسلامي، ليكون دليلاً ومرشداً لعلماء الاجتماعات المسلمين بصفة خاصة، وللعلماء في شُعَبِ المعرفة الأخرى بصفة عامة.

ومن الجدير بالذكر أن المعهد قد أصدر كتاباً مماثلاً له في كيفية التعامل مع السنة النبوية المطهرة أعده الدكتور يوسف القرضاوي. ويعتقد أن هذا الموضوع من الأهمية بحيث يحتاج إلى أكثر من معالجة، وإن يتناوله العلماء والمفكرون المسلمون من جوانب مختلفة. والله الموفق.

عمر عبيد حسنه

رمضان ١٤٠٩ هـ

إبريل ١٩٨٩ م

الدوحة / قطر

تمهيد

بقلم الشيخ محمد الغزالي

القرآن الكريم هو ما بقي من وحي في هذه الدنيا، هو الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه،

﴿ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ (البقرة : ٢)

ما شأنه نقص ولا شأبه زيادة منذ نزل إلى يوم الناس هذا ، فهو بحفظ الله مصون من أهواء الناس ، ووساوس الجن والإنس ...

وبقاء هذا القرآن هو العزاء الوحيد عن ضياع موارث النبوات الأولى ، لأنه استوعب زبدتها ، وقدم في هداياته خلاصة كافية لها ،

﴿ إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى ﴾ (الأعلى : ١٨ ، ١٩)

فإذا اطلعت الأجيال المستأخرة على هذا القرآن فكأنها وعت ما قاله المرسلون السابقون ، وانتظمت مع الركب السماوي في الإيمان بالله والعمل له .

لكن موقف المسلمين من القرآن الذي شرفوا به يثير الدهشة ! ومن عدة قرون ودعوة القرآن مجمدة ، ورسالة الإسلام كنه جف مجراه أو بريق خمد سناه ...

والأمة التي اجتباها الله تتعامل مع القرآن تعاملًا لا يجوز السكوت عليه ، كان الجاهليون الأقدمون يصمون آذانهم عن سماعه ، ويتواصون بالشغب على مجالسه ويعالنون بتكذيب صاحبه حتى شكا صاحب الرسالة إلى ربه هذا الكنود ، قائلاً :

﴿ يَرْبِّ إِنَّا قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا ﴾ (الفرقان : ٣٠)

أما المسلمون المتأخرون فهم يسمعون وقد يتأوهون أو يسكنون . ولكن العقول مخدرة والحواس مبعثرة ومسالك الأفراد والجماعات في واد آخر ، وكأنها تُنادى من مكان بعيد !!

والأمة المنتمية إلى القرآن مجهولة مستوحشة ، والحضارة التي يصنعها لا تجد من يصور معالمها بإتقان ، ولا من يعبد طريقها بذكاء ، ولا من يفتح لها دكاناً صغيراً في سوق امتلاءً بلافتات خداعة لسلع ما تساوي شيئاً ، أو مذاهب باطلة بالتعبير الصريح . أهكذا يتصرف أصحاب الحقيقة مع الحقيقة التي شرفوا بها وانتموا إليها ؟

وجلس مع الأستاذ عمر عبيد حسنة نتشاكى تلك الحال ، فقال لي : إن للقضية أبعاداً لا يبلغها النظر السطحي ! وربما اشتبكت مع مخلفات قديمة من ثقافتنا التقليدية .. وذكر الأستاذ أمثلة لما يراه موضوع بحث طويل في هذا المجال ، وأهاب لي أن أكتب .

قلت له وأنا محزون إنني في هذه الأيام أعجز عن الكتابة ، وما عراني من مرض قيد حراكي الأدبي والمادي .

قال : فلتندرس الأمر سوياً ، وأتولى أنا الشرح والصياغة ، وعلمت أنه سيجمل العبء كله ، ولم أر بداً من الاستجابة ، داعياً الله أن يلهمنا الرشد ، وينير الطريق .

محمد الغزالي

مدخل

□□ من خلال رحلتك الطويلة مع القرآن ، حفظاً وتفسيراً وتعليماً ودعوة ، ما النصيحة التي ترى مسلمي اليوم بحاجة إليها للتعامل مع القرآن ، ورسم الطريق للتخلص من حالة الهجر التي هم عليها ، فيعود المسلمون إلى القرآن ، أو يعود القرآن للمسلمين ، ليكون مصدراً لشحن فاعليتهم ، وبناء نهضتهم ، والوصول بهم إلى موقع القيادة والشهادة ؟

وبمعنى آخر :

كيف يمكن لنا أن نحدد الشروط اللازمة للشهود الحضاري من خلال وضع منهج للفهم جديد ، للتعامل مع القرآن ، يكون نتيجة لاستقراء الواقع والحاجة والمعاناة التي يعيشها المسلم اليوم ، وذلك باعتبار القرآن هو النص الخالد المجرد عن حدود الزمان والمكان ، والمُجمع عليه من قبل المسلمين كلهم ؟

● حال المسلمين مع القرآن الكريم ، تستدعي الدراسة المتعمقة ، ذلك أن المسلمين بعد القرون الأولى ، انصرف اهتمامهم بكتابهم إلى ناحية التلاوة ، وضبط مخارج الحروف ، واتقان الغنن والمُدود ، وما إلى ذلك مما يتصل بلفظ القرآن والحفاظ على تواتره كما جاءنا ، أداءً وأحكاماً — أقصد أحكام التلاوة — لكنهم بالنسبة لتعاملهم مع كتابهم ، صنعوا شيئاً ربما لم تصنعه الأمم الأخرى .. فإن كلمة « قرأت » ، عندما يسمعها الإنسان العادي أو يقولها ، تعني : أن رسالة جاءته أو كتاباً وقع بين يديه فنظر فيه ، وفهم المقصود منه .. فمن حيث الدلالة ، لا أجد فكاً كاماً بين الفهم والقراءة ، أو بين السماع والوعي .

أما الأمة الإسلامية ، فلا أدري بأية طريقة فصلت بين التلاوة ، وبين التدبر .

فأصبح المسلم اليوم يقرأ القرآن لمجرد البركة ، كما يقولون ، وكأن ترديد الألفاظ دون حس بمعانيها ، ووعي لمغازيها ، يفيد أو هو المقصود .

وعندما أحاول أن أتبين الموقف في هذا التصرف ، أجد أنه موقف مرفوض من الناحية الشرعية ، ذلك أن قوله تعالى :

﴿ كَتَبْنَا إِلَيْكَ مَبْرُوكًا لِّدَّبْرٍ وَإِنِّي لَنَزَّلْتُهُ إِلَىٰكَ مُبَارَكًا لِّدَّبْرٍ وَإِنِّي لَنَزَّلْتُهُ إِلَىٰكَ مُبَارَكًا لِّدَّبْرٍ ﴾ (ص : ٢٩)

يعني : الوعي والإدراك والتذكر والتدبر .. فأين التدبر ؟ وأين التذكر مع تلك التلاوة السطحية التي ليس فيها أي إحساس بالمعنى ، أو إدراك للمقصد ، أو غوص فيما وراء المعنى القريب ، لاستنتاج ما هو مطلوب لأمتنا من مقومات نفسية واجتماعية ، تستعيد بها الدور المفقود في الشهادة على الإنسانية وقيادتها إلى الخير .. بل أجد غياب بعض صفات عباد الرحمن التي وردت في القرآن الكريم ، من أنهم قوم يقبلون على القراءة بحواسهم ، فهم : يسمعون ، ويبصرون ، ومن ثم يتحركون .

نعم ، قد يغيب عن الإنسان معنى كلمة قد تكون غريبة عليه ، وربما يعز عليه إدراك جملة من الجمل لأن التعبير القرآني في درجة من البلاغة لم يتذوقها هو .. وما من شك في أن القرآن ، كتاب العربية الأكبر ، ومنهل الأدب الخالد.. ولا يُقبل إطلاقاً أن ينتهي المسلم إلى ذلك النوع الذي ذكره الله تعالى حين وصف عباد الرحمن بقوله :

﴿ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴾
(الفرقان : ٧٣)

وأجد اليوم أن الذين يخرون صمًّا وعميانًا ، كثيرون . فالأُمم الأخرى أدركت حال المسلمين مع كتابهم ، لذلك وجدنا إذاعات عالمية تحدد فترات لإذاعة القرآن ، فإذاعة لندن تقدم تلاوة يومية للقرآن تفتح بها برامجها ، وربما تذيع إسرائيل أيضاً قرآناً في فترات ومناسبات متعددة ، وكأنها اطمأنت إلى أن الأمة الإسلامية اليوم ، تسمع ولا تعي .

هذا موقف لا بد أن نحسمه ، وأن نبتعد عنه ، ونعالج أسبابه ، وما سمعت كلاماً معقولاً أو مقبولاً في تبريره وتسويغه ، فقد ذكر بعضهم أن ابن حنبل رحمه الله رأى الله في المنام ، واستفتاه في أحب شيء يقرب إليه . قال : كتابي يُقرأ .. فسأله : بفهم أو بغير فهم ؟ قال : بفهم وبغير فهم !!

والمعروف أن الأحكام الشرعية لا تؤخذ من رؤى النائمين ، مهما كانت مكانتهم بين المسلمين .. الحكم الشرعي له مصادره من كتاب الله ومن سنة رسول الله ﷺ .. وهذا الكلام الذي يُروى عن رؤيا ابن حنبل صح أو لم يصح، لا ينبغي أن يكون له في النفوس ما يجعل معظم المسلمين على الحال الشاذة التي يقعون فيها الآن.

لا بد من قراءة القرآن الكريم قراءة متدبرة واعية تفهم الجملة فهماً دقيقاً ، ويذل كل امرئ ما يستطيع لوعي معناها وإدراك مقاصدها ، فإن عزَّ عليه ، سأل أهل الذكر .. والمدارس للقرآن مطلوبة باستمرار .. ومعنى مدارس القرآن : القراءة والفهم والتدبر والتبيين لسنن الله في الأنفس والآفاق ، ومقومات الشهود الحضاري ، ومعرفة الوصايا والأحكام ، وأنواع الترغيب والترهيب ، والوعد والوعيد ، وما إلى ذلك مما يحتاج المسلمون إليه لاستئناف دورهم المفقود .

قرأت للعقاد^(١٥) مرة أن هناك ما يُسمى بشعر الحالات النفسية ، وهو أن يرتقي الإنسان مع الكتاب الذي يقرأه ، ويرتفع بنفسه إلى الحقائق أو القصص أو المطالب كي يصورها . وهذا إن كان مطلوباً مع الكتب العادية ، فهو مع كتاب الله أولى .. وهكذا كان الأولون .

كان الأولون يقرأون القرآن فيرتفعون إلى مستواه .. أما نحن فنقرأ القرآن فنشده إلى

(١٥) عباس بن محمود بن إبراهيم بن مصطفى العقاد : إمام في الأدب ، مصري ، من المكثرين كتابة وتصنيفاً مع الإبداع . أصله من دمياط ولد عام ١٣٠٦ هـ (١٨٨٩ م) في أسوان وتعلم في مدرستها الابتدائية ، وشغف بالمطالعة ، وانقطع إلى الكتابة في الصحف والتأليف ، وأقبل الناس على ما ينشر . تعلم الإنجليزية في صباه وأجادها ثم أَلَمَ بالألمانية والفرنسية وظل اسمه لأمعاً مدة نصف قرن أخرج في خلالها من تصنيفه ٨٣ كتاباً ، في أنواع مختلفة من الأدب الرفيع . توفي عام ١٣٨٣ هـ (١٩٦٤ م) .

مستوانا .. وهذا ظلم للكتاب .. هذه ناحية .

ومن الناحية الأخرى ، فإن أثر القرآن في نفس من نزل عليه القرآن ، يجب أن يُعرف . فالنبي عليه الصلاة والسلام ، « كان خالقه القرآن »^(١٦) ، كما روت السيدة عائشة^(١٧) رضي الله عنها . ومعروف أن معنى الكلمة : أنه كان يعيش في جو قرآني ، ويصدر في سلوكه عن قيم القرآن ، وأن عقله الظاهر والباطن مع الله عندما يكون الحديث عن الله ، ومع الكون في سياحة عريضة وتأمل وتدبر لآلاء الله عندما يكون الحديث عن الكون وقواه وأسراره ، ومع الماضين في الاتعاظ والاعتبار بمصارعهم ومصائرهم ومسالكهم عندما يكون الحديث في قصص القرآن ، ومع الآخرة والنعيم والجحيم عندما يكون القرآن وصفاً للجزاء الأخروي وما أعد لهؤلاء وأولئك .. أي ، أن النبي عليه الصلاة والسلام ، كان يحيا في جو القرآن . وهذا هو ما جعل الإمام الشافعي^(١٨) رحمه الله يقول : إن السنة هي فهم النبي للقرآن ، أو نضح فهمه للقرآن ، فهو مرتبط به ارتباطاً تاماً في حياته ، في ظاهره وباطنه ..

والأمة التي نزل عليها القرآن فأعاد صياغتها ، هي المعجزة التي تشهد للنبي عليه الصلاة والسلام بأنه أحسن بناء الأجيال ، وأحسن تربية الأمم ، وأحسن صياغة جيل

(١٦) الحديث رواه مسلم في صحيحه عن عائشة رضي الله عنها ، في كتاب صلاة المسافرين ، باب جامع صلاة الليل ومن نام عنه أو مرض . ولفظ الحديث « فإن خلق نبي الله ﷺ كان القرآن » .

(١٧) عائشة بنت أبي بكر الصديق عبد الله بن عثمان . من قريش : أفقه نساء المسلمين وأعلمهن بالدين والأدب ، ولدت عام ٩ قبل الهجرة (٦١٣ م) . كانت تكنى بأُم عبد الله . تزوجها النبي ﷺ في السنة الثانية بعد الهجرة ، فكانت أحب نسائه إليه ، وأكثرهن رواية للحديث عنه . وكان أكابر الصحابة يسألونها عن الفرائض فتجيبهم . وتوفيت في المدينة عام ٥٨ هـ (٦٧٨ م) . روي عنها ٢٢١ حديثاً . ولبدر الدين الزركشي كتاب « الإجابة لما استدركته عائشة على الصحابة » .

(١٨) هو محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع . من بني المطلب من قريش . أحد أئمة المذاهب الأربعة ، وإليه ينتسب الشافعية . جمع إلى علم الفقه القراءات وعلم الأصول والحديث واللغة والشعر . ولد عام ١٥٠ هـ . كان شديد الدكاء . نشر مذهبه بالحجاز والعراق . ثم انتقل إلى مصر (١٩٩ هـ) ونشر بها مذهبه أيضاً . وبها توفي عام ٢٠٤ هـ .

من تصانيفه : « الأم » في الفقه ؛ و « الرسالة » في أصول الفقه ؛ و « أحكام القرآن » ؛ و « اختلاف الحديث » وغيرها .

قدم الحضارة القرآنية للخلق .. فنحن نرى أن العرب عندما قرأوا القرآن ، تحولوا تلقائياً إلى أمة تعرف الشورى وتكره الاستبداد ، إلى أمة يسودها العدل الاجتماعي ولا يُعرف فيها نظام الطبقات ، إلى أمة تكره التفرقة العنصرية ، وتكره أخلاق الكبرياء والترفع على الشعوب .. ووجدنا بدوياً كربعي بن عامر^(١٩) رضي الله عنه ، يقول لقائد الفرس : جئنا نخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام .. إنهم فتح جديد للعالم ، وحضارة جديدة أنعشت الإنسانية ورفعت مكانتها ، لأن الأمة الإسلامية كانت في مستوى القرآن الكريم ، والحضارة الإسلامية إنما جاءت ثمرة لبناء القرآن للإنسان .. لذلك بدأت تختفي الآثار الفكرية والنفسية لآداب الفرس ، وفلسفة الروم ، لأن القرآن الكريم جاء بمجديد : حوّل الكلام والتوجيه من تجريدات ذهنية نظرية جدلية ، كما يفعل الفرس واليونان والرومان ، إلى منطق ملاحظة واستقراء ، ومنطق وعي الكون واحترامه ، والتعرف على سننه ومشروعية التعامل معه لعمارة الأرض وبناء الحضارة .

فالفكر الإغريقي فكر تجريدي ، يرى أن المادة خسيصة ، وأن المعنويات هي في الاستعلاء على المادة .. أما الفكر المأخوذ من القرآن الكريم فهو فكر علمي وعملي ، يحترم المادة ويعلي شأنها ، بل يرى أن خالق المادة ، يُقسم بها ، وما أقسم بها إلا لأنه أودع في الكون أسراراً : أسرار عظمتته .. وترك في الكون ما يدل على صفاته العلا ، فمن حقه جل جلاله أن يُقسم بالكواكب وهي تملأ الكون ، وأن يقسم بالنفس البشرية ، والوالد وما ولد ، وأن يُقسم بالرياح ، والشفق ، والليل وما وسق ، والقمر إذا اتسق ، فالإعجاز في الكون ظاهر في القرآن الكريم .

(١٩) هو رباعي بن عامر بن خالد بن عمرو ، ولاء عمر بن الخطاب رضي الله عنه مجنبة الجند تحت إمرة أبي عبيدة بن الجراح رضي الله عنه في العراق ، وله ذكر في غزوة نهاوند ، ولاء الأحنف ، لما فتح خراسان ، على طخارستان

من أثار هجر القرآن

لذلك ، وجدنا الأمة الإسلامية عندما هجرت كتابها ، أو على الأقل أخذت تقرأه على أنه تراويل دينية ، فإنها فقدت صلتها بالكون ، وكانت النتيجة : أن الذين درسوا الكون خدموا به الكفر ، واستطاعوا أن يسخروه لأنفسهم ، ومبادئهم ، وإلحادهم ، وتثليثهم . أما نحن ، ومع أن كتابنا كتاب الفكر ، أو كما يقول العقاد : التفكير فريضة إسلامية ، ومع أن كتابنا كتاب تجاوب مع الكون بحيث لم نر كتاباً سماوياً أو مقدساً — كما يقولون — نوه بعظمة الله في كونه أو بعظمة الكون لأن الله هو الخالق ، كالقرآن الكريم .. ما الذي صرفنا عن هذا كله ؟ صرفنا عنه أننا ما أحسنا التلقي والتعامل مع القرآن أبداً. بل كما نقرأ ، وكنا نعتبر الخطأ الكبير فقط ألا يمد القارئ المد اللازم خمس أو ست حركات ، أو لا يغن الغنة ، أو لا يخفي الإخفاء ! وكل ذلك يمكن أن يكون وسائل لحماية الأداء القرآني ليكون محلاً للنظر والتدبر .. أما وعي المعاني ، وإدراك الأحكام ، والتحقق بالعاطفة المناسبة من خلال تشرب معاني القرآن ، فقد اختفى من نفوسنا .

هذا شيء لا بد أن نبدأ به كل كلام عن القرآن الكريم ، وإلا فنحن معزولون عن ديننا وعن مصدره .

القرآن كتاب يصنع النفوس ، ويصنع الأمم ، ويبني الحضارة .. هذه قدرته .. هذه طاقته .. فأما أن يُفتح المصباح ، فلا يرى أحدٌ النور لأن الأبصار مغلقة ، فالعيب عيب الأبصار التي أبت أن تستفح بالنور ، والله يقول :

﴿ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ ﴾ (المائدة : ١٦)

نحن ما اتبعنا رضوان الله ، ولا سبل السلام ، ولا استطعنا أن نقدم سلاماً للعالم ، ولا استطعنا أن ننقل هدايات القرآن للقارات الخمس .. هناك في عصرنا خمسة

مليارات من البشر ، محجوبة عن أضواء القرآن ، لا تعرف عنه شيئاً ! والسبب : أن المسلمين أنفسهم محجوبون عن أضواء القرآن ، وفاقد الشيء لا يعطيه .

العودة إلى القرآن

أرى أنه لا بد أن نعود لدراسة القرآن .. وتلاوة القرآن عندنا مطلوبة .. والتعبد بتلاوة القرآن كان لاستبقاء الوحي الذي صانه الله في الإسلام ، بينما ضاع الوحي القديم بالإهمال ، والتداخل مع التراجم ، وبأشياء كثيرة .. نحن أمرنا أن نتلو القرآن ، لكن — كما قلت — يستحيل فصل المعنى عن المبنى ، وهذا تجده في آيات التلاوة الواردة في القرآن ، كقوله تعالى :

﴿ كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لَتَتْلُوا عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴾
(الرعد : ٣٠)

ويتحدث القرآن مرة أخرى عن أن التلاوة هنا هي أساس التوكل ، وأساس التوجه ، وأساس صنع النفس البشرية .. وربما تطلعت الشعوب إلى معجزة أخرى غير هذا القرآن من مثل معجزة تكليم الموتي ، تسيير الجبال ، تحريك الناس بطريقة أخرى ، عندما قالوا :

﴿ وَلَوْ أَن قُرْءَانَا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كَلِمَ بِهِ الْمَوْتُ ﴾
(الرعد : ٣١)

لكن ، لا .. فهذا قرآن يكلم الرجال ليعيد صياغتهم ، ويكلم الأحياء ليحقق استجابتهم ، ويكلم العقلاء ليوجه وعيهم ، فيجعل منهم أمة تحمل رسالتها .. وفعلاً حملت الأمة رسالتها لأنها فهمت المقصود من إرسال المعجزة الأخيرة ، وأدركت أبعادها ، وتدبرت مقاصدها : معجزة إنسانية تتصل بإحياء الموهوب الإنسانية ، وتفجير الطاقة البشرية لهذا الخلق ، وإعادة بناء وتشكيل العقل الإنساني .

من تجزئتي الذاتية

حفظت القرآن وعمرى عشر سنين .. وبداية ما كنت أعى منه شيئاً .. بل من اللطائف التي أذكرها ، أنى وأنا أحفظ سورة الإسراء ، وأقرأ قوله تعالى :
﴿وَكُلُّ إِنْسَانٍ لِّزَمَتَهُ نَجَسٌ كَثِيرٌ فَمِنْ عُنُقِهِ﴾ (الإسراء : ١٣)

كنت أفهم مثلاً أن هناك شيئاً كحمامة أو غراب ، يجعل في عنق الإنسان .. والغريب أن هذه الطريقة في الحفظ لألفاظ القرآن ، صرفتني عن معان كثيرة كنت أمر بها ولا أعرفها .. وأنا كبير ، أقرأ ، ولكن لأنى حفظت الكلام دون فهم للمعنى ، أجد نفسي ، في كثير من الأحيان ، أمضى دون فهم للمعنى لأن الحفظ كان يغلب على التدبر أو على إحسان الوعي .. وما بدأت أفكر حتى أكرهت نفسي على أن أعود فأدقق النظر في كل ما أقرأ ، وأحمل نفسي على ترك هذه العادة التي ورثتها مع الحفظ ، بل قد يخيل إلي أن بعض الكتابيب أساءت إلى القرآن من حيث تريد الإحسان ، من ناحية أنها خرّجت أشرطة مسجلة ، ولم تخرّج كيانات حية للناس . لذلك أرى : أنه لا بد من إعادة النظر في هذا الموضوع .

ناقشت نفسي بعد ذلك ، وكنت أريد أن أقول : لا معنى لأن يحفظ الصغار القرآن الكريم .. لكنى — من باب طرح الموضوع وتقليب النظر فيه ، وهذا شيء لا أحب أن أنفرد فيه بحكم ، بل أحب أن يشارك الآخرون معي الرأي في هذا المجال — عندما أنظر إلى التلفاز وهو يقدم برامج الأطفال التي من المفروض أن تكون مدروسة في جميع النواحي ، أجد أن العقل يُبعد عن البرامج ، وأجد مسرح العرائس ، وأجد المستحيلات تعرض على الأطفال ، كأنما المهم هو إشباع الخيال ! فقلت في نفسي : إذا كانت التربية الحديثة تبعد العقل وتتجه إلى إشباع الخيال ، وتستهيو الأطفال بمثل هذه المناظر ، وما دام هناك قدر من ترك العقل في تربية الطفل ، فليحفظوا الألفاظ . لكن جاءني مرة أخرى تساؤل : فما قيمة حفظ الألفاظ إذا كنا سنقتصر عليها ونقدم للمجتمع بيبغاوات تجيد — إن كانت صيّئة — موسيقى الأداء ، وإن كانت غير صيّئة تجيد الحفظ العادي ، وينتهي الأمر ؟

أرى أن الأمر يجب أن يُطرح ، وأن يكون موضع مراجعة ، وحوار ، ومناقشة ،
وأخذ ورد من قِبَل متخصصين في التربية وعلم نفس الطفل ، لأنني في الحقيقة ، كاره
لهذه الأشرطة ، التي تجعل الناس يحفظون ولا ينتفعون .. وفي الوقت نفسه ، أحب
بقاء واستمرار التواتر القرآني ، فهل في الإمكان أن يحفظ الطلاب قطعاً من القرآن
الكريم ، وأن يُقَرَّب لهم المعنى في الوقت نفسه ؟

حُسن استثمار مرحلة الطفولة للحفظ

□□ مما يلفت النظر ، أن الحافظة في هذه السن — دون العاشرة — هي المهيأة لاستظهار القرآن .. وكلما تقدمت السن بالإنسان ، قلَّت ملكة الحفظ عنده ، وتقدمت ملكة الفهم ، أي القدرة على التركيب والتحليل والتدبر والغوص وراء المعاني البعيدة ، وما إلى ذلك .. فاستثمار هذه السن لاستظهار القرآن وحفظه ، مع شيء من تقريب المعاني وعدم الاقتصار على الاشتغال بالحفظ فقط ، قد يكون من بعض الحلول المطلوبة لمعالجة ما يمكن أن يترتب مستقبلاً من الانصراف إلى اللفظ والاهتمام به دون التدبر في المعنى .. وأظن أن ما يعرض من برامج أطفال ، ليس العقل مستبعداً منها بإطلاق ، لكن جعل للعقل النصيب الذي يستطيعه الطفل ، ويثير عنده قضية خصوبة الخيال العلمي بشكل خاص .. فليس هو ملء خيال فقط بعيد عن أي هدف ، وإن كان تخصيص الخيال هدفاً بحد ذاته ..

• البرامج التي رأيتها تُعرض على الأطفال ، ما تعتمد إطلاقاً على العقل ، وإنما هي خيالات جامحة إلى حد بعيد ..

سألت نفسي أيضاً — والأمر يحتاج إلى دراسة — : الصحابة الذين استمعوا للقرآن الكريم كانوا شباباً ، ويوجد بعض الأطفال الحفظة ، لكن لا ننسى أن الوعي العربي ، أو أن لغة التخاطب بين العرب كانت قريبة من أسلوب القرآن ، فالفهم واضح ..

□□ لكن ، ألا تعتقد أن هذه المحفوظات من الآيات التي تنزل ، كانت تدعم معانيها في نفوسهم الحياة الواقعية التي تبرز معناها مجسداً ، فالحياة الواقعية كانت هي الوسائل المعينة على التمثل والتدبر ، كانت مترجمة أو مجسدة في أعمال ووقائع ، إلى جانب تقارب لغة الخطاب .. أي هناك مناخ عملي مجسد لهذه المعاني ينشأ فيه الأطفال .. أما اليوم ، وبعد أن تباعدت اللغة ، وغاب تنزل معظم المعاني القرآنية على حياة المسلمين ، فلا بد من إعادة النظر باستمرار بطريقة توصيل القرآن إلى الطلبة

والأطفال وإعمار عقولهم بالمعاني الإجمالية التي تتناسب مع عمرهم العقلي ،
وتعويدهم البحث فيما وراء الألفاظ؟

• هذا حق ، ولذلك ورد أن الرسول ﷺ كان يعلم الناس المغازي كما يعلمهم
السورة من القرآن .. وبدهي عندما تنزل سورة فيها قصة أُحد ونحن خارجون من
الهزيمة ، والفتيان والفتيات والرجال والنساء يشعرون بكل ما وقع ، فالقرآن الذي يتلى
هنا يكون قطعة من الحياة .. وما أظن أن الصحابة رضوان الله عليهم ، كان عندهم
عدد كبير من حفاظ القرآن .. ربما كانوا نسبة في المائة .. ولعل الأمر الأكثر بروزاً
عندهم ، كان تمثل المعاني وترجمتها إلى واقع على الرغم من كثرة الحفظ وكتاب
الوحي .. ففي حرب اليمامة ، قُتل عدد كبير من حفاظ القرآن ، ورأيت سالماً مولى
حذيفة^(٢٠) رضي الله عنه ، ذلك الرجل العظيم الذي استشهد في تلك المعركة والذي
كان أحد النماذج لعطاء القرآن ، قال : (بئس حامل القرآن أنا إن أوتيت من
قبلي) .. فقد عزَّ عليه أن يُقال له : احذر يا سالم أن نوثي من قبلك .. فغضب ،
وغرس حرته ، ومات مكانها ، وأبى أن يتزحزح أمام هجوم المرتدين . فكان نموذجاً
حياً للقرآن الكريم عندما ينطلق قذيفة حية لأداء رسالة الهدى والنور .

على كل حال أنا أريد أن يُطرح الموضوع من جديد وأن يُعاد النظر في أسلوب
الحفظ وتوصيل القرآن إلى الأجيال القادمة ، فالأمر يحتاج إلى مدارس وطريقة تربوية
تجعلنا نستجيش المعاني ، ونحيا بها ولها ، ولا نكون أشربة تسجيل ، كل ما لديها أنها
تستوعب الألفاظ ، وانتهى الأمر .

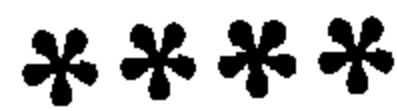
(٢٠) سالم بن معقل : أبو عبد الله ، مولى أبي حذيفة بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس : صحابي ، من كبارهم
وكبار قرائهم . فارسي الأصل اعتنقه ثبينة زوج أبي حذيفة ، صغيراً ، وتبناه أبو حذيفة وزوجه ابنة أخ
له . وهو من السابقين إلى الإسلام . كان يوم المهاجرين الأولين ، قبل الهجرة ، في مسجد قباء ، وفيهم أبو
بكر وعمر . شهد بدر ، ثم كان معه لواء المهاجرين يوم اليمامة . فقطعت يمينه فأخذه يساره فقطعت .
فاعتنقه إلى أن صرع عام ١٢ هـ (٦٣٣ م) .

تقنيات الحفظ ، وضرورة استمرار التواتر في المشاهدة

□□ يبدو لي في هذه النقطة أنه بعد تقدم التقنيات التي مكنت من الحفظ والطباعة والتسجيل واسترجاع ذلك بسهولة ويسر ، وأصبح الاعتماد على الذاكرة في العصر الحاضر محدوداً إلى حد بعيد حيث تقوم تلك التقنيات الحديثة مقام الذاكرة ، وكانت الذاكرة في الماضي هي الوسيلة الوحيدة لحفظ القرآن وتواتره وما إلى ذلك .. أما الآن وقد وُجد القرآن مسجلاً ، فقد تكون الحاجة إلى حفظ الذاكرة تراجعت ، وأصبحت الحاجة إلى المدارس والتدبر ، هي الأكثر أهمية على الرغم مما في الحفظ من أبعاد تبقى مطلوبة لأكثر من أمر من مثل : تكوين المرجعية للطفل وانطباعه بأسلوب القرآن وكلماته ، وتكوين ملكته اللغوية ، إلى جانب استمرار تواتر المشاهدة وضرورة استحضار الآيات في الأداء العبادي ، وإن كان الحضور القرآني في النفس الإنسانية سوف لا يغني عنه شيء من تقنيات الحفظ..

● لا بد من استبقاء التلاوة ، لأن القرآن تميز ببقائه ، وبقاؤه يرجع إلى هذا السبيل الموار من الحفظة الذين لا ينقطعون في عصر من العصور ، واستمرار هذه المشاهدة في الحفظ وتواترها ، إلى جانب الكتابة ، هو الذي حمى النص القرآني ، وضمن استمراره . وأذكر أنني كنت في مكة ، وكنت أقرأ القرآن بالترتيب في صلواتي ، فجاء الدور في سورة فاطر ، فكنت أقرأ ، وحصل مني خطأ ، ففوجئت بأن واحداً من وسط الصفوف يردني إلى الصواب ، وشعرت بفرح يغمرني لأن القرآن — والله المنة — يوجد من يحفظه من رجل الشارع العادي ، كما يُقال ..

فلا بد من استمرار التواتر القرآني ، وهذا جزء من رسالة الأمة الإسلامية .



دور المناهج التراشقية في فهم القرآن والتعامل معه

□□ هناك مدارس في التفسير ، أو — بمعنى أدق — مناهج متعددة في فهم القرآن ، تشكل مجموعها طرائق السلف ومسالكتهم في التناول والفهم . ولقد جاءت هذه المدارس في ضوء تحقيق أهداف بلاغية لغوية أو فقهية أو كلامية أو صوفية فلسفية أو تربوية .. الخ لا سبيل إلى حصرها هنا . كيف يمكن الاستفادة منها والتعامل معها اليوم ، فمثلاً هل يمكن اعتماد منهج علماء الأصول في النظر والاستنباط ، ومباحث دلالات الألفاظ ... الخ ، الذي اعتمدوه للوصول إلى الحكم التشريعي ، منهجاً شاملاً يمكن تعميمه على إدراك الأبعاد المتعددة في الخطاب القرآني ، التي تستوعب كلمة الفقه للآيات بالمعنى الشامل مثل : الفقه الدستوري ، والإداري ، واكتشاف سنن التسخير ، والتعرف على شروط نهوض الأمم وسقوطها ، وتحديد أبعاد الاعتبار بأحوال الأمم السابقة ، وقوانينه ، وتحديد علل التدين ، وبيان أسبابها النفسية ، والاجتماعية ، وما يمكن أن تحقق من مقاصد ومغزى في القصص القرآني ؟

ذلك أن علماء الأصول انصرفوا ، لسبب أو لآخر ، إلى الحكم التشريعي ، واعتبروا الخطاب القرآني ذا بعد واحد ، وحصروا مفهوم الفقه في الحكم التشريعي ، مع أن للخطاب أبعاداً أخرى متعددة — كما ذكرنا — قد تكون مقدمة لا بد من تحصيلها ليترتب بعد ذلك الحكم التشريعي .. وفي الحقيقة ، قد يكون المنهج الذي تأصل وتكون من بين سائر المناهج هو منهج علماء الأصول ، وتلاشت سائر المناهج ، أو توقفت بشكل مبكر ..

● هذا الكلام ، يعود بنا إلى شيء كنت ذكرته في إحدى خواطري .. وهو أن المدارس الكبرى في التاريخ الثقافي للفكر الإسلامي ، تلاشى أكثرها .. هناك الآن مدرسة المحدثين ، وهي مدرسة تكافح باسم السلف ، لكن قصرت مهمتها وحصرت اهتمامها بعلوم السنة فقط بعيداً عن الرؤية الشمولية لقيم الإسلام وعطائه الحضاري . وهناك مدرسة الفقهاء ، وهي مدرسة اقتصرت على فقه العبادات وما إليه ، وجعلت منه

إطاراً لنشاطها العقلي ، وقلما انخلعت بعيداً عنه . وإذا تجاوزته ، فإلى معاملات الأسواق العادية .. أما أن تذهب هذه المدرسة إلى الآفاق الإسلامية البعيدة ، وتنزل الإسلام على واقع الناس ، وتعالج مشكلاتهم في ضوء قيم القرآن الخالدة وتعاليم السنة المبينة ، فأمر لا نرى له شيئاً يذكر ، كما كان الفقهاء قديماً يفعلون ..

فالإمام أبو حنيفة^(٢١) مثلاً ، له تلميذان مشهوران : أبو يوسف^(٢٢) ، ومحمد^(٢٣) .. أبو يوسف ألف في الخراج ، أي في الضريبة .. ومحمد ألف في العلاقات الدولية في كتابه : « السير الكبير » .. هذا هو الفقه قديماً ، فكان كل منهما رائداً في مجاله .. أما أن يكون الفقه اليوم مقطوع الصلة بالفقه الدستوري ، والفقه الإداري ، والفقه الدولي ، فهذا موت .

وهناك منهج الأصوليين أو مدرسة الأصوليين ، وهي مدرسة فيها دقة وضبط للنظر واستنباط الأحكام ، ولكن يوشك أن يُقال : إن آخر من ظهر فيها وجُمِدت بعده حتى كادت تموت : الإمام الشاطبي^(٢٤) في كتابه « الموافقات » ، وهو كتاب

(٢١) هو النعمان بن ثابت بن كاوس بن هرمز . ينتسب إلى تميم بالولاء . الفقيه المجتهد المحقق الإمام ، أحد أئمة المذاهب الأربعة ، قيل : أصله من أبناء فارس ، ولد ونشأ بالكوفة . كان يبيع الخبز ويطلب العلم ، ثم انقطع للدرس والإفتاء . ولد عام ٨٠ هـ ، وتوفي عام ١٥٠ هـ . له « مسند » في الحديث ؛ و « الخراج » في الفقه ؛ وتنسب إليه رسالة « الفقه الأكبر » في الاعتقاد ؛ ورسالة « العالم والمتعلم » .

(٢٢) هو يعقوب بن إبراهيم بن حبيب . القاضي الإمام . أخذ الفقه عن أبي حنيفة رضي الله عنه ، وهو المقدم من أصحابه جميعاً . ولي القضاء للهادي والمهدي والرشيد . وهو أول من سُمي قاضي القضاة ، وأول من اتخذ للعلماء زياً خاصاً . توفي عام ١٨١ هـ . من تصانيفه : « الخراج » ؛ و « أدب القاضي » ؛ و « الجوامع » .

(٢٣) هو محمد بن الحسن بن فرقد . نسبته إلى بني شيبان بالولاء . أصله من (حرستا) من قرى دمشق ، منها قدم أبوه العراق . فولد له محمد بواسط ، ونشأ بالكوفة . إمام في الفقه والأصول ، ثاني أصحاب أبي حنيفة بعد أبي يوسف ، من المجتهدين المنتسبين . هو الذي نشر علم أبي حنيفة بتصانيفه الكثيرة ، ولي القضاء للرشيد بالرقّة ، ثم عزله . واستصحبه الرشيد في مخرجه إلى خراسان ، فمات محمد بالري . ولد عام ١٣١ هـ ، وتوفي عام ١٨٩ هـ .

من تصانيفه : « الجامع الكبير » ؛ و « الجامع الصغير » ؛ و « المبسوط » ؛ و « السير الكبير » ؛ و « السير الصغير » ؛ و « الزيادات » . وله « كتاب الآثار » و « الأصل » .

(٢٤) هو إبراهيم بن موسى بن محمد ، أبو إسحاق ، اللخمي الفرناطي ، الشهير بالشاطبي ، من علماء =

جيد ، لكن الرجل توقف عنده علم الأصول عن العطاء ، ولا أعرف من جاء بعده بشكل متميز ، ومن ثم أصبح علم الأصول نفسه ذلك المنهج العظيم ، على يد المتأخرين ، علماً مضحكاً ، لأنه أصبح كآلاتي : الخلاصة ، التلخيص ، الملخص ، المتن ، الشرح ، الحاشية .. كأننا نطحن الماء فلا يزيد ولا ينقص .

وهناك منهج المتصوفة ، أو مدرسة المتصوفة ، وهي مدرسة تشينها الخرافة لأنها اعتمدت على خطرات القلوب بعيداً عن الضوابط الشرعية واللغوية ، وانتهت إلى صورة من الإرجاء والجبرية أدت إلى الانسحاب من المعركة الاجتماعية (وممارسة نوع من الانتحار الروحي) .. ولكن يزينها أنها بحثت في الأخلاق وأدب النفس ، وحسن الصلة بالله ، وحسن استحضار جلاله وهيبته ، ولا بد من إعادة النظر في منهجها ووسائلها في ضوء أهدافها الضرورية للأمة ، وضبطها بضوابط الشريعة .

وهناك منهج الفلاسفة ، أو مدرسة الفلاسفة ، ومن رجالها الأكابر : الغزالي (٢٥) ، وابن رشد (٢٦) ، وكلاهما خصم للآخر ، ولكن كلاهما فيلسوف .. والحقيقة أنه لا

= المالكية . كان إماماً محققاً أصولياً مفسراً فقيهاً محدثاً ناظراً ثبناً بارعاً في العلوم .

من تصانيفه: الموافقات في أصول الشريعة؛ و «الاعتصام»؛ و «المجالس» شرح به كتاب البيوع في صحيح البخاري. توفي عام ٧٩٠هـ.

(٢٥) هو محمد بن محمد بن محمد أبو حامد الغزالي . نسبته إلى الغزال (بالتشديد) ، وكان أبوه غزّالاً ، أو هو بتخفيف الزاي ، نسبته إلى (غزاية) قرية من قرى طوس . فقيه شافعي أصولي ، متكلم ، متصوف ، رحل إلى بغداد ، فالخجاز ، فالشام ، فمصر ، وعاد إلى طوس . ولد عام ٤٥٠ هـ ، وتوفي عام ٥٠٥ هـ . من مصنفاته : « البسيط » ؛ و « الوسيط » ؛ و « الوجيز » ؛ و « الخلاصة » ؛ وكلها في الفقه ؛ و تهافت الفلاسفة ؛ و « إحياء علوم الدين » .

(٢٦) هو محمد بن أحمد بن محمد بن رشد ، أبو الوليد . فقيه مالكي . فيلسوف ، طبيب ، من أهل الأندلس . من أهل قرطبة . عني بكلام أرسطو وترجمه إلى العربية وزاد عليه زيادات كثيرة . اتهم بالزندقة والإلحاد فنفي إلى مراكش . وأحرقت بعض كتبه ، ومات بمراكش ودفن بقرطبة ، ويلقب بالحفيد تمييزاً له عن جده أبي الوليد محمد بن أحمد بن رشد الذي يميز بالجد . ولد عام ٥٢٠ هـ ، وتوفي عام ٥٩٥ هـ . من مصنفاته : « فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال » ؛ و « تهافت التهافت » في الفلسفة ؛ و « الكليات » في الطب ؛ و « بداية المجتهد ونهاية المقتصد » في الفقه ؛ ورسالة في « حركة الفلك » .

بد من النظر إلى هذه المدرسة من خلال ظرفها التاريخي والمشكلات والتحديات التي واجهت الفكر الإسلامي في حينها ، ودورها في الذود عنه ؛ أما النظر إليها بعد أن انتهت إلى تجريدات ذهنية بعيدة عن الواقع فأمر قد يكون فيه كثير من التجني .

هذه المدارس ، تكاد تكون اختفت ، وما بقي منها الآن إلا أطلال . ولكي تنتعش الثقافة الإسلامية يجب أن تعود هذه المدارس بصياغة جديدة تستمد تصوراتها من القرآن والسنة ، وتنزل إلى ساحة الواقع ، متبينة المنهج العملي الواقعي بعيداً عن التجريدات الذهنية والمنطق المجرد .

ثم ، لا بد أن تعود المدرسة التي أهيل عليها التراب من عهد مبكر وهي مدرسة ابن الهيثم^(٢٧) ، وجابر بن حيان^(٢٨) ، والخوازمي^(٢٩) والذين انطلقوا من الرؤية القرآنية للسنن الكونية ودرسوا الكون دراسة جيدة .. كما لا بد أن تعود مدرسة الأدب ، لأنه منذ القرن الرابع الهجري ، ضاع الأدب العربي تقريباً ، واقتقد رسالته ،

(٢٧) محمد بن الحسن بن الهيثم ، أبو علي : مهندس من أهل البصرة ، يلقب ببطليموس الثاني . له تصانيف في الهندسة . وكتبه يزيد على سبعين ، منها « المناظر » نشرت ترجمته إلى اللاتينية سنة ١٥٧٢ م ، « كيفية الإطلال » ترجم إلى الألمانية ونشر بها مختصراً ، و « تهذيب المجسطي » ، و « الشكوك على بطليموس » رسالة ، و « الأخلاق » رسالة ، و « مساحة الجسم المتكافئ » نشر بالألمانية ، و « الأشكال الهلالية » ، و « تربيع الدائرة » ، و « شرح قانون إقليدس » ، و « مساحة الكرة » ، و « المربا المحرقة » ترجم إلى الألمانية ونشر بها ، و « تفسير المقالة العاشرة لأبي جعفر الخازن » و « ارتفاعات الكواكب » الخ . ولد عام ٣٥٤ هـ (٩٦٥ م) ، وتوفي نحو عام ٤٣٠ هـ (١٠٣٨ م) .

(٢٨) جابر بن حبان بن عبد الله الكوفي ، أبو موسى : فيلسوف كيميائي . كان يعرف بالصوفي . من أهل الكوفة ، وأصله من خراسان ، اتصل بالبرامكة ، وانقطع إلى أحدهم جعفر بن يحيى . وتوفي بطوس عام ٨١٥ م ، له تصانيف كثيرة قيل : عددها ٢٣٢ كتاباً ، وقيل : بلغت خمسمائة . ضاع أكثرها ، وترجم بعض ما بقي منها إلى اللاتينية منها : « مجموع رسائل » ، و « أسرار الكيمياء » ، و « علم الهيئة » ، و « أصول الكيمياء » ، و « المكتسب » ، و « كتاب في السموم » ، و « تصحيحات كتب أفلاطون » ، و « الخمائر » ، و « الرحمة » ، وكتاب « الخواص » الكبير المعروف بالمقالات الكبرى والرسائل السبعين ، و « الرياض » ، و « صندوق الحكمة » ، و « العهد » في الكيمياء .

(٢٩) محمد بن موسى الخوارزمي ، أبو عبد الله : رياضي فلكي مؤرخ ، من أهل خوارزم ، ينعت بالأستاذ ، أقامه المأمون العباسي قيماً على خزانة كتبه ، وعهد إليه بجمع الكتب اليونانية وترجمتها ، وللخوارزمي =

وغاب هدفه ، وبدأ ينحدر إلى أن جاء من يقول قصيدة في خاتم ، وفي شمعة ..
الثقافة الإسلامية بالصورة التي انتهت إليها الآن ، لا تسر مسلماً حريصاً على
ثقافته ، لأنها ابتعدت عن الينابيع الأصلية من الكتاب والسنة ، وتوقفت عند الحدود
التي جمعت عندها مدارس الفكر الإسلامي ..

المدارس القرآنية الحديثة

ويمكن حصر الثقافة القرآنية الآن ، في عدد من المدارس : فهناك مدرسة
الأثرين ، أو أصحاب التفسير بالمأثور ، وهي مدرسة يمثلها الآن « ابن كثير » ،
وتفسيره شائع ، وإن كان ابن جرير الطبري^(٣٠) ، أرق منه وتفسيره أدق .. والذي
يعيب هذه المدرسة — في نظري — أنها ربطت تفسير الآيات بأحاديث أغلبها
ضعيف ، فكانت مصيدة حالت دون انطلاق الفكر القرآني إلى أهدافه الشاملة في
التفسير ، ووسيلة إلى شيوع الأحاديث الضعيفة التي بنى عليها المحدثون فكرهم
القرآني .. وعندما وضع سيد قطب^(٣١) رحمه الله مؤلفه « في ظلال القرآن » ،

=
كتاب « الجبر والمقابلة » ، و « الزيج » ، و « التاريخ » ، و « صورة الأرض من المدن والجبال .. الخ » ،
و « عمل الاسطرلاب » ، و « وصف افريقية » ، وعاش إلى ما بعد وفاة الواثق بالله عام ٥٢٢ هـ ،
(٨٤٧ م) .

(٣٠) هو محمد بن جرير بن يزيد بن كثير ، أبو جعفر ، من أهل طبرستان ، استوطن بغداد وأقام بها إلى حين
وفاته . من أكبر العلماء . كان حافظاً لكتاب الله ، فقيهاً في الأحكام ، عالماً بالسُّنن وطرقها ، عارفاً بأيام
الناس وأخبارهم . رحل من بلده في طلب العلم . عرض عليه القضاء والمظالم فأبى ، ولد عام ٢٢٤ هـ ،
وتوفي عام ٣١٠ هـ . من تصانيفه : « اختلاف الفقهاء » ، و « كتاب البسيط في الفقه » ، و
« جامع البيان في تفسير القرآن » ، و « التبصير في الأصول » .

(٣١) سيد بن قطب بن إبراهيم : مفكر إسلامي مصري ، من مواليد قرية « موشا » في أسبوط عام
١٣٢٤ هـ ، (١٩٠٦ م) . تخرج بكلية دار العلوم (بالقاهرة) سنة ١٣٥٣ هـ (١٩٣٤ م) وعمل في
جريدة الأهرام . وكتب في مجلتي « الرسالة » و « الثقافة » وعين مدرساً للعبية ، فموظفاً في ديوان
وزارة المعارف . ثم « مراقباً فنياً » للوزارة . وأوفد في بعثة للدراسة « برامج التعليم في أمريكا »
(١٩٤٨-١٩٥١) ولما عاد انتقد البرامج المصرية وكان يراها من وضع الانجليز ، وطالب ببرامج تتمشى
والفكرة الإسلامية . وبنى على هذا استقالته (١٩٥٣) . وانضم إلى الإخوان المسلمين ، فترأس قسم نشر
الدعوة وتولى تحرير جريدتهم (١٩٥٣-١٩٥٤) وسجن معهم ، فعكف على تأليف الكتب ونشرها وهو

اعتمد على تفسير ابن كثير في النصوص ، وترك ما وراء هذا على قدرته الأدبية على الصياغة ، وعلى أن يسبح مع الأفكار الجديدة .

هناك التفسير الفقهي للقرآن ، وهو تفسير طووع الآيات لأحكام الفقهاء وطريقتهم في الاستنباط ، ولم يهتم إلا بآيات الأحكام التشريعية ، واقتصر في ذلك على الحكم الشرعي دون المقاصد الأخرى ، وهذا فيه شيء يستدعي الاستدراك ..

وهناك التفسير الكلامي ، وأتمودجه « الرازي » (٣٢) مثلاً في « التفسير الكبير » ، وهو تفسير ينبغي أن نأخذ منه بطرف وندع أطرافاً أخرى لأنها خرجت بالتفسير عن مجاله ..

وهناك التفسير البياني ، وهو مثل تفسير « الزمخشري » (٣٣) وأبو السعود (٣٤)

في سجنه ، إلى أن صدر الحكم بإعدامه ، فأعدم عام ١٣٨٧ هـ (١٩٦٦ م) . كُتبه مطبوعة متداولة ، منها : « النقد الأدبي » ، أصوله ومناهجه ، و « العدالة الاجتماعية في الإسلام » ، و « التصوير الفني في القرآن » ، و « مشاهد القيامة في القرآن » ، و « كتب وشخصيات » ، و « أشواق » ، و « الإسلام ومشكلات الحضارة » ، و « المستقبل لهذا الدين » ، و « في ظلال القرآن » ، و « معالم في الطريق » .

(٣٢) هو محمد بن عمر بن الحسين بن حسن ، الرازي ، فخر الدين ، أبو عبد الله ، المعروف بابن الخطيب . من نسل أبي بكر الصديق رضي الله عنه . ولد بالري وإليها نسبته ، وأصله من طبرستان . فقيه وأصولي شافعي ، متكلم ، نظار ، مفسر ، أديب ، ومشارك في أنواع من العلوم . رحل إلى خوارزم بعدما مهر في العلوم ، ثم قصد ما وراء النهر وخراسان . واستقر في « هراة » وكان يلقب بها شيخ الإسلام . بنيت له المدارس ليلقي فيها دروسه وعظاته . وكان درسه حافلاً بالأفضل . منحه الله قدرة فائقة في التأليف والتصنيف . ولد عام ٥٤٤ هـ ، وتوفي عام ٦٠٦ هـ . من تصانيفه : « معالم الأصول » ؛ و « المحصول » في أصول الفقه .

(٣٣) هو محمود بن عمر بن محمد بن أحمد ، أبو القاسم ، الخوارزمي ، الزمخشري ، من كبار المعتزلة ، مفسر ، محدث ، متكلم ، نحوي ، مشارك في عدد من علوم . ولد في زمخشري من قرى خوارزم ، وقدم بغداد وسمع الحديث وتفقه ، ورحل إلى مكة فجاور بها وسمي جار الله . ولد عام ٤٦٧ هـ ، وتوفي عام ٥٣٨ هـ . من تصانيفه : « الكشف » في تفسير القرآن ، و « الفائق في غريب الحديث » ، و « ربيع الأبرار ونصوص الأخبار » ، و « الفصل » .

(٣٤) هو محمد بن محمد بن مصطفى العمادي ، أبو السعود . فقيه حنفي ، وأصولي ومفسر ، وشاعر . ولد بموضع قرب القسطنطينية . كان عارفاً باللغات العربية والفارسية والتركية ، وتقلد القضاء وأضيف إليه الإفتاء . انتهت إليه رئاسة الحنفية في زمانه ، وكان حاضر الذهن سريع البديهة . ولد عام ٨٩٨ هـ ، وتوفي عام ٩٨٢ هـ . من تصانيفه : « إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم » في تفسير القرآن ، و « تهافت الأمجاد » ، في فروع الفقه الحنفي ، و « تحفة الطلاب » ، و « رسالة في المسح على الخفين » .

والبيضاوي^(٣٥). وقد رأيت عدداً من المفسرين إلى جانب مفسرين آخرين من مدارس أخرى، كانوا بلاءً على الأمة الإسلامية، على الرغم من أنهم خدموا البلاغة العربية، وخدموا التفسير البياني للقرآن أجل خدمة.. لكن حملت تفاسيرهم، إلى جانب ذلك، إساءات كبيرة للفكر القرآني.. أنا، أسأل نفسي: من الذي أشاع قصة زينب بنت جحش^(٣٦)، إنهم مفسرون من هذا النوع.. فالقصة قصة خرافية لا أصل لها.. وهناك قصة مثل قصة الغرائق، وقع فيها بعض المفسرين عن غفلة مثل ابن حجر^(٣٧)، وغيره.

وهناك مدارس أخرى وكل مدرسة من هذه المدارس لها خير وعليها مأخذ.. ولا

(٣٥) هو عبد الله بن عمر بن محمد بن علي، ناصر الدين، أبو سعيد، البيضاوي، الشيرازي الشافعي، والبيضاوي نسبة إلى البيضاء قرية من عمل شيراز. فقيه، مفسر، أصولي، محدث، ولي القضاء بشيراز، أخذ الفقه عن والده ومعين الدين أبي سعيد وعن زين الدين حجة الإسلام أبي حامد الغزالي وغيرهم. توفي عام ٦٨٥ هـ. من تصانيفه: «منهاج الوصول إلى علم الأصول»، و«الغاية القصوى في دراسة الفتوى» في فروع الفقه الشافعي، و«أنوار التنزيل وأسرار التأويل» وهو المشهور بتفسير البيضاوي، و«شرح مصابيح السنة» للبخاري.

(٣٦) زينب بنت جحش بن رثاب الأسدية، من أسد خزيمه: أم المؤمنين، وإحدى شهيرات النساء في صدر الإسلام، كانت زوجة زيد بن حارثة، واسمها «بُرّة» وطلقها زيد، فتزوج بها النبي ﷺ وسماها «زينب» وبسببها نزلت آية الحجاب. روت ١١ حديثاً. ولدت عام ٣٣ قبل الهجرة (٥٩٠ م)، وتوفيت عام ٢٠ هـ، (٦٤١ م).

(٣٧) هو أحمد بن علي بن محمد، شهاب الدين، أبو الفضل الكناي العسقلاني، المصري المولد والمنشأ والوفاء، الشهير بابن حجر — نسبة إلى (آل حجر) قوم يسكنون بلاد الجريد وأرضهم قابس في تونس — من كبار الشافعية. كان محدثاً فقيهاً مؤرخاً. انتهى إليه معرفة الرجال واستحضرهم. ارتحل إلى بلاد الشام وغيرها. تصدى لنشر الحديث وقصر نفسه عليه مطالعة وإقراء وتصنيفاً وإفتاء. درس في عدة أماكن وولى مشيخة البيبرسية ونظرها، والإفتاء بدار العدل، والخطابة بجامع الأزهر، وتولى القضاء. زادت تصانيفه على مائة وخمسين مصنفاً. ولد عام ٧٧٣ هـ، وتوفي عام ٨٥٢ هـ. من تصانيفه: «فتح الباري شرح صحيح البخاري»؛ و«الدراية في منتخب تخریج أحاديث الهداية»، و«تلخيص الحبير في تخریج أحاديث الرافعي الكبير».

يجوز أن نجد فضل صاحب الفضل ، ولكننا نريد للعصر الحديث والصحة الإسلامية لكي تكون ناشئة بأعماق الإسلام ، ومنطلقة من أعماقه الصحيحة ، أن تقدم له جيلاً واعياً ، موصولاً بالقرآن ، مدركاً لأبعاده ومقاصده ، أولاً .. وأن تنظر إلى هذا الجهد البشري على أنه جهد خطأه وصوابه متقاربان ، وجائزان ، وتنتفع من تجارب الاحتكاك بالأفكار والعقائد والأديان الأخرى ، في ضوء منهج نضيج ، فلا تقول كلاماً مضحكاً .. فمثلاً عندما أقرأ في تفسير ابن كثير حديثاً واهي السند ، يقول فيه : كانت سورة الأحزاب في طول سورة البقرة ، ثم نسخ منها ما نسخ (١) فهل يمكن أن ينزل الله سورة من أربعين صفحة ثم ينسخ منها خمساً وثلاثين صفحة ؟ كيف يُقال هذا ؟ وما هو المنهج الحاكم على مثل هذه المرويات الظنية ؟

لا بد أن أعود إلى ما عندي من أصول يقينية حسب مدارسنا التي عشنا بها عقلياً ، فنحن نحترم المتواتر ، ونحترم الحديث المشهور ، أما أن يسري فجأة حديث واهي السند ، رد الفقهاء والمحدثون عشرات ومئات من أمثاله ، لكي يكون حكماً على القرآن ، فهذا عجيب يجب أن ننقي تفاسير القرآن منه ! فالمدارس القرآنية الكثيرة ، مع المدارس الثقافية الإسلامية ، يجب أن تكون أمامنا ونحن نسعى لصنع ثقافة قرآنية جديدة .

أعجبني أن العقاد جمع الآيات الفكرية والعقلية وألف كتابه « التفكير فريضة إسلامية » .

شمول الرؤى القرآنية

أنا شخصياً تتبعت كلمة : « أولوا الأبواب » في القرآن الكريم في ستة عشر موضعاً أثناء الحديث عن النفس والكون ، والتاريخ الماضي ، والحديث عن الله .. وجدت أن القرآن ليس كتاباً فنياً مقسماً على قضايا معينة ، ثم تنقطع فيه الرؤية الشاملة ، بل هو يعرض الكون وهو يبني العقيدة .. ويعرض الكون وهو يربي الخلق .. ويمزج بين الجميع بطريقة مدهشة . فالنظر في الكون والواقع والتاريخ يقود

إلى الإيمان ، ويوصل التوحيد ، ويبني الخلق . فقله تعالى :

﴿ يَأْتِيهَا النَّاسُ أَعْبُدُوا رَبَّكُمْ ﴾ (البقرة : ٢١)

فهذا توحيد ، فيه أمر للناس بالعودة لله ، لكن

﴿ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ * الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا
وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ
أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (البقرة : ٢٢)

انظر إلى طريقة القرآن : كيف عرض الكون ، ومظاهره ، وحقائقه وهو ينفي
الشركاء ويؤسس عقيدة التوحيد ، وهذا في المدينة .. كذلك نجد المسلك نفسه في
مكة :

﴿ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْيَلَ لَتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ
عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ذَلِكَ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَلَقُ كُلِّ
شَيْءٍ إِلَّا إِلَهًا إِلَّا هُوَ فَنَنْتَفِئُونَ كَذَلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾
(غافر : ٦١-٦٣)

فالمحاور التي يقوم عليها القرآن الكريم ، كما شرحتها في كتاب لي ، ليست مقسمة
على أساس أن هذا المحور لكذا ، وذلك المحور لكذا ، ولكن نحن بجهدنا العقلي نحجيء
لآية واحدة ، أو لطائفة من الآيات يمكن أن تكون في قضية واحدة ، فنرى أن هذه
القضية الواحدة تماسكت الآيات فيها على عدة محاور من الكلام عن الله ، والكون ،
والجزاء ، والنفس البشرية ، والإيمان ، والأخلاق تماسكاً غريباً لا يُعرف إلا في هذا
القرآن .

وهذا يجعلنا — كما قلت — نقدم التصور الحضاري للقرآن على أنه يبني أمة ،
ويفتح أبصارها على الكون ، ويمنحها الرؤية المتميزة التي تمكنها من الشهود الحضاري
على مختلف الأصعدة .

أهمية النظر في الآيات الكونية

فأنا كنت في الجو يوماً ، ونظرت إلى سحابة تشبه جبلاً له نتوءات أمامي ، وبدأت أفكر : أين تصل هذه السحابة ؟ أين تكونت ؟ أي زرع سيخرج منها ؟ .. وبلغ بي تصور وتسلسل الصور إلى : أنه من يدري ، فرمما شربْتُ كوباً من عصير البرتقال من مطر هذه السحابة ، وهي تنزل في البلد الذي أصل إليه !

فالقرآن ، يمنح المسلم رؤية كاملة ومنهجاً متماسكاً يجعل من الحياة خطوطاً متوازية لا تصطدم مهما امتد الزمن ، فتجعل العلم مع الإيمان ، أو تجعل ما وراء المادة مع المادة ، أو تجعل السرائر الباطنة مع المشاعر الحسية ، لا فواصل بينها .

هذا — في نظري — يجعلني أنظر إلى الحياة الغربية التي نعيش فيها ، نظرة فيها إنصاف .. الحضارة الغربية احترمت الكون — وهذا أصل من أصول الإسلام — وبدأت تدرسه ، وربما اقتربت من الفطرة في بعض المراحل أكثر منا ، فنحن أمة أكلتها التقاليد التي صنعتها لنفسها ، وضعت بها قيوداً على مسالكها ، فمن يريد الزواج عندنا مثلاً ، لا يتزوج بيسر الإسلام وفطرته التي أصلها القرآن ، ولا حتى يتزوج بالفطرة البشرية الموجودة في أوروبا مثلاً ، إنما يتزوج من خلال مجموعة القيود والتقاليد التي امتد سلطانها حتى هُزمت أمامها القيم الدينية .. لقد أصبح الزواج عندنا : (خراب بيت وانكسار ظهر) من النفقات .

أظن ، أن الحضارة الغربية ، في نظرتها إلى الحياة الدنيا والكون ، واكتشافها لسننه ، وأخذها من أسرارها ، ما يجعلني أقول : هذا هو كتابنا .. هذا ما عندنا .. لكن ما وقعوا فيه من أخطاء إنما جاء من أنهم : ما وصل إليهم القرآن وما عرفوا فكره . فهم ظنوا أن الدين عائق عن الحركة ، وعن النظرة المنطلقة ، وذلك ربما يكون لأن الصورة المجسدة أمامهم هي صور معوقة ..

التكليف في التعامل مع القرآن

يقول الله تعالى لصاحب الرسالة المبين عن ربه :

﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴾ (ص : ٨٦)

ونحن قدمنا الدين تكلفاً . فبدل أن يكون سجياً جميلاً وفطرة سهلة ، قدمناه تكلفاً ، فأى ظلم للحقيقة عندما تخرج عن صفتها الأولى ؟! الدين عندنا فطرة :

﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ﴾

(الروم : ٣٠)

الكون هو الكون ، كما خلقه الله ، وفطرتي هي فطرتي كما فطرها الله . والكون والفطرة هما خلق الله .. أنا لا أبدل شيئاً من هذا ، أنا أتناوب معه .. الكفر ، أو الشرك ، أو الإلحاد ، عوج عن الفطرة ، واصطدام بالعقل والكون وخروج عليه .. أريد أن أعرف الدين على هذا المعنى القرآني السليم الصحيح ، ولا يفهم الدين من خلال تقاليد رهبان اعتبرها القرآن الكريم صدأً عن سبيل الله .. وظيفة الراهب : قيادة الناس إلى الله . لكنه في واقعه صدّهم عن دين الله

﴿ إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ

عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ (التوبة : ٣٤)

وعدد من المتدينين ، أو المتفقهين ، أو المنتسبين إلى الدين بعيداً عن التحقق بالرؤية القرآنية المتجاوبة مع فطرة الخلق ، صدّاد عن سبيل الله بهذا المسلك الذي يقدمون به الدين .. إنهم يتعدون عن فطرة الدين ومصادره العقلية والدينية .. فالله سبحانه وتعالى يبين أن حقائق الدين تتجلى وتتكشف من النظر والتدبر لآيات الله المبثوثة في الأنفس والآفاق :

﴿ سَتَرِيهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ ﴾ (فصلت : ٣٥)

فأين نحن من ارتياد الآفاق وكشف الآيات ؟ وأين نحن من حسن قراءة أنفسنا ومعرفة سنن الله وآياته منها في ضوء الأبعاد الواردة في القرآن ؟

علم النفس ، ما دُرس دراسة صحيحة إلا بعد أن تحرر من الفلسفة الإغريقية وبدأ يغوص في آفاق النفس البشرية ليتعرف على دوافعها ونوازعها معتمداً أسلوب استبطان الإنسان .

التصوف عندنا ، لو التزم الأدب الإسلامي والضوابط الشرعية ولم يمش وراء الرهبة المسيحية لكان عطاؤه كبيراً ورواؤه مشمراً .. كان عندنا الحارث المحاسبي^(٣٨) غواصاً في أسرار النفس ، وجاء بعده الغزالي غواصاً في أسرار النفس . وكان من الممكن أن يقوم عندهم علم نفس جيد ، ويقدم للبشرية بديلاً مقنعاً ، ويخلصها من الشذوذ الذي اعتمد أصلاً نفسياً يحلل على أساسه السلوك البشري ، من مثل مدرسة التحليل النفسي التي كان رائدها فرويد^(٣٩) الذي يقول : (إن رضاع الولد من أمه ، إرواء وتنفيس عن غريزة حيوانية) ..

لو التزمنا الرؤية القرآنية وذهبنا نتدبر آيات الله في الأنفس ، لكان عندنا علم النفس الذي يعرف عظمة الخالق عندما فطر هذه النفس ، وخلق الإنسان من قبضة طين ونفخة روح :

﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي ﴾ (الحجر : ٢٩)

(٣٨) الحارث بن أسد المحاسبي ، أبو عبد الله : من أكابر الصوفية ، كان عالماً بالأصول والمعاملات ، واعظاً مبكياً ، وله تصانيف في الزهد والرد على المعتزلة وغيرهم . ولد ونشأ بالبصرة ، ومات ببغداد عام ٢٤٣ هـ ، ٨٥٧ م) ، وهو أستاذ أكثر البغداديين في عصره . من كتبه : « أدب النفوس » صغير ، و « شرح المعرفة » تصوف ، و « المسائل في أعمال القلوب والجوارح » رسالة ، و « المسائل في الزهد وغيره » رسالة ، و « البعث والنشور » رسالة ، و « ماهية العقل ومعناه واختلاف الناس فيه » ، و « الرعاية لحقوق الله عز وجل » ، و « الخلوة والتنقل في العبادة » ، و « معاتبة النفس » في الأزهرية ، و « كتاب التوهم » ، و « رسالة المسترشدين » .

(٣٩) فرويد ، سيجموند Freud, Sigmund طبيب أمراض عصبية ، يهودي نمساوي ، ولد عام ١٨٥٦م وتوفي عام ١٩٣٩م ، وهو مؤسس مدرسة التحليل النفسي Psychoanalysis في علم النفس .

وكل بشر نفخة من روح الله .. فنبداً ندرس النفس الإنسانية والفطرة السليمة ، وما ينمىها ويزكيها من وسائل ووسائل ، وما يعترىها من أمراض وإصابات لا بد من معرفة أسبابها وتقديم العلاج التربوي الناجع لها .

التقريب بين الدراسة القرآنية وبين ما وصلت إليه الإنسانية وحضارتها ، يحتاج منا إلى أن ننخلع قليلاً عن بعض موارثنا القديمة التي ليست من ثوابت الدين وقيمه الأصيلة ، والإفادة من الحضارة الحديثة وما وصلت إليه من ناحية وسائل فهم الكون ، ومن ناحية مردود النظر في النفس الإنسانية ، واعتماد كثير منها بعد ضبطها بمبادئ الإسلام ومقاصده الكلية .

أبعاد المنهج المطاوب

□□ للاعتراف من القرآن ، برؤية شاملة الأبعاد ، متعددة المقاصد وليست لاستنباط الحكم الفقهي فقط ، هناك مناهج تعاملت مع القرآن : كمناهج الفقهاء والأصوليين والمفسرين بمدارسهم ومناهجهم المتعددة ، وعلماء الكلام والمتصوفة وعلماء اللغة الذين تعاملوا مع القرآن كمعجزة بلاغية .. هذه المناهج كلها التي جاءت ثمرة لواقع معين ومعالجات مرهونة بزمانها ، لم تحقق الفقه المطاوب لآيات الله وسننه في الأنفس والآفاق ، ولم تغن العقل المسلم اليوم بالرؤية الشاملة من خلال الواقع والظروف التي نعيشها ، والتوقف والجمود الذي لحق بهذا العقل وغيبه عن ساحة الشهود الحضاري .. ونحن الآن بحاجة إلى منهج للتحقق بالرؤية الشاملة ، الموضوعية وليس الموضوعية .. طبعاً أمامنا هذه المناهج من موارثنا الثقافية : مناهج الأصوليين في استنباط الحكم ، مناهج الفقهاء التي انبنت على مناهج الأصوليين ، ومناهج المتصوفة — وإن كنا لا ندري إلى أي مدى يمكن أن نسمي مدارس التصوف مناهج لأنها لا توجد لها ضوابط منهجية وإنما قد تعتمد على التأملات وخطرات القلوب ، ومناهج اللغويين .. والأمر المطروح هو :

كيف نفيد من هذه المناهج في العودة إلى النبع الأصلي القرآني ، وهل هذا

الميراث المنهجي ملزم لنا ، وهو لا يخرج عن كونه اجتهاداً حقق أبعاداً طيبة في تحقيق الرؤية القرآنية؟ وهل يجوز لنا أن نقفز من فوقه ونتعامل مباشرة مع النص؟ وما هي وسائلنا الأمنية لمثل هذا التعامل؟

• أستطيع أن أقول : إن هناك مناهج نقلناها من أصلها الأول ومجالها ، إلى علوم أخرى ، فأفسدناها .. نحن نحفظ أن الإسناد من الدين ، ولولاه لقال من شاء ما شاء .. وهذا حق .. فأن آتي بسند ديني لما أقول ، فهذا مطلوب .. لكن تحول مجال الأدب ومجالات أخرى إلى روايات : عن فلان ، عن فلان ، أنه سمع فلاناً يقول كذا .. هذا لا معنى له . لقد وجدنا مرويات كثيرة حتى أصبحت الثقافة عندنا وكأنها ثقافة نقول ! وهذا غير مفهوم وغير مطلوب .. الأدب عندنا ، توقف بسبب أشياء ومحاصرة من هذا النوع . ممكن جداً أن يعود الأدب إلى وصف الطبيعة ، ووصف النفس البشرية بعيداً عن النقول التي تجعل كتب الأدب كتب مرويات . هذه واحدة .

الشيء الثاني هو أن آيات الأحكام ، إذا ما قيست بالآيات الأخرى نجد أنها أقل الآيات عدداً . لكن — كما قلت — فالقصص القرآني يسوق قصة كاملة من خمس أو ست صفحات ليخلص في النهاية إلى تربية نفس معينة .. فالقول بأن منهج دراسة الأحكام يُنقل ليصبح منهجاً لدراسة الأخلاق ودراسة التربية ، فهذا غير صحيح ، لأن كل منهج له ضوابط ، ولكل مقصد طبيعته وخصائصه .. وهذا يعني : أني أبحث في الأحكام عن الكلمة : هل هي عامة؟ هل هي خاصة؟ هل هي مطلقة؟ هل هي مقيدة؟ .. وهكذا .

لكن ، عندما أدرس الأخلاق مثلاً ، أو التربية ، أو قصص الأمم ، أو الكونيات وما يتصل بها ، فما علاقة ذلك بهذا المنهج؟ ولماذا يفرض على بقية المحاور القرآنية التي لها طبيعتها ومقاصدها وأدواتها ومناهجها؟ .. لا يمكن أن يُقبل هذا .. تقول الإحصاءات : إن كتب الفقه تشكل نصف الثقافة الإسلامية ، فلو دخلت مكتبة مثلاً ، لوجدت أن نصف كتبها في الفقه .

□□□ لقد تقلصت في ثقافتنا الإسلامية الرؤية القرآنية الشاملة ، واختزلت المحاور والمقاصد ، وأصبحت المصادر الإسلامية تقرأ على أنها فقه .. السيرة تقرأ على أنها فقه .. والسنة كذلك .. والقرآن على أنه فقه .. ولا أقصد بالفقه هنا : المعنى العام الذي يعني فقه الحياة كما ورد في القرآن ، وإنما الفقه الذي انتهى إليه المعنى الاصطلاحي وهو : استنباط الأحكام الشرعية من أدلتها التفصيلية ..

● هذا غير صحيح ، لأن كل أفق من هذه الآفاق ، له صبغته ، وله منابعه ، وله هدفه الذي يسير إليه .. ونقل المنهج الأصولي ليصبح منهجاً للتعامل مع النص القرآني في المجالات والمحاور كلها ، فهذا غير صحيح ، وغير دقيق ، فلكل مجال آلات لفهمه .

□□□ المنهج الأصولي ، مطلوب من غير شك لتحديد المفاهيم ، وضبط المعاني خصوصاً فيما يتصل بالدين والأحكام الشرعية والقانون . لكن معروف أن العقل القانوني ، يتطلب أدوات ووسائل ، ويهدف إلى مقاصد ، غير العقل الفلسفي .. والعقل الفلسفي غير العقل العلمي ، بالمصطلح العلمي الجديد الذي تعتمد وسائله على التجربة والملاحظة والاستقراء والإحصاءات والاختبارات ، والاعتبار بذلك كله للوصول إلى الحقيقة العلمية المطردة .. كل أفق له وسائله الخاصة به .. وقد تعددت الثقافة الإنسانية وتشعبت الاختصاصات التي تبحث الآن عن الكون ، وعن الإنسان ، وأصبحت العلوم الإنسانية الآن : علم النفس ، الاجتماع ، الاقتصاد ، السياسة ، الأخلاق ، التربية ، الجمال ، والتاريخ .. ولكل علم منهجه وطرائقه ومقاصده .

المشكلة أن العقل المسلم توقف عن النمو في هذه المجالات — لعدة أسباب — مع أن موضوع القرآن هو الإنسان ، ومحل آيات الله هو الكون . ولا بد للإنسان من التدبر في القرآن ، والتعرف على سنن الكون وقوانينه التي لا يتحقق بدون إدراكها تعمير الأرض .. لكن ، عصور الانحطاط والتخلف والتقليد ، أوقعت المسلمين في عجز الرؤية وتجزئ النظر ، فأصبح الفقه يعني : استنباط الأحكام التشريعية ،

والدوران في فلك اجتهد السابقين ، شرحاً واختصاراً .. أما ما وراء ذلك ، فأصبح للتبرك ، وانخسرت الرؤية القرآنية الشاملة ..

● أليكس كارل^(٤٠) في كتابه: «الإنسان ذلك المجهول» أخذ يعيب المتخصصين ويقول : إنهم يعيشون في دوائر مغلقة من تخصصاتهم ، وإن الحياة ليست كذلك ، ولا بد من الأخذ بعلم الإنسان . واعتبر أن الإنسان له علم يتجاوز هؤلاء كلهم ..

والنظرة الشاملة الآن بدأت تفرض نفسها على الثقافة الإنسانية ، وفي الوقت نفسه وسعت شعب التخصصات على أساس خدمة النظرة الإنسانية العامة .. يوجد الآن ، حتى علم للأغذية ، ولكن علم الأغذية لخدمة الإنسان ، وفي الطب مثلاً ، نجد طبيباً متخصصاً في العيون ، وآخر في القلوب ، وثالث في الأنف والأذن والحنجرة ، ... الخ ، فالشيء الواحد بدأ يتفرع إلى تخصصات ، لكن الأساس كله : لا بد من دراسة الإنسان من قبل ومن بعد لأنه لا معنى للتخصص قبل الشموليات . فالتخصص هو : معرفة جزء من كل ، لكن هذا الجزء لا يجوز أن يُنظر إليه مبتوراً ومنفصلاً عن موضوعه ، فمن الخير أن تعرف آثار التخصصات الأخرى على تخصص الإنسان نفسه .

□ □ في النظر إلى العلوم والمناهج وما يتصل بها، سنجد أن كل علم له أسلوب خاص به . ونحن لا بد لنا أن نبحث ونتابع ونتعرف على المنهج الذي يحقق الغاية والمقصد لكل علم ، لأن تسخير الكون يعني أول ما يعني : اكتشاف قوانينه التي تمكن من التسخير .. فنقل طريقة الفقهاء إلى علماء التربية أو علماء النفس ، هذا لا يمكن ولكل علم منهجه الخاص .

(٤٠) أليكس كارل Carrel, Alexis جراح وعالم بيولوجي فرنسي ، ولد عام ١٨٧٣ م وتوفي عام ١٩٤٤ م ، ألف كتابه الشهير : الإنسان ذلك المجهول (L'Homme, cet inconnu) عام ١٩٣٥ م ، وترجم إلى العربية ، ونشر في عدة طبعات .

الحاجة إلى فهم السنن القرآنية

□ □ السنن الاجتماعية في القرآن هي القوانين المطردة والثابتة التي تشكل إلى حد كبير ميكانيكية الحركة الاجتماعية: حركة المجتمع، وتعين على فهمها، وكلمة «سنّة» تعني القانون المطرد الذي لا يتخلف إلا في قضايا السنن الخارقة.. أما السنن الجارية فلا تتخلف، وإن كان لا يرى إطارها واضحاً وصارماً كقوانين المادة. وقد تكون حاجة المسلمين اليوم لفهمها وحسن التعامل معها وتسخيرها، للقيام بأمانة الاستخلاف وتعمير الأرض، أشد من حاجتهم للحكم التشريعي الذي تضخم وتضخم حتى كاد يشمل الإسلام بأبعاده كلها، مع أن الحاجة إليه تأتي ثمرة لإعمال هذه السنن. فكيف يمكن الوصول بالمفكر المسلم لإدراك هذه السنن من القرآن الكريم والسنة، والتحقق بأبعادها لتصبح فقهاً تغييرياً، ومناخاً تربوياً يمكن أن تنشأ عليه الأجيال من خلال النظر في القرآن وتلاوته، مع الاستفادة من التبصر في عمل هذه السنن في الأمم السابقة :

﴿ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾ (الفتح : ٢٣)

• أظنني كتبت عن هذا الموضوع باباً كاملاً في كتابي « سر تخلف العرب والمسلمين » ، والأساس أن القرآن نبّه فعلاً إلى أنه كما توجد سنن كونية في إطار المادة تجعل درجة الغليان مثلاً عند المائة ، ودرجة التجمد عند الصفر ، أو تجعل للغازات ضغطاً معينة .. كذلك الأمر في الحضارات البشرية ، وانهيارات الأمم وانتصاراتها : إنها تخضع لقوانين لا يمكن أن تتبدل . ولقد نبّه القرآن إلى هذا في قوله تعالى :

﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنَ الْإِهْدَىٰ الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ ۚ ﴾

أَفَهَلْ يُنظَرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَن تَجْدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجْدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾
(فاطر : ٤٢-٤٣)

سنن الله في المجتمعات هي صور أخرى مكملة أو امتداد طبيعي لسننه في ميادين العلوم التطبيقية، وإن كانت كيميائية أو فيزيائية، أو نباتاً وحيواناً، أو أي شيء.

ليس هناك فوضى في الكون ، من ناحية البناء العلمي له ، ومن ناحية الانطلاق الحضاري . سنن قائمة بيقين وسنن ثابتة .. وقد انطبقت هذه السنن على صاحب الرسالة نفسه ، نصراً وهزيمة . فعندما قصروا في اتخاذ الأسباب المطلوبة لاستكمال النجاح في « أحد » هُزموا ، وقيل لصاحب الرسالة :

﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ ۚ ﴾ (آل عمران : ١٢٨)

إذا استكملوا أسباب الانتصار ، انتصروا .. وما يُتصور أن أمة من الأمم تُحالي أو تُستثنى من هذه القوانين . وقد طبقت هذه القوانين نفسها على أمتنا خلال الأربعة عشر قرناً من تاريخها ..

وقد ذكرت نماذج لهذه القوانين من مثل قوله تعالى :

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ۚ ﴾ (الرعد : ١١)

وهذه السنة المطردة ذكر بها القرآن عند هزيمة المشركين في بدر فقد قال لهم :

﴿ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَكُمْ وَأَبْأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ كَذَابٍ ۚ أَلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ
سَبَّاهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ذَلِكَ بِأَنَّ
اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۚ ﴾
(الأنفال : ٥١-٥٣)

فقبل للمشركين هذا الكلام : هُزمت لأن القانون الذي انطبق على الفراعنة من عشرين قرناً ، انطبق عليكم ، وينطبق على المسلمين بعد ذلك في أحد ، يقول تعالى :

﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ
وَتَنَزَّعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِمَّا أَرَاكُمْ مَا تَحِبُّونَ ۚ مِنْكُمْ مَنْ
يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ
عَفَا عَنْكُمْ ۗ ﴾ (آل عمران ١٥١-١٥٢)

هناك قوانين كثيرة، ذكرت فيما كتبت على ما أظن عشرة منها:

﴿ مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ ۗ ﴾
(فاطر : ٢)

ومنها :

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ۖ ﴾
(يونس : ٨١-٨٢)

ومنها :

﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ۖ ﴾ (محمد : ١)

ومنها :

﴿ إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ۖ ﴾ (يوسف : ٩٠)

ومنها :

﴿ لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزِيهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ
مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ۖ ﴾ (النساء : ١٢٣)

آيات كثيرة في القرآن الكريم هي قوانين لا بد أن تنطبق على العدو والصديق .
ومحاولة الإفلات من هذه القوانين ، فاشلة . بل ميثوس من نتائجها . وعندما يقول الله
تعالى :

﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنْزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ ﴾ (الحجر : ٢١)

فإن هذا القدر المعلوم يفرض نفسه . ونضرب مثلاً في حياتنا العامة . خذ مثلاً : نحن نعلم أن القطن يزرع خلال ثمانية شهور في السنة .. مهما بذلت من جهد لمحاولة أن تجيء بالثمر قبل أوانه ، فذلك مستحيل . إذا كان الحمل يستغرق ما بين سبعة وتسعة أشهر فلن يكون قبل ذلك إلا إجهاضاً ، ولن يجيء بعد ذلك أبداً كما يقول علم الطب .

هذه القوانين التي تكون في الأحوال المادية ، في الكون والحياة ، هي سارية أيضاً في الحضارة الإنسانية التي نعيش فيها الآن .. انهزم المسلمون لأنهم كان يجب أن ينهزموا ، وسنن الله لا تلين لمن يدعى إنه ابنه أو حبيبه ، فعندما قال اليهود والنصارى :

﴿ تَحْنُ أَبْنَاؤُاَ اللَّهِ وَأَحِبَّاهُ ﴾

فيل لهم :

﴿ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ ﴾ (المائدة : ١٨)

الآثار المدمرة لتعطيل قانون السببية

□ □ فهذه القوانين، لابد أن تأخذ مكانها الصحيح من عقولنا، ولا بد أن نحترمها..

● للأسف، وُجد في الأمة الإسلامية خطأ قديم، ولا تزال بعض آثاره باقية إلى اليوم، وهو شيوع فلسفة الجبر، وهي فلسفة عطلت قانون السببية تعطيلاً كاملاً . لقد عطلته في السنن الكونية، فتخلفنا في عمارة الأرض .. وعطلته في السنن النفسية، فسادنا التواكل وانطفاء الفاعلية . هذا من أسباب انهيار الحضارة الإسلامية وعقيدة القدر التي كانت يوماً ما سبب انطلاق الأمة الإسلامية دون تهيب إلى الإمبراطوريات الضخمة، وقرعت أبوابها بآيات الله وهي لا تبالي، واستسلمت هذه الأمم أمام العطاء الروحي والثقافي والحضاري للقادمين، تحولت هذه العقيدة

— عقيدة القدر — غريبة ، مسخت الكتاب والسنة ، وأصبح الناس ينظرون إلى أنفسهم على أنهم ريش في مهب الريح، أو جِيفًا مرمية في البحر تتقاذفها الأمواج كما تشاء .. كنت يوماً أدرس في المسجد ، فقلت للمسلمين : إذا كان الله سبحانه وتعالى يقول للإنسان كي يشهد على نفسه :

﴿ أَقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾ (الإسراء : ١٤)

أنت شاهد على نفسك بما قدمت ، فيجيء واحد من الناس ، ويأتيني بحديث يحفظه ولا يحسن فهمه ، ويقول : إن الرجل يكون صالحاً فيسبق عليه الكتاب فيفسد مستقبله ، أو يكون فاسداً فيسبق عليه الكتاب فيصلح مستقبله والاستشهاد بمثل هذه الروايات كثير ، لكن ، المشكلة تبقى : في النظرة الجزئية ، والعجز عن فقه النص ، والتحقق بالنظرة الموضوعية — وليس الموضوعية كما أسلفنا —

فهذا حديث لم يُفهم على وجهه أبداً ، وهو يوم يكون لا يتحمل إلا هذا المعنى ، فلا بد من التوقف وإن صح سنده . وتبقى المحاولة قائمة لتأويله ، وشرحه ليتوافق مع النص القرآني ..

والمعنى — كما شرحته لهم — هو أن الأستاذ قد يكون رقيباً في الدرس على بعض الطلاب ، يأخذ باله من اجتهاد هذا وكسل ذاك ، فيسأل ما رأيك في النتيجة ؟ ماذا تظن الحال ؟ فيقول : الطالب فلان ، وفلان سينجحان ، وفلان ، وفلان سيرسبان .. ثم تكون الامتحانات ، وتشاء الأقدار أن الأمر يكون كما قال ، فيقول من باب المباهاة والاعتداد بحسن حكمه على الأمور: كلمتي لا تقع على الأرض، أنا قلت كلمة لا بد أن تنفذ .. وهذا اعتداد بعلمه وذكائه .

فهذا الحديث هو من باب الاعتداد بعلم الله . فربما وُجد شخص من الناس يعمل صالحات، لكن في علم الله فإن نهايته سيئة لأنه مرآء ، لأنه كذاب، لأنه سينكشف ما فيه على مر الأيام . وهو الذي يصنع حاضره ومستقبله ..

وجدت أن الأمة الإسلامية لما غاب وعيها بهذه القوانين ونسيت المعنى ، أصبحت

تتلقى الانتصارات والهزائم دون وعي ودون استفادة، ودون البحث في أسباب النصر وعوامل الهزيمة، واران عليها هذا حتى في كتابة التاريخ، فهي لا تكاد تعي ما يقع بها من مأسر. وأنا أنظر الآن، فأجد أن المسلمين تنزل بهم النكبات التي تقصم الظهر ثم تنتهي بغير شيء! لِمَ؟ مأساة الأندلس، التعليق عليها قصيدة:

لكل شيء إذا ما تم نقصان
فلا يُغمر بطيب العيش إنسان

هل هذا هو التعليق؟ أين تعليق العلماء والأمرء والساسة والقادة، والنظر في هذا كله نظرة فيها محاسبة للنفس؟.. إذا أفلست شركة مثلاً فإن التقرير يوضع عن أسباب الإفلاس، فكيف لم توضع أي تقارير عن فساد الأمة الإسلامية الذي أدى إلى هزيمتها في الأندلس، وعن انحصار هذه الأرض وضياعها؟ كيف؟ هذا شيء يستدعى أن نفكر نحن تفكيراً جاداً في الطريقة التي نعيش بها..

نحن، ما فهمنا سنن الله الكونية في الأرض، حسب منطق التجربة والاستقراء والملاحظة، وهو المنطق القرآني الذي عُرف من كتاب ربنا ومن تطبيقات النبوة، ولا أحسنًا الاستفادة من سنن الله في الحضارات والمجتمعات، وكانت النتيجة أن الأمة سقطت بقضها وقضيضها في قبضة استعمار عالمي لا يرحم، وهي الآن تحاول الخلاص من شباكه، وترمي بأجنحتها العالقة داخل الشباك دون أن تخرج.. لقد واجهت الأمة الاستعمار مواجهة عسكرية وسياسية، لكن لم تنتبه إلى القضية الأخطر وهي: أن الخلل الفكري وانهيار عالم الأفكار وعدم التبصر هو الذي يمكن للاستعمار.. إن الأمة لن تخرج من الشباك إلا بقوانين مكتوبة عندها في الوعي النازل عليها، يجب ان تدرسه، وبالتالي يجب عليها ان تعيد حساباتها عن ماضيها بعد أن تعرضت للاضمحلال والانحلال عندما فرطت في سنن الله الكونية والاجتماعية، وظنت أن المواجهة العسكرية والسياسية العمياء فقط، كافية في استئفاف النهوض.

السنن القرآنية: من الإدراك إلى التسخير

□□ الحقيقة التي لا بد أن نعرض لها ونطرحها للنقاش والمدارسة ، ويبقى الحوار حولها قائماً ومطلوباً بالنسبة للقرآن الكريم : قضية إدراك هذه السنن . ذلك أن الحال التي نحن عليها ، أصبح يتردد فيها ضرورة الانتباه إلى سنن الله في الأنفس والآفاق التي تحكم شروط النهوض والسقوط الحضاري .. أصبحنا نسمع بضرورة الإفادة من هذه السنن ، بل لعل ذلك أصبح قناعة عند الناس بشكل عام .. لكن ، هذه القناعة لم تجد طريقها إلى الممارسة ، ولم تنتقل بمواقفنا إلى مراحل تغييرية ، فما يزال هناك قيود التقليد الاجتهادي من ترسيات الماضي . فلا تسأل إنساناً إلا ويقول: إن القرآن عرض لسنن وعوامل نهوض الأمم وسقوطها، وفيه سنن لا تُخطئ ولا تحابي أحداً ، وما إلى ذلك .. لكن ، أرى أن المشكلة تتركز اليوم في : إدراك هذه السنن وحسن تسخيرها والتعامل معها .. كيف يمكن للأمة بواقعها الحالي ، أن تنتقل من موقع المعرفة والفكر إلى موقع الفعل ؟ وإن كنت لا أزال أرى أن ما نسميه قضية مناهج الفكر والمعرفة ، لم تأخذ منا الأبعاد الحقيقية، لأنها لو أخذت أبعاداً حقيقية، لكانت الأمة انتقلت من الفكر إلى الفعل . فالتحول وإعمال هذه السنن، هو المختبر الحقيقي لإدراكها والقناعة بها . بل لعلنا نقول : إن هذه القضية لم تشكل مناخاً عاماً يعيشه المجتمع، أو لم تحفر بعد في واقع الأمة المجرى المطلوب لسيورتها.

● قد تكون مشكلتنا اليوم في التعامل مع القرآن كالعاصي من البشر الذي يسمع آيات تدعو إلى التوبة فلا يدرك أبعاد معصيته وضرورة الالتفات إلى التوبة المودعة في الآيات ، وإنما يلتفت إلى موسيقى القراءة ونغم التآلي ، فيقول : « الله .. الله » للنعمة التي يسمعها ، فلا يتدبر ولا يفكر قط في أن يصنع شيئاً للانتقال من معصيته إلى التوبة المطلوبة منه .. هكذا حال أمتنا .. [سمعت مرة في أحد المساجد وصفاً كاد شعر رأسي يقف من هول القيامة ، وإذا واحد من الرعاع ، ما خطر بباله شيء من هذا الوصف ، ويصرخ : الله يا سيدنا الشيخ ، أعد ! لقد أصبح هذا

التعامل مع القرآن — للأسف — هو المناخ الثقافي السائد الذي نورثه لأجيالنا [.
لا بد من التدبر .. فإذا تدبرنا الآيات ، نقلناها إلى حقول الممارسة على الأقل ،
أو إلى ميادين السلوك لنعرف كيف نُعمل هذه الآية فيما نعاني منه وفي ما نواجهه .
فإذا قيل :

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ (٨١) وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾
(يونس : ٨١—٨٢)

فإننا يجب أن نُجيء بهذه الآية ، وننظر إلى أعمالنا ، وهي قاصرة : هل يكملها
الله؟ .. لا .. لن يكملها الله ، لأنه لا يصلح عمل مفسد.. إذن ، ما الخلل
الذي أصاب العمل فجعله لا ينتج ؟ لا بد من استدراكه حتى يؤذن الله بالصلاح .
لذلك لا بد من تحري الصواب في العمل ، إلى جانب الإخلاص .

يجب أن نغير أنفسنا كما تقول الآيات .. في كتابي : « جدد حياتك » وأنا أنقل
عن « ديل كارنيجي » (٤١) أن واحداً قال لابنه وهو مسافر للاستشفاء : إن بلاءك
من نفسك التي بين جنبيك ، فإذا تغيرت الأرض عليك بالسياحة ، وانتقلت من هنا
إلى هنا ، وبقيت نفسك التي بين جنبيك ، بسوادها وتشاؤمها وإسفافها ، فلن
تنفعك السياحة .. لابد من تغيير نفسي يجعل لهذه السياحة معنى .

تصويب مناهج الفكر ووسائل الناقي

□□ إذا تأملنا ملامح الظاهرة الثقافية التي عليها المسلمون اليوم ، سواء كانوا
متعلمين أو كانوا من عوام الأمة ، نجد أن هناك خللاً في تلقي القرآن الكريم ، خللاً
في التعامل مع القرآن .. هذا الخلل يعود إلى : طريقة التدريس ، إلى مناهج التربية ،
إلى مناهج التعليم ، إلى مؤسسات تحفيظ القرآن نفسها .. يشارك في هذا الخلل

(٤١) ديل كارنيجي، Carnegie Dale كاتب امريكي، ولد عام ١٨٨٨م في ولاية ميزوري الأمريكية، التحق
بالأكاديمية الأمريكية لفنون التمثيل، وأنشأ كارنيجي للخطابة والعلاقات الإنسانية بنيويورك، من أشهر
مؤلفاته: «دع القلق وابدأ الحياة»، و «كيف تكسب الأصدقاء».

مؤسسات كثيرة عاملة في بناء الشخصية .. فهذا الخلل ، أو تلك الأسباب التي انتهت بنا إلى ما نحن عليه ، إذا حاولنا الأخذ بسنة السببية التي نحن بصدددها ، وهي دليل الوحي عندنا ، والتي كان إهمالها من أهم أسباب التخلف في مجال الدنيا وإعمارها ، والتواكل في مجال الدين والسلوك ؛ لو أعملنا هذه السنة ، نستطيع أن نحدد موطن الخلل في نظامنا التعليمي ، وفي التعامل مع القرآن الكريم منبع ثقافتنا الأصلي الذي أحدث هذه الظواهر .. فتغيير التعامل مع القرآن ، يجب أن يبدأ في إصلاح الخلل في مناهج التلقي، ووسائل التوصيل، وإعادة بناء العقل على منهج فكري واضح نستطيع به تغيير التعامل مع القرآن .

• القرآن نفسه يقول :

﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ ﴾ (الروم : ٢١)

فكأن الفساد ناشئ عما كسبته الأيدي ، ولن يتلاشى الفساد إلا إذا اختفى ما تكسبه الأيدي من إثم .. في القرآن تساؤلات ، مثل :

﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾

(القصص : ٥٦)

فالقصة ليست قصة أن الرسول ﷺ راغب في أن يهدي أمة ، أو أن يهدي فرداً .. الفرد إن لم يصنع شيئاً يرفع به رأسه ، ويهذب نفسه ، فإن محبة الرسول ﷺ لهدايته لن تجزي .. فقد يكون هناك من يحب لنا الرفعة ، ولكن لن نرتفع إذا كانت أجنحتنا مقصوصة ! لا بد من العودة إلى قانون السببية ، ونعرف بدقة ما السبب في تخلفنا .. والتخلف كالمرض .. فالإنسان إذا مرض بحمى من الحميات ، فإنه لكي يشفى منها ، فإن الشفاء لن يكون ما بقيت الجراثيم موجودة في البدن .: إزالة الجراثيم بشتى الأدوية ، يؤذن بالشفاء .

القرآن ، شفاء للمؤمنين .. ما معنى أنه شفاء للمؤمنين ؟ يقول أصحاب النكت : إنه — في أيام الأتراك — كان يجيء في الأسطول من يقرأ البخاري لكي

يكون بركة للمعركة القادمة ، فقيل لهؤلاء : إن الأسطول يسير بالبخر لا بالبخاري .. فقراءة البخاري دون إدراك لأبعاد الأحاديث النبوية المبينة للقرآن الكريم في حسن التعامل مع قانون السببية ، لا تجعل السفينة تتحرك إذا كان الربان يكتفي بقراءة البخاري .. ومجرد قراءة البخاري — دون التعامل مع الأسباب — لا تنفعه هنا إطلاقاً . وما حدث قط أن نفعت من سبق . المسلمون كانوا حديثي عهد بسنة وقرآن ، واشتبكوا مع الرومان في معركة ذات الصواري .. ما كان للعرب صلة بمعارك البحر ، ولكنهم علموا أنهم ما يكسبون المعركة ضد الرومان والبحر الوسيط ، إلا إذا صنعوا السفن فاشتبكوا مع العدو .. فصنعوا السفن واشتبكوا مع العدو . وما فكروا قط في أن يجعلوا من تلاوة آيات أو قراءة كتاب سنة بركة لكي ينتصروا ، وإنما كانت البركة في أن يحولوا آيات الجهاد إلى جهاد ، وآيات الإعداد إلى إعداد .. فأعدوا مكاناً غريباً على بيئتهم ، وما كان بعيداً على جاهليتهم وماضيهم الأول .. كانوا ركاب إبل ، في سفن الصحراء ، فما الذي جعلهم يصنعون السفن في البحر كي ينتعشوا ؟

من غير شك ، هناك خلل في أخذنا من القرآن الكريم وهذا الخلل ، سرى حتى في الأعمال الشخصية المحدودة جداً ، فأنت ترى الرجل يتوضأ ويبقى وسخاً ! لماذا ؟ لأنه أمر الماء وهو ذاهل ، ما نظف به درناً وما أزال به وسخاً . فكذلك نحن نستمع للآيات دون وعي :

﴿ فَإِنَّكَ لَا تَسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تَسْمِعُ الضُّمَّةَ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴾ (الروم : ٥٢)

فلا بد من أن يتلاشى هذا الخدر الذي قيد الأفكار وقيد الحواس ، وقيد الأعضاء فأصبحنا لا نتحرك بكتاب ربنا كما حرك هذا الكتاب آباءنا .

موطن الخلل

□ □ المشكلة الآن ، فيما يبدو لي ، أن الإصابة والخلل واقع في المؤسسات الموكول إليها عملية الإشراف على التربية والتعليم من مناهج وكتاب ومدرس ووسائل معينة .. إنها لم تستطع أن تكون أداة توصيل صحيحة بين الجيل وبين القرآن الكريم وموارثه الثقافية.. فصار هناك توارث للتخلف والمرض.. فالمشكلة الكبرى قد تكون في المؤسسات المنوط بها الآن تفهيم وإيصال القرآن للجيل ..

• هذا عمل المصلحين الكبار .. المصلحون الكبار يجيئون في أيام عجاف . لا يكون لديهم ، لكسب المعركة ، الجيش الذي يديرون به الحرب ، بل ولا الأرض التي تدور عليها الحرب . فيبدلون جهدهم في اختراع هذه الأجهزة من العدم ، والمشي بها حتى الغاية المنشودة .. إذا كان هناك في الأزهر أو في الزيتونة ، أو في القرويين ، أو في المسجد الحرام والمسجد المدني من لا يزالون يقرأون القرآن قراءة ذات فهم موضعي محدود للنص — وليس موضوعياً — دون أن يعملوا هذا النص في ما نزل من أجله ، وفي ما أنزل على محمد ﷺ به ، فمعنى هذا أننا نريق الدواء على الأرض ، ولا نحسن علاج المرضى بتعاطيه . إنما يوم أن نجعل هذه المعاهد أو هذه المدارس بروح واحد يحركها من جديد لكي تفهم النص ، وبدل أن تنقل النص في افتتاح مدرسة عسكرية ، فيفتتح الحفل بتلاوة آي الذكر الحكيم ، كنوع من التقليد البعيد عما كان معروفاً في الأيام الأولى ، أن يكون القرآن نفسه هو الذي أنشأ هذه المدرسة ، وأودع روح القتال في أبنائها .. وبدل أن نكتب :

﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ (الأنفال : ٦٠)

في الجدار لافتة ، يكون البناء التربوي ، والإعداد العملي ، والتخطيط الاقتصادي والعسكري مبنياً على أن الأدوات تُجمع ، والأجهزة تُحشد ، ورباط الخيل الجديدة — الدبابات وغيرها — تعد .. كل شيء يُعد .. هذا هو معنى الجهاد ، وفهم الجهاد من القرآن الكريم .

الرسول عليه الصلاة والسلام علم وهو لا يزال في المدينة وقبل أن يخرج أي جندي من جزيرة العرب ، علم أن الله سيجعل رسالته تجتاز البحار ، وأن من أمته من يقاتل في البحر ، فطلبت منه بنت ملحان^(٤٢) أن تشارك في هذا الغزو البحري .. امرأة بفطرتها السليمة أدركت أن هناك جهاداً بحرياً ، ولم تستغرب أن يكون هناك جهاد بحري لرسالة عالمية ، أدركت أن الأمة التي تحمل هذه الرسالة لا بد أنها مشغولة بإعداد الأجهزة التي تقاتل في البحر .. كل هذا بالبداية العربية الأولى ، ولذلك طلبت — كأنه أمر واقع — أن تشترك في هذه المنافسة في الخير .. جاء بعد ذلك من يقرأ آيات تسخير البحار للناس ولا يفكر في أن يركب بحراً . ونشأ عن هذا أن الأمة الإسلامية في الأرض التي قال العلماء إن ثمانية أعشارها مياه ! في هذه المساحة الهائلة من البحار ، توجد عشرة آلاف أو عشرون ألف — أو نحو ذلك — سفينة اليوم ، ليس فيها غواصة إسلامية ! ولا حاملة طائرات إسلامية ! ولا سفينة — مدنية كانت أو عسكرية — تصنع في مرفأ عربي أو إسلامي ! ما معنى هذا !؟ أهؤلاء لديهم إدراك لمعنى قوله تعالى :

﴿ اَللّٰهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ ﴾ (الجاثية : ١٢)

هل هذه الكلمة يُتغنى بها دون أن نعرف أن البحر المسخر لنا يجب أن نسخره لأنفسنا — وهذا هو الفكر الطبيعي للأمة الإسلامية — بدل أن يُسخرنا في البر والبحر عباد الله الذين لا دين لهم ؟

إن الخلل العقلي في فهم القرآن ، فهماً عملياً كما توحى به الطبيعة السهلة التي لا تكلف فيها بين الناس ، فقدناه من مدة طويلة ! ويجب على المعاهد التي تكون الدعاة والتي تكون العلماء ، أن تستنقذ الأمة من الورطة التي وقعت فيها .

(٤٢) هي أم حرام بنت ملحان ، خالة أنس بن مالك رضي الله عنهم ، وعن أنس أن النبي ﷺ كان إذا ذهب إلى قباء دخل على أم حرام بنت ملحان فلتطمعه . وقد ركبت أم حرام البحر في زمن معاوية رضي الله عنه فصرعت عن دابتها حين خرجت من البحر فماتت .

إن حديثاً كحديث : « هو الطهور مأؤه ، الحل ميتته »^(٤٣) ما أخذنا منه إلا أن نأكل من البحر الأسماك والحيوانات وإن كانت ميتة ، ونغتسل ! وانتهى الأمر إلى هنا ! هل فقه القرآن الكريم تلاشي عند أننا نأكل سمكاً من البحر ، ويبقى البحر لغيرنا ؟ وكيف نستطيع الوصول إلى سمك البحر إذا كانت السيطرة عليه لغيرنا ؟
يقول تعالى :

﴿ وَعَلَّمَتْهُمُ بِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ (النحل : ١٦)

عندما كان « سير جينز »^(٤٤) يقرأ معلوماته عن الفلك على بعض المسلمين ويرتعب من حدة العاطفة التي ملكته وهو يحدث عن الله وعن الإيمان بعظمته لما رأى من عظمة المجرات التي درسها ، كان أقرب للإسلام من كثير منا عندما درس السماء ، أما نحن فنكتفي من قوله تعالى :

﴿ وَعَلَّمَتْهُمُ بِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ (النحل : ١٦)

بأن الله لفتنا إلى أن هناك علامات في الأرض والسماء ! لكن ، ما هي ؟ وماذا صنعنا مع هذه العلامات ؟ وما هي الوسائل والمبتكرات التي طورناها في هذا الموضوع ؟

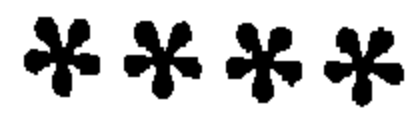
إن غيرنا الآن يغزو الفضاء ويتخذ من غزو الفضاء منارات وعلامات لكي يسخر الحضارة له .. أما نحن فوقوف ! لا بد من إحسان التعامل مع القرآن ، وإذا كان من تعليق سريع على هذه الآية فهو أن بعض المحدثين — للأسف — استدلّ بحديث رواه عن النبي ﷺ منع به السفر في البحر ! « لا يركب البحر إلا حاج أو معتمر أو غاز في سبيل الله »^(٤٥) أو نحو ذلك .. فكيف جيء بهذا الحديث الذي رواه

٤٣ — الحديث أخرجه أصحاب السنن الأربعة ، أبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه . وقد أخرجه الترمذي في كتاب الطهارة ، وقال حديث حسن صحيح .

٤٤ — السير جينز (جيمس) Sir Jeans (James) فيزيائي ورياضي وعالم فلك بريطاني ، ولد عام ١٨٧٧ م وتوفي عام ١٩٤٦ م .

٤٥ — نص الحديث كما ورد في سنن أبي داود : « لا يركب البحر إلا حاج أو معتمر أو غاز في سبيل الله ، =

أبو داود؟ أنا رفضت هذا الحديث وقلت إنه كلام غير صحيح .. كأن الأمة لم يكفها أنها قصرت في فهم العمل حتى تريد إفساد المصدر الذي تأخذ منه المعرفة الدينية .. وكم من اعتماد موضوعات في السنن النبوية سببت البلاء للأمة الإسلامية على هذا النحو .



فإن تحت البحر ناراً وتحت النار بحراً » وهو مروي عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما في كتاب الجهاد ، باب ركوب البحر في الغزو . وقال أبو داود رواه مجهولون . وقد ضعفوا إسناد هذا الحديث ، وقال المنذري في هذا الحديث اضطراب ، وقال الخطابي : وقد ضعفوا إسناد هذا الحديث . وقال البخاري : ليس هذا الحديث بصحيح . [تلخيص الحبير ٢/ ٢٣٥] .

التعامل مع النصوص من خلال واقع التخلف

□□ قد تكون المشكلة الفكرية اليوم هي أننا نحمل تخلفنا أيضاً لمواردنا الثقافية ، فنفسر ميراثنا الثقافي من خلال واقع التخلف الذي نعيش فيه ، فنصير نلجأ إلى لون من التفسير المتخلف أيضاً ، كنوع من التسويغ للواقع الذي نحن عليه ، فننتقي بعض النصوص ، ونعتمد على بعضها الآخر ، وما إلى ذلك دون النظر إلى صحتها من حيث السند ، أو إلى الأبعاد المطلوب إدراكها ، واستشعار المسؤولية تجاهها ، هذا لأنها توافق الحالة التي نحن فيها ، وكأن هذه النصوص بدل أن تكون دافعاً للتغيير ، أصبحت مانعاً منه ، تُقرأ بمنهج مغلوط يكرّس تخلف الأمة وسقوطها ..

● نعم .. خذ مثلاً قضية الحديد .. آية الحديد ، الظاهر فيها أن الله يريد أن يعلم المسلمين من ينصره بالغيب .. الدافع واضح من استخدام الحديد ، لا بد من نصره الله بالغيب . فاستخدم الحديد في صناعة السيوف أو الرماح . لكن الحديد اليوم أساس صناعة الدبابات .. أساس صناعة السفن في البحار .. أساس صناعة المسدسات والمدافع .. أساس صناعات حربية هائلة ، ما ينصر الله ورسله إلا بهذه الصناعة .. فأين هي من وعينا ، وأين نحن من إعداد أسبابها ؟ لا شيء .. بالعكس ، لقد رأيت أن غيرنا حتى في ميدان الفلاحة — وهو ميدان بدائي — استطاع أن يستثمر الأرض وأن يُخرج منه القناطير المقنطرة ، بينما لما وقعت الأرض في أيدينا ما أحسنا أن نأكل منها ! هذا بلاء كبير تقع فيه الأمة الإسلامية من سوء فهمها للقرآن ..

لا بد من جعل القرآن يتحول في حياتنا إلى طاقة متحركة .. أما أن يوضع في المتاحف أو المكاتب للبركة، أو أن نفتح المصحف ونقرأ منه آية أو آيات وينتهي الأمر؛ هذا لا يجوز.

لاحظت أن آيات الأحكام من غير شك ، كانت من وراء جهد الفقهاء في بعض القضايا وبعض الاجتهادات الفقهية .. لكن ، بقية آيات القرآن ، أهملت ..

وبقية القرآن التي هي القصص .. والقصص القرآني فيه الكثير من العلاج .. أنا سمعت حسن البنا (٤٦) رحمه الله ، يقول بنفسه : لا أدري لماذا أهمل التأليف الروائي ، وكان يمكن أن يكون سبباً في إنشاء أجيال واعية ؟ كان يمكن جداً أن أروي للأطفال : محاولة الحبشة هدم الكعبة تبعاً لمؤامرة عالمية بين الامبراطورية الرومانية في أوروبا وبين الحبشة في أفريقيا ، وكيف أنهم أرسلوا الفيل ، وكيف أنهم نجحوا في احتلال الجنوب .. وأجعل الأطفال من خلال قصة الفيل ، يعرفون أشياء كثيرة عن علاقات دينية ، وعلاقات دولية ، ومعلومات تاريخية ، وكيف أن الله ينصر الإسلام بعد أن نبذل نحن جهدنا في نصرته .. وذلك بدل أن أسمع من يقول : إن الشيخ محمد عبده (٤٧) كافر .. لماذا كافر ؟ لأنه شرح سورة الفيل وقال : إن الطير الأبايل ، هي الجراثيم .. أنا قرأت شرح الرجل ، ليس فيه هذا الكلام .. قال إن الطير الأبايل

(٤٦) حسن بن أحمد بن عبد الرحمن البنا : مؤسس جماعة « الإخوان المسلمين » بمصر ، ولد في المحمودية (قرب الاسكندرية) عام ١٣٢٤ هـ (١٩٠٦ م) ، وتخرج بمدرسة دار العلوم بالقاهرة ، واشتغل بالتعليم ، واستقر مدرساً في مدينة الإسماعيلية ، ثم نُقل « مدرساً » إلى القاهرة ، فانتقل معه المركز العام ومقر القيادة للإخوان المسلمين . وأنشأ بالقاهرة جريدة « الإخوان المسلمين » اليومية . اغتيل في عهد الملك فاروق حيث تصدى له ثلاثة أشخاص وهو أمام مركز « جمعية الشبان المسلمين » في القاهرة ، ليلاً ، فأطلقوا عليه رصاصهم عام ١٣٦٨ هـ (١٩٤٩ م) . وكان خطيباً فياضاً ، ينحو منحى الوعظ والإرشاد ، في خطبه ، وتدور آيات القرآن الكريم على لسانه ، منظماً ، يعمل في هدوء وبيني في اطمئنان . له مذكرات نشرت بعد وفاته باسم « مذكرات الدعوة والداعية » .

(٤٧) محمد عبده بن حسن خير الله ، من آل التركاني : مفتي الديار المصرية ، ومن كبار رجال الإصلاح والتجديد في الإسلام ، ولد في شنرا (من قرى الغربية بمصر) عام ١٢٦٦ هـ (١٨٤٩ م) . ونشأ في محلة نصر (بالبحيرة) وأحب في صباه الفروسية والرماية والسباحة . وتعلم بالجامع الأحدي بطنطا . ثم بالأزهر . وتصوف وتفلسف . وعمل في التعليم . وكتب في الصحف ولا سيما جريدة « الوقائع المصرية » وقد تولى تحريرها . وأجاد اللغة الفرنسية بعد الأربعين . ولما احتل الإنجليز مصر ثأؤهم ، وشارك في مناصرة الثورة العرابية . فسجن ونفي إلى بلاد الشام . وسافر إلى باريس فأصدر مع صديقه وأستاذه جمال الدين الأفغاني جريدة « العروة الوثقى » وعاد إلى بيروت فاشتغل بالتدريس والتأليف . وسمح له بدخول مصر ، فعاد سنة ١٣٠٦ هـ (١٨٨٨ م) وتولى منصب القضاء ، ثم جعل مستشاراً في محكمة الاستئناف ، فمفتياً للديار المصرية سنة ١٣١٧ هـ واستمر إلى أن توفي بالاسكندرية عام ١٣٢٣ هـ (١٩٠٥ م) . له « تفسير القرآن الكريم » لم يتمه ، و « رسالة التوحيد » ، وغيرها مؤلفات عديدة .

ربما تحمل أشياء فيها جرائم .. ولنفترض جدلاً أن الرجل قال إنها جرائم ، أو تحمل جرائم ، فهل الذي يعنينا من دراسة الآية تكفير الناس ؟ أم أنه كان من الممكن الاستفادة من القصة على نحو أخصب وأوقع في النفوس ، وأنفع للمجتمع والحاضر والمستقبل على السواء ؟

انقلاب الوسائل إلى غايات

□ □ في تصوري : أن من كتبوا في القصص القرآني ، غلب عليهم إبراز الجانب الفني ، وأخذوا بالناحية البلاغية حتى كادت تكون هي الهدف في أعمالهم ، مع أنها الوسيلة وأداة التوصيل ، القالب الفني الذي يغري الإنسان بالإقبال على القرآن وفهم أبعاد الآيات ، لذلك ، فقد تكون المشكلة أو الإصابة في التعامل مع القرآن هي في : انقلاب الوسائل إلى غايات .. لقد غابت الأهداف والمقاصد وتركز الاشتغال بالوسائل ، والأشكال ، وغاب من القصص الشهود الحضاري التاريخي الذي لا بد من استصحابه للعبارة وتحقيق الشهود الحضاري للأمة المسلمة ، وأبدل بالبحث عن مخارج الحروف وإعراب الكلمات ، وبيان الاستعارات ؛ وما هي إلا وسائل وأدوات للوصول إلى تذوق القرآن وتدبره ، فأصبحت بالشكل الذي هي عليه : معوقات وحواجز بين المسلم وكتابه الخالد !

● في كتابي « المحاور الخمسة في القرآن » ، كتبت شيئاً موجزاً عن القصص القرآني ، واقتصرت على ذلك ، تاركاً الموضوع كله لمن وكل إليه أن يكتب في هذا الباب أو هذا المحور من محاور القرآن الكريم ..

القصص في القرآن أساس التربية ، لا التربية النفسية فقط بل العقلية أيضاً .. العقل الإنساني ، يجب أن يحرر من قيود الوراثة المخرفة ، وأن يكون قادراً على الحركة . بل أنا أرى أن القرآن يهدف إلى بناء أو إنشاء عقل تجريبي .. عندما يقول تعالى :

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ (الحج : ٤٦)

كأن من نتائج السياحة في الأرض أن ننشئ عقلاً .. ننشئ فكراً يستمد معارفه وأسلوبه في الفهم من واقع الناس .. فالسير في الأرض ينشئ بصائر للناس ..

هذا معنى إذا ضممنّا إليه الآية الأخرى :

﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ﴾ (فصلت : ٥٣)

النفس ، متى تكون مصدراً للإلهام ؟ متى تكون مصدراً لاستكشاف المخبوء من قياس شيء على شيء ؟ وقوله تعالى :

﴿ فَاعْتَبِرُوا يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا الْآيَاتِ الَّتِي نُنَزِّلُ بِالْقُرْآنِ وَمَا نُنَزِّلُ إِلَّا بِإِذْنِ رَبِّكَ إِنَّكُم مِّنْ قَبْلِهِ كَانْتُم مَّنكُورِينَ ﴾ (الحشر : ٢)

الذي جاء في قصة بني النضير .

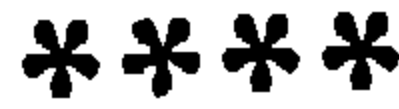
لا بد أن ننظر في كل محور من المحاور التي دار عليها القرآن لنعرف كيف أخطأ القدامى ، في بعض ما ذهبوا إليه في عصور الجمود والتخلف ، أو كيف وقف آباؤنا ولماذا ؟ لقد ظلمنا القرآن بسوء التعامل معه ، ويجب أن نحسن التعامل معه كما صنع أسلافنا الأولون .. فالمصلحون الكبار هم الذين يبدأون من العدم .

□ □ بالنسبة للمصلحين الأفذاذ الذين يأتون في أوقات من التاريخ متباعدة أو متقاربة ؛ يبدو لي أن تعبير « إنهم يبدأون من العدم » ونفي وجود قابليات تشكل استجابة لدعوتهم محل نظر، لعل الأولى أن نقول: إنهم استطاعوا ان يكتشفوا موطن الخلل فيصلحوه ، ويكتشفوا القابليات فيوظفوها ويثيروها ويشحنوا فاعلياتها

● هذا كلام دقيق . وإنما الجانب الذي أردت الحديث عنه شيء آخر ، وهو أنه عندما أرسل قائداً في ميدان موجود وأقول له : الخطة المرسومة كذا وكذا وعليك التنفيذ ، فهذا القائد أمره سهل ، لأنه سينفذ الخطة الموضوعة في الميدان المهد .. لكن ، عندما يخرج رجل مثل حسن البنا رحمه الله ، فيجد أن الأرض أمامه كلها ألغام ، والجماهير لا ترى إلا صنماً قد هام في صنم ، فكيف يعرض الإسلام عرضاً جديداً ؟ .. الرسول ﷺ سماهم : المجددين .. والتجديد من غير شك هو غير الخلق .. فالخلق يكون من عدم .. أما التجديد فهو غسل ثوب اتسخ ، أو إزالة التراب عن ملامح كانت مغطاة ، فظهرت ملامحها وبريقها بعد الإزالة .

معنى التجديد يكون أقرب إلى ما قلته أنت .. وكل ما أردت أن ألفت النظر إليه :

هو أنه قد يضطر القائد إلى أن يستحدث أساليب لا وجود لها من المقررات التي عنده . فمثلاً أنا عندي القياس ، والقياس آلة تحيي بأشياء كثيرة مع التطبيق المستمر .. والحاجة أم الاختراع .. فإذا أشعرت الأمة بأنها محتاجة إلى كذا وكذا ، يمكن أن تخترع .. وقد اخترع محمد الفاتح^(٤٨) أن تسير السفن على الأرض وهو يحاصر القسطنطينية ، لأنه يتمتع بعقل عبقرى متفتح يريد أن يخدم الإسلام خدمة جعلته يكمل حصار القسطنطينية بالطريقة المبتكرة من عدم ، فمن كان يتصور أن السفن تمشي على الأرض .



(٤٨) السلطان محمد الثاني بن السلطان مراد الثاني من أبرز سلاطين بني عثمان ، ولد في ٢٧ رجب ٨٣٥هـ (٣٠ مارس ١٤٣٢م) بمدينة أدرنة، وتولى الحكم مرتين. في الفترة الأولى وهو صغير من ٨٤٧-٨٤٩هـ (١٤٤٤-١٤٤٦م) وأعدت فيها القوى الصليبية في أوروبا بقيادة البابا وملك المجر وبقايا الامبراطورية البيزنطية والبندقية حملة للقضاء على السلطنة العثمانية وقد ساعده أبوه في القضاء على الحملة.. وتولى في الفترة الثانية من ٨٥٥-٨٨٦هـ (١٤٥١-١٤٨١م) وقد سمي بمحمد الفاتح بعد ان استطاع فتح القسطنطينية سنة ٨٥٧هـ (١٤٥٣م) كما نشر سلطانه على أجزاء كثيرة من شبه جزيرة البلقان والأناضول.. وتولى في ٤ ربيع الأول ٨٨٦هـ (٣مايو ١٤٨١).

الفقه بين دلالة القرآن واصطلاح الفقهاء

□□ قد تكون المشكلة من وجه آخر ، أن معظم العلماء والمفكرين المسلمين ، تاريخياً ، بسبب من الظروف السياسية التي أدت إلى انفصالهم عن الواقع ومتطلباته ، أو لأي سبب آخر ، صرفوا جهودهم كلها في استنباط الحكم التشريعي من الآيات دون الوقوف عند الأهداف الكثيرة الأخرى التي جاءت الآيات من أجلها ، وأنزلت للفت النظر إليها وإدراك أبعادها والتزامها في الحياة ، فجعلوا الآيات موضوع الدراسة هي آيات الأحكام التي وضعوا له أعداداً متقاربة (٣٠٠-٥٠٠) ، أما ما وراء ذلك من آيات السنن والقوانين والشروط التي قد تكون أكثر أهمية وأولى بالنظر من حيث البناء الحضاري ، وشروط القيام بأعباء الاستخلاف الإنساني ، فلم يعيروها أدنى اهتمام ، أو الاهتمام الكافي على الأقل ، وبقيت آيات القرآن الأخرى ، على أهميتها ، تتلى للتبرك ، إلى درجة وصلت عند بعضهم وكأن القرآن كله أصبح كتاباً لفقه آيات الأحكام فقط ! حتى الآيات التي وردت لتبين أسباب سقوط الأمم وانهيار الحضارات ليأخذ المسلمون حذرهم ، فلا تتسرب إليهم إصابات الأمم السابقة وعللها ، جعلوها دليلاً لصحة القياس التشريعي ، بعيداً عن سياقها الأصلي ! وتحضرنى بهذه المناسبة : الآية التي عقب القرآن بها على غزوة بني النضير ، فقال تعالى بعد ذكر الأسباب التي كانت وراء هلاكهم :

﴿ فَأَعْتَبْ رَوَايَتَاؤَلِي الْأَبْصَرِ ﴾ (الحشر : ٢)

فجعلوا الآية دليلاً على القياس التشريعي .. أما أسباب قيام وسقوط الحضارة فلم يكن لها من المساحة الفكرية والاهتمام ما تتطلبه ... وقد ترافق هذا العجز أيضاً — عند الفقهاء المتأخرين — في القدرة عن تعدية الرؤية حتى في الإتيان بمثال غير ما أتى به الأقدمون ، والمعروف أن الحكم التشريعي إنما ينجيء ثمرة للوجود والبناء الإسلامي .. بمعنى أن الحكم التشريعي لا ينشئ المسلم ، ولا ينشئ المجتمع ، وإنما ينظمه ويحميه .. ولعل ذلك كان سبب تأخر الآيات التشريعية إلى الفترة المدنية

لتكون ثمرة لوجود فرد وجماعة وأمة وحضارة .. أما أن يكون الحكم التشريعي هو الأول والآخر ، فأعتقد أنه منهج خاطئ في النظر إلى القرآن والتعامل معه ، على أهمية الفقه التشريعي ، وأهمية معرفة الحلال والحرام .

لقد أصبح كل شي يُفسر من خلال الحكم التشريعي ، فالسيرة تقرأ على أساس أنها فقه ، وتُغيب عن الدارسين كل المعاني المطلوبة في التربية بالقدوة وأبعاد التأسي المطلوبة ، لتصبح فقه السيرة ، وفقه الحديث ، وفقه الكتاب ، وفقه السنة ، وليس الفقه بمعناه العام وإنما بمعناه التشريعي .

وتقدم الفقه التشريعي ، وتقدم ، حتى أصبح تجريداً ذهنياً جامداً بعيداً عن واقع الأمة غير قادر على قيادة حركة الحياة والأحياء .. وأرى في ذلك انقلاب الوسائل غايات لقد غلبت الآلية إلى درجة كادت تغيب معها مقاصد الشريعة . فكان البحث عن المقاصد والموافقات للشاطبي ، وكان العدول عن القياس إلى الاستحسان ، وما إلى ذلك .. ولعل هذا التبحر في الحكم التشريعي الفقهي جاء على حساب بقية الجوانب الأخرى الكثيرة والضرورية . فالقرآن كتاب فقه حياة ، بكل أبعادها ، وليس كتاب فقه بالمعنى المحدود .

لذلك بات لا يرى كثير من المسلمين اليوم في تطبيق الشريعة إلا تطبيق الأحكام الفقهية : تطبيق الحدود ، وتحريم المصارف الربوية ، بينما يصعب عليهم إِبصار بقية جوانب الحياة الأخرى من خلال المناخ الثقافي الإسلامي الذي نعاني منه ..

انفصال العلم عن الحكم

• أنا لا أشك في أن الفقه الإسلامي تأثر بانحراف الحكم في العالم الإسلامي .
ويمكن أن أتصور الأمر على النحو الآتي : كانت دولة الخلافة الراشدة دولة تمثل الإسلام تمثيلاً هو الأقرب إلى عهد النبوة .. ولا شك أن سياسة الحكم ، وسياسة المال ، والمفاهيم العامة للحضارة الإسلامية ، وللانطلاق الإسلامي استمرت بمسيرتها الصحيحة ، وكان هذا الفهم مسيطراً على دولة الخلافة ..

ثم حدث تحول ينبغي أن نقف بإزائه قليلاً . لقد تحولت دولة الخلافة إلى ملك . وفي النظام الملكي الذي أقامه معاوية^(٤٩) رضي الله عنه — ننصف الرجل فنقول — : أنه ظل وقيّاً لانتماؤه الإسلامي وزعم أنه سوف يخدم الإسلام أكثر مما خدمه الخلفاء الراشدون ، أو على الأقل أكثر من خصمه الأخير ، علي بن أبي طالب^(٥٠) رضي الله عنه .. أنا أقدر منه على خدمة الإسلام . ومضى في طريقه ، فحدث تحول بيقين في قضايا إسلامية مهمة وبدأ يتجمد الفقه السياسي والدستوري للدولة .. كما تجمد فقه العلاقات الاقتصادية والمالية .. وبدأ يتجمد فقه العلاقات الدولية ، كذلك ..

هنا ، نجد الأئمة الذين قادوا الأمة علمياً ، وهم مشهورون : أبو حنيفة ومالك^(٥١)

(٤٩) هو معاوية بن أبي سفيان صخر بن حرب بن أمية القرشي الأموي . مؤسس الدولة الأموية بالشام ، وأحد دهاة العرب الكبار . كان فصيحاً حليماً وقوراً . ولد بمكة عام ٥٠ قبل الهجرة وقيل قبل ذلك ، وأسلم عام الفتح . وله أبو بكر ثم عمر . وأقره عثمان على الديار الشامية . تنازل له الحسن بن علي عام الجماعة . غزا جزر البحر المتوسط والقسطنطينية وكثرت فتوحاته . أخذ العهد لابنه يزيد . توفي عام ٦٠ هـ .

(٥٠) هو علي بن أبي طالب ، واسم أبي طالب : عبد مناف بن عبد المطلب . من بني هاشم ، من قريش . أمير المؤمنين ، ورابع الخلفاء الراشدين ، وأحد العشرة المبشرين بالجنة . ولد عام ٢٣ قبل الهجرة ، زوجه النبي ﷺ ابنته فاطمة ، ولي الخلافة بعد مقتل أمير المؤمنين عثمان ، فلم يستقم له الأمر حتى قتل بالكوفة عام ٤٠ هـ . كُفّر الخوارج ، وغلا فيه الشيعة حتى قدموه على الخلفاء الثلاثة ، يُنسب إليه « نهج البلاغة » وهو مجموعة خطب وحكم .

(٥١) هو مالك بن أنس بن مالك الأصبحي الأنصاري . إمام دار الهجرة ، وأحد الأئمة الأربعة عند أهل السنة . أخذ العلم عن نافع مولي ابن عمر ، والزهري ، وربيعة الرأي ، ونظرانهم . وكان مشهوراً بالثبوت والتحري : يتحرى فيمن يأخذ عنه ، ويتحرى فيما يرويه من أحاديث ، ويتحرى في الفتيا . اشتهر في :

والشافعي وابن حنبل ، وهم فقهاء ، التزموا ناحية فروع الفقه ، كما التزم المحدثون رواية السنن .. وغلب على هؤلاء وأولئك الرغبة في ألا يصطدموا بالنظام القائم . لأن النظام القائم ، اصطدم به الخوارج ، وهؤلاء ليس لديهم فقه ، فنكّل بهم النظام تنكيلاً قطع دابرهم ، وأياس الناس من أن يكون هناك مجال لإصلاح سياسي بالمعنى الذي يعود بالأمة إلى دولة الخلافة .. واكتفى الأئمة بأنهم قبلوا الأمر الواقع ، واستفاضوا في شروح العبادات والمعاملات على النحو الذي وصل إلينا .. كان من الممكن أن ينكشف ضرر هذه المسلك لو أنه حدثت عودة إلى دولة الخلافة ، لكن الذي حصل أنه جاءت الدولة العباسية بعد الدولة الأموية ، فوقع في نفوس الناس يأس من أن يحقق الإسلام بمفهومه الكامل مائة بالمائة ، فاكتفوا بتحقيق الناحية الفرعية في فقهه ، والناحية العبادية الفردية ، وتأثرت السياسة الإسلامية تأثراً واضحاً ، وانهزمت الشورى انهزاماً واضحاً ، ووقع للأمة ما وقع .

لكن ، لا شك أن الإسلام في جملته بقي .. وأن الملوك الذين تبناوا الإسلام ، تبناوا منه المجموع من المعارف التي لا تصطدم بوجودهم ، ولا بأحوالهم الاقتصادية التي تحيط بهم ، أو يشكلونها لحراسة سلطتهم .. ومن خرج على هذا الخط ، إما تصوّف وابتعد ، أي انسحب من الميدان بالتصوف ، وإما عاش يتحمل شيئاً من الأذى ، ويبقى الكيان الإسلامي نظرياً ، وقد تستبقية الحكومات القائمة لينجح في أداء هذا المعنى ، للاحتفاظ بالصورة النظرية للإسلام .

ولهذا ، فإن العلم المستمد من القرآن الكريم والسنة الصحيحة ، انفصل عن الحكم من عصر مبكر ، وانكمش ، وأصبح تعليقاً مرأً ولاذعاً عند واحد مثل الحسن

= فقهه باتباع الكتاب والسنة وعمل أهل المدينة . كان رجلاً مهيباً ، وقد امتحن ، فضربه أمير المدينة ما بين ثلاثين إلى مائة سوط . وكان سبب ذلك أنه أرى أن يفتي بعدم وقوع طلاق المكره . ميلاده عام ٩٣ هـ بالمدينة ، ووفاته عام ١٧٩ هـ بها .

من تصانيفه : « الموطأ » ؛ و « تفسير غريب القرآن » ؛ وجمع فقهه في « المدونة » ؛ وله « الرد على القدرية » ؛ و « الرسالة » إلى الليث بن سعد .

البصري^(٥٢) لما قيل له : لص مأخوذ إلى الحاكم ، قال : سبحان الله ، سارق السر يسعى به إلى سارق العلانية .. فهو يرى أن الحاكم المستغل لص ، وأن اللص الصغير يقاد إلى اللص الكبير ، واكتفى بهذا التعليق . لكن ، هل يستطيع أن يتحول إلى نائر ؟ هو رأى مصارع الخوارج ، وبطش الحجاج^(٥٣) بالشعوب ، فرأى أنه يمكن استبقاء الإسلام علمياً ونظرياً وتربوياً بالطريقة التي يمشی بها .. وهكذا مشى غيره من الدعاة والوعاظ والعلماء ، فكانت أول شعبة معطوبة في شعب الإسلام ، هي الحكم ..

وضياع الحكم من قيم الإسلام ، ومن تأثيرات الإسلام على المجتمع ، له نتائج خطيرة .. فلقد أعقب ضياع الحكم ، وانفصال العلم عن الحكم أو الثقافة عن السياسة ، انفصال آخر فيه خطورة شديدة على الأمة وهو أن العلم الإسلامي انقسم بين فقهاء ومتصوفة ، مع أن التربية التي أساسها العقيدة والأخلاق ، جزء من مقاصد القرآن الذي جاءت آياته لتدريب الأمة على العقيدة والأخلاق بطرق شتى . فوجد فقهاء يشتغلون بالمعاملات وبظواهر العبادات ، ووجد مربون يشتغلون بالأخلاق والتربية ، فكثير من هؤلاء فقدوا الناحية الروحية التي فيها حرارة وعاطفة ، (وهم الفقهاء) ، وكثير من أولئك فقدوا الناحية العلمية التي فيها ضوابط وقانون ، فنشأ عن هذا زلزلة في الفكر الإسلامي . ذلك أن انفصال الفقه عن التصوف ، أو انفصال التصوف عن الفقه ، أضاع الأمة ، فوجد ناس متعبدون مبتدعون لا وعي لهم ، ووجد

(٥٢) هو الحسن بن يسار البصري ، أبو سعيد . تابعي ، كان أبوه يسار من سبي بيسان ، ومولى لبعض الأنصار . ولد بالمدينة وكانت أمه ترضع لأم سلمة . رأى بعض الصحابة ، وسمع من قليل منهم . كان شجاعاً ، جميلاً ، ناسكاً ، فصيحاً ، عالماً ، وكان إمام أهل البصرة . ولي القضاء بالبصرة أيام عمر بن عبد العزيز . ثم استعفى . ولد عام ٥٢١ هـ ، وتوفي عام ١١٠ هـ .

(٥٣) الحجاج بن يوسف بن الحكم الثقفی ، أبو محمد ، قائد ، داهية ، خطيب ، ولد ونشأ في الطائف عام ٤٠ هـ ، (٦٦٠ م) ، وانتقل إلى الشام ، ثم ما زال يظهر حتى قلده عبد الملك بن مروان عسكريه . وأمره بقتال عبد الله بن الزبير . فزحف إلى الحجاز بجيش كبير وقتل عبد الله وفرق جموعه ، فولاه عبد الملك مكة والمدينة والطائف ، ثم أضاف إليها العراق والثورة قائمة فيه . فانصرف إلى بغداد ، فقمع الثورة وثبت له الإمارة عشرين سنة . وبنى مدينة واسط (بين الكوفة والبصرة) . وكان سفاكاً سفاحاً باتفاق معظم المؤرخين . توفي عام ٩٥ هـ ، (٧١٤ م) .

مشتغلون بصور العبادات وصور الفقه وليست لهم روح أو خشوع ، وشكا من هذا ابن تيمية ، وبعض علماء الحديث رحمهم الله .

اختلال في العلم الديني

ثم وُجد بعد ذلك في العلم الديني ، من عكف على القرآن دون بيان السنن ، أو عكف على السنة دون موازين القرآن ، فانضم إلى السنة حشد هائل من الموضوعات والواهيات، سببت بلبلة في الفكر الإسلامي.

وهناك شيء أخطر من هذا كله ، وهو أن علوم الحياة نبغ فيها نوابغ مثل جابر بن حيان في الكيمياء ، والحسن بن الهيثم في البصريات ، والخوارزمي في الرياضيات ، و ... وغيرهم .. لكن ، مع الأسف ، أن هؤلاء عاشوا على هامش المجتمع الإسلامي ولم يعيشوا في صميمه ، واعتبرت هذه الأشياء التي يشتغلون بها ، ليست نوافل فقط ، ولكن دون النوافل ، مع أن المجتمع لا يقوم إلا بها . فالغش الذي وقع في الثقافة الإسلامية ، وقع أولاً في الفقه نفسه ، فانحسر بعيداً عن فقه العمل والعمال وفقه الدولة ، انفصل وذهب، وتوسع في العبادات بطريقة تكاد تكون مضحكة وتعددت الصور، لأن الفقهاء يريدون ملء الفراغ..

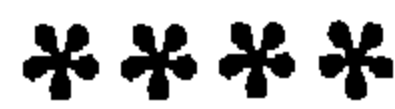
□□ حتى في هذه النقطة ، يمكن أن نقول : إنه انتهى إلى تجريدات ذهنية تكاد تضيّع مقاصد الشريعة ، مما دفع بعض الفقهاء للتحويل عن القياس إلى الاستحسان لأن تطبيق القياس بشكل آلي ، قد يذهب بالمقصد ..

• الاستحسان كما يقول الأحناف : ليس اتباعاً للهوى وإنما هو نقل الحكم من ملحظ إلى ملحظ آخر .

هذا كله في جانب واحد وهو الجانب الفقهي الذي نعتبره إلى الآن أحسن الجوانب في الثقافة الإسلامية ، أو بالأصح أكبرها مساحة .. لكن المشكلة في النظر إلى القصص القرآني .. لقد انتقل من دراسة تاريخية لقيام الحضارات وانهارها إلى

دراسة روائية ليس فيها حس بسنن الله الكونية إطلاقاً .. فوجدت أساطير ، ووجدت الإسرائيليات مجالاً واسعاً عند القصاصين ، وكان علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، ينظر ماذا يقول القصاصون فيطردهم من المساجد ولم يستبق إلا الحسن البصري رحمه الله . والقصص بالمعنى الخرافي انتشر في الأمة الإسلامية ومسّ السنة بسوء عن طريق الوضاعين الذي اخترعوا أشياء كثيرة لكي يرضوا العوام وأصحاب الطفولة العقلية والصغار.

التفسير القرآني ، ابتعد أيضاً عن روح القرآن ، ومقاصده ، فالمحاور القرآنية ، بشكل عام ، لم تجد من يتبناها ويمشي مع آفاقها لكي يحققها في الحياة .. بل بالعكس ، الأسلوب الفقهي تغلب على أنواع البحث التي كان يجب أن تبتكر في الميادين الأخرى .. فإن ما يحتاج إليه الطبيب غير ما يحتاج إليه الكيماوي .. وما يحتاج إليه المهندس الزراعي غير ما يحتاج إليه الفلاح .. فكل شيء له من طبيعته منهجاً يسير عليه .. امتداد هذه المناهج ، يكاد يكون في ثقافتنا ، صفراً.



الفقه الحضاري

□□ كلمة « فقه » — كما وردت في القرآن — لا شك أنها تعني أكثر بكثير من المدلول الذي حدده الفقهاء بأنه هو استنباط الأحكام الشرعية من أدلتها التفصيلية، حتى أن الله سبحانه وتعالى قال عن المشركين بعد هزيمتهم في غزوة بدر :

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُوْنَ ﴾ (الحشر: ١٣)

فعملية الفقه إنما استخدمت في القرآن لمعنى أوسع بكثير من المعنى الاصطلاحي الفقهي .. إنه الفقه الحضاري بكل ما تشمل كلمة حضارة من أبعاد .

• المعنى اللغوي ، معروف في اصطلاح الفقهاء ، هو هذا العلم المتصل بأحكام العبادات والمعاملات .. أما المعنى الشامل للفقه كما ورد في القرآن ، فكان الكلام فيه مستبعداً ، لأن الحاكم كان يرفض أن يكون الكلام في الشورى ، وحدود ما له وما عليه .

□□ أقصد أنهم حصروا كلمة « الفقه » في قول الرسول ﷺ : « من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين » (٥٤) ، أي بالحكم التشريعي .

• نسوا الفقه بالمعنى اللغوي الشامل ، وغلب الاصطلاح ، حتى لتستغرب كلمة فقه اللغة .. وأنا عندما ألفت كتابي « فقه السيرة » تصور بعض إخواننا أن الكتاب هو كتاب في الفقه . ولكن أنا قصدتُ به عرضاً للسيرة النبوية يتتبع مراحلها ليعرف : كيف كانت الدعوة هنا ؟ لماذا أعلنت الحرب هنا ؟ ما موقف المسألة وما موقف المخاصمة ؟ فأردت أن أعطي للناس فهماً .. كان الناس يفهمون أن الرسول ﷺ مظهر فقط للأوامر التي تأتي من عالم الغيب .. فأفهمت الناس عن طريق كتاب « فقه السيرة » أن الرسول ﷺ إنسان ، كامل ، يتصرف في مواجهة الأحداث

٥٤ — الحديث رواه البخاري في صحيحه عن معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه ، في كتاب العلم ، باب من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين . كما رواه مسلم وأبو داود والترمذي وابن ماجه .

بالعقل الذي صنعه القرآن .. وهو العقل الإنساني الذي تحرك مع مسارات الفطرة لكي ينصر الله ويعلي كلمته .. هذا ما أردته ..

المهم أن كلمة « فقه » من الناحية اللغوية لها أبعاد غير ما استقر في الأذهان .. فنجد أن هناك فقهاً للفلك ، وفقهاً للنفس ، وفقهاً للأخلاق ، وفقهاً للحضارة ، وهذا ما نلمحه من قوله تعالى :

﴿ فَالِقَ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾
(الأنعام ٩٦)

إلى أن يقول :

﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴾ (الأنعام ٩٦-٩٨)

ما الفقه هنا ؟ إلا معرفة مستقر النفس الإنسانية قبل أن توجد وهو في الرحم لأن الآية

﴿ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ ﴾ (الحج : ٥)

ما المستودع ؟ .. إنه القبر ، وما يصل إليه البدن .. ثم ما بين المستقر والمستودع من حياة ، هذا كله يحتاج إلى فقه . هذا الفقه قد يكون فقهاً في علم الأجنة .. وقد يكون فقهاً في أشياء كثيرة كما توحى الآية هنا . فالفقه الذي أشار إليه القرآن هنا واسع المرادات . لكن غلب علينا أن نترك توجيهات القرآن غفلة ، مثلما تركنا إلى الآن حساب الزمن بالنظام الفلكي ، فالآية قالت : العلم

﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾

(يونس : ٥)

الآن نحن حريصون على أن تبقى الأمة أمة أمّية. تحسب الشهر وتكتبه بالرؤية الحسية .. طبيعة الأميين .. أما أن يُعرف الحساب كما قالت الآية ، حساباً فلكياً ، فيعرف ميلاد الشهر بالنظام والحساب الفلكي ، وبالمراسد كما يقع الآن ، فهذا لا يزال أمراً مستبعداً في أذهان الناس ، ولا نزال نرى أن واحداً بالمشاهدة يستطيع تكذيب العلم ! يعني ، تقول المراسد في الدول المتقدمة علمياً لا يولد القمر هذه الليلة ، ويأتي واحد ويقول : أنا رأيت القمر .. ويُصدق ، وانتهى الأمر ، وذهب العلم !

الأمر يحتاج من غير شك إلى أن نفهم العلم ونفهم الفقه بالمعاني القرآنية، لأن القرآن وسع دائرة الفقه من خلال نظرنا في الآيات.

﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ فِيهَا ﴾

نتبع الآية.. لماذا وصف اليهود بأنهم قوم لا يفقهون؟ والكفار في بدر «لا يفقهون»؟ لماذا نعرف القضايا التي جهلها هؤلاء، وفقهنا القرآن فيها عن طريق تبصرتنا بأن هؤلاء هزموا لعدم فقههم ..

الرؤية الموضوعية.. والرؤية الموضوعية

□ □ مشكلة العجز عن النظرة الشمولية للرؤية القرآنية ، أدت إلى لون من تقطيع الصورة وتمزيقها ، أو إلى التبعيض المورث للخزي الواقع في حياتنا اليوم وكأنه صدق لقوله تعالى ناعياً على بني إسرائيل — :

﴿ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ (البقرة : ٨٥)

نخشى أن تكون علل الأمم السابقة انتقلت إلينا ، عل الأقل من الناحية النظرية فنحن لا نؤمن ببعض ونكفر ببعض ، إلا أن النظرة الجزئية وأخذ بعض مقاصد الآية أو السورة ، وترك ما وراءها للتبرك والتلاوة ، نخشى أن نكون وكأننا وقعنا في هذا فعلاً عل الرغم من ادعائنا الإيمان بالقرآن كله .. لكن أقول — من حيث المردود العملي لهذا القرآن وليس من قبيل الجانب النظري — نحن نعيش الآن مرحلة التبعيض والتفريق ...

كيف يمكن أن نرسم الطريق لتحقيق الرؤية الشاملة والنظرة الموضوعية لا الموضوعية ؟ وهل تعتقدون أن الاختصار عل الجانب التشريعي ، وإهمال بقية المقاصد ، هو سقوط في هذا التبعيض ؟ .. لو أمكن ، إيراد نماذج موضحة من القرآن الكريم.

• الذي أتصوره ، أن تعاليم الإسلام ، نسيج متشابك ، ملتحم بعضه مع بعضه الآخر ، تختلط فيه العقيدة مع العبادة مع الأخلاق ، مع أنواع المعاملات المختلفة .. وقد لفت نظري من قديم أن الأحكام الفرعية الجزائية المحدودة ، تجاوزها أسماء الله الحسنى ، وتختتم بها الآيات ختاماً يحتاج إلى التدبر العميق .. ففي سورة البقرة مثلاً نقرأ قوله تعالى :

﴿ وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ ۚ

وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبْتُمْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ عَفُورٌ حَلِيمٌ الَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿ (البقرة : ٢٢٤-٢٢٧)

ترى هنا أن جواب الشرط في قوله تعالى :

﴿ وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (البقرة : ٢٢٧).

أغنى عن المعنى وجيء بصفة من صفات الله تدل على هذا المعنى ...

﴿ إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (يوسف : ٩٠)

واضح أن الإخبار عن مسلك إنساني بصفة إلهية فيه معنى المزج العجيب بين السلوك الإنساني وبين العقيدة التي هي أساس في الإسلام ، لما وراءها من سلوك . أستطيع أن أفهم من هذا أن القرآن غذاء روحي مكتمل العناصر .. وكما أتناول على المائدة مجموعة من السكريات والنشويات والدهنيات وما إلى ذلك في طعام واحد ، أو في أغذية واحدة ، في وجبة واحدة ، فكذلك يتقدم القرآن إلينا برسالة حياة شاملة لا تدع جزءاً منها إلا وتمتد إليه . ويجري الوحي الإلهي خلال هذا النسق القرآني كما تجري الدماء داخل العروق ، لتشمل الرأس والقدم .. الجهاز يدور في كل شيء ليعطي الحياة كل شيء . وبذلك نستطيع أن نقول : إن الرؤية القرآنية لا يمكن إلا أن تكون حضارة كاملة .. فأخذه على أنه مجموعة قصص مثلاً ودراسة فن القصة على أساس أن القرآن كله قصص لا يمكن أن يكون تصويراً صحيحاً للقرآن .. وكذلك الأحكام الفقهية التشريعية ، والمعتقدات الإلهية ، والآيات التي تأمر بالنظر في الكون ، وآيات التربية ، وما إلى ذلك من تعاليم إسلامية .. هي متماسكة في عصارة واحدة تجمعها من أولها لآخرها ، ومن المستحيل أن أنظر إلى القرآن النظرة الجزئية التي تجعلني أعيش في جانب منه وأنسى الجانب الآخر ، كما لا يمكن أن يتكون الدم من كريات حمراء فقط ، وبيضاء فقط ، وبعض العناصر المعدنية فقط التي تسير في الدم ولا يكون دماً إلا بها .. لا يمكن إطلاقاً أخذ جانب من القرآن

وإهمال الجوانب الأخرى ، لأنها جوانب يجز بعضها بعضاً ، متماسكاً .

فالنظرة الشاملة هي النظرة الصحيحة للدراسات القرآنية ، ولا يمكن الرضى بنظرة جزئية .. والنظرة الجزئية ، عندما سادت الفكر الإسلامي ، نشأ عنها ما يشبه الجسم المشلول في بعض أطرافه ، أو في بعض أجهزته مع بقاء أجهزة أخرى حيّة .. إنه لا يستطيع أن يؤدي وظيفته ما دام الشلل أو الخطر جمد بعض الأجهزة أو بعض الأعضاء .. لا بد من النظرة الشمولية للقرآن كله .. وهكذا انطلق القرآن من بدء نزوله حيث تجد :

﴿ أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَ طَغْيَىٰ ۚ إِنَّ رَأْيَهُ أَسْتَفْتَىٰ ۚ ﴾ (العلق ١-٧)

الأمر بالقراءة أولاً ، وكون القراءة باسم الله ، وليس ثقافة مجردة ، أو علماً للعلم ، وإنما هي قراءة باسم الله سبحانه وتعالى ، لها هدفها .. الله الذي خلق .. ربط القراءة بتكوين الإنسان من علق ، قضية متباعدة الأطراف .. ثم التركيز على هذا

﴿ أَقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ (العلق : ٢-٥)

الدخول في مسألة اقتصادية واجتماعية معاً ، وهي طغيان الإنسان عندما يُترف ويُنعم ويحيثه المال ، ويستكبر به .

هذه المعاني المتباعدة في ظاهرها هي القرآن الذي يكون مائدة متائلة في ما ذهب من حقائق الحياة وعناصرها لمن يسمع ولمن ينفذ .. فلا بد من هذا الشمول في النظر . والنظرة الجزئية وحدها ، تكون غير كاملة لأنها انقطعت عن بقية الصورة .

العجز عن إدراك المعنى الجامع

□□ لعل ذلك ، إنما حصل ، بسبب عدم قدرة النظر على إدراك المعنى الجامع أو الخيط الجامع لهذه المظاهر جميعاً .. وربما كانت النظرة الجزئية بسبب العجز عن التقاط الخيط الذي ينتظم هذه المظاهر جميعاً : أهلية التعليم ، وهدفية القراءة ، وكون الله سبحانه وتعالى هو الخالق الذي خلق هذه المؤهلات التي يجب أن تتوجه إليه ، أو تبدأ باسمه القراءة ، وإن عدول الإنسان عن الخالق ، والالتزام بقيمه الضابطة في الحياة ، وقوع في الطغيان ... الخ .

● هذا حسن فعلاً .. عندما تريد أن ترسم صورة كاملة للإنسان ، فهل إذا قطعت هذه الصورة إلى أجزاء ، هل كل جزء منها يمكن أن يكون مكوناً أو مؤدياً أو منهاً إلى فكرة الإنسان الكامل ؟ .. لا يمكن .. لن تكون الإنسانية واضحة ولا حتى جزئية في جزء من الصور التي أمامك .. لا بد من أن أكون ناظراً إلى القرآن كله النظرة الشاملة المتناسكة . ولذلك أنا أحب أن يقال : إن الإسلام حضارة كاملة بأبعادها جميعاً .. ومعنى أنه حضارة : أنه سيكون فيه تشريع إلى جانب التربية ، والتوعية الخلقية ، والأحكام الدولية .. إلى جانب المقاصد الكثيرة الأخرى التي تكمل الصورة .. فالقرآن كتاب حضارة كاملة .. وأظن أن الأستاذ حسن البنا في أول مادة من تعاليم العشرين التي يقدم بها الثقافة الإسلامية ، قدم الإسلام بهذا الشمول ، فقال : إنه مادة وروح ، وعقل وعاطفة ، ودنيا وآخرة .. أعطاه كل ما يتصل بالحياة .. لقد فهم حسن البنا ، الإسلام كما قال تعالى :

﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾
(النحل : ٨٩)

فالإسلام هداية ، ورحمة ، ومصلحة ، ومنفعة ، وأسرة ، وتفاؤل وخير وانطلاق للمسلمين ..

□□ أتصور أننا نحن المسلمين اليوم ، خاصة في الفكر الإسلامي المعاصر ، نزع

ونرفع شعار أن الإسلام شامل لجميع جوانب الحياة .. لكن ، من الناحية العملية ، نحن واقعون في التجزئـة وفي تضخيم بعض الجوانب وإسقاط بعض الجوانب والمقاصد الأخرى .. نحن مُتهمون من بعض المفكرين الأوروبيين بأن العقل العربي نفسه مولع بالنظرات الجزئية ، وعاجز عن النظرة الشمولية ، لذلك نمت في ثقافته النظرات الجزئية ، أو التوقف عند حدود الجزئيات أكثر من أن تكون عنده القدرة على رؤية شاملة خاصة في عصور التخلف والجمود والتقليد .. فكيف ترون العلاج لهذه الإصابة بالنسبة للعقل المسلم اليوم ؟ وما هي الوسائل ، أو بعض المناهج ، التي تقترحونها ليتمكن المسلم اليوم من الرؤية القرآنية الشاملة التي تُشكل المنطلق الثقافي ؟

● التفسير الموضوعي بشقيه، وهو مثلاً: النبوة في القرآن، المال في القرآن، العدالة في القرآن ربما كان إنشاء تفسير موضوعي من هذا النوع يكون فيه معالجة لهذا الواقع، ومنطلق ثقافي لرؤية قرآنية شاملة ومتوازنة .. يضاف إلى ذلك أن النظرة الموضوعية للسورة كاملة ، ومعرفة الأغراض التي تدور حولها ، يمكن أن تساهم أيضاً بتكوين المنطلق الثقافي للرؤية الشاملة .. نحن أنفسنا روجنا لهذا الاتهام ، ووقعنا بسبب النظرات الجزئية بمغالطات ومفارقات عجيبة .

نماذج للنظر الجزئي

كنت أنظر أحياناً إلى طريقتنا في فهم القرآن ، فكنت أجد أنها طريقة تستحق التأمل . بمعنى : أنه لكي نقول : إن العمل الذي نؤديه هو من صنع الله ، استدللنا بالقرآن :

﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ (الصافات : ٩٦)

انتزعنا هذه الآية من السياق كله لكي تدل على مذهب أهل السنة : إن العمل مخلوق لله ! ونسينا أن هذا الكلام لو صحَّ ، ما كان عبدة الأصنام مسؤولين ! لأنهم إذا كانوا مخلوقين لله ، وشركهم ووثنيهم مخلوقة لله ، فما عليهم من ذنب ! لكن نحن أخذنا ظاهر الآية وقطعناها من سياقها ، من قبل ومن بعد ، وجعلناها هكذا دليلاً

نراي باطل .. إنها آفة التجزيء .

بعض الناس بلغت به النظرة الجزئية حداً جعلته يأخذ من صدر سورة براءة أن
الإسلام دين هجوم .. وإذا سألتهم عن الدليل يقولون : قوله تعالى :

﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً﴾ (التوبة : ٣٦)

ويقف من ثم لا يكمل الآية ، لأن إكمال الآية :

﴿كَمَا يَقْتُلُونَكُمْ﴾

فأنت هنا ترد الهجوم الشامل بدفاع شامل .. وليس هناك ما يستدعي هذا . بل
سميت آية السيف بذلك ، من المستثنى قبل الاستثناء في قوله تعالى في السورة
نفسها :

﴿... وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ
وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ
الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (التوبة : ٣)

وانتهى الأمر . أخذ منها البراءة المطلقة . أما الاستثناء الذي جاء ووضح حدود البراءة
ومعناها والمجال الذي لا يجوز أن تتعداه وهو قوله تعالى :

﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا
فَاتِمُوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ (التوبة : ٤)

نسناها ، واعتبرنا المستثنى منه ، وأصبح القتال عاماً ، بدون وعي للمعنى نفسه ...

ومثال آخر : هناك آية عجزنا عن تبين حقيقتها لأنه قد استولى علينا فكر مبتسر
من مكان في السورة ، والآية هي قوله تعالى :

﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ ابْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَٰلِكَ
بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (التوبة : ٦)

الآية واضحة وهي أنك تجد المشرك خالي الذهن عندما يرى هذا القتال ، ويسألك ماذا تريد؟ تقول له : أدعو إلى الإسلام . فأنت مكلف ألا ترغمه على دينك ، ولا تستعمل معه سيفك ، ولا تفكر في إرغامه على شيء ، بل تقبل منه وضعه الحالي ، وترده إلى المكان الذي جاء منه ، وهو غير مروّع ، وتحميه ليدخل بعد ذلك الإسلام وهو مطمئن .. فكيف يفهم هذا المعنى من هذه الآية مع أنك فسرت ما قبلها وما بعدها على أن الإسلام دين هجوم وقتال ؟

فشمول النظرة القرآنية أمر لا بد منه لكي تعطي الأحكام الصحيحة حتى من الناحية الفقهية التشريعية ، فإذا أدركنا أن الإنسان مخلوق سوي له سمع ، وله بصر ، وله فؤاد ، ولا بد أن يستغل هذه الوظائف جميعاً في تصحيح إنسانيته ، والعيش بها ، أدركنا أنه لا يمكن أن يتم هذا الذي قاله القرآن الكريم في مكان آخر مع إباحة الإكراه . فكيف تكره أحداً؟ إنك بهذا تلغي إنسانيته .. وما فائدة الحكم الشرعي إذا فقد الإنسان الذي يُطبق الحكم الشرعي ؟

□ □ الله سبحانه وتعالى حذر المسلمين مما وقعت به الأمم السابقة من أن عملية التبعية موصلة إلى الخزي .. وذكر علل التدين في الأمم السابقة هو تحذير للأمة المسلمة حتى لا تقع فيما وقعوا فيه ، فيلحق بها ما لحق بهم .. يقول تعالى :

﴿ كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ ﴾ (الحجر : ١٠ - ٩١)
أما تفسير قوله تعالى :

﴿ كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ ﴾ ١٠ الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ ﴿

فإني أحب ربط الآيات بالسياق الذي وردت فيه حتى يتضح معناها :

إن الله امتنَّ على نبيه محمد بالقرآن الكريم ، وهو عطاء ضخم ، أضحي محمد به خاتم الأنبياء وصاحب الهدايات الباقية إلى آخر الدهر .

وتعلّم هذا القرآن فضل لا يزنه فضل آخر ، إن رجلاً أوتي القرآن ثم ظن غيره

أوتي خيراً منه فقد حقر عظيمًا أو عظم حقيراً ، فكيف بمن اصطفاه الله لتلقي آياته من السماء ؟ لقد سبق سبقاً بعيداً ، ولذلك قيل للرسول الكريم :

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِ وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَاهُ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَخَفَضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (الحجر : ٨٧ ، ٨٨)

إن الغني لا يمدُّ عينه إلى المحرومين ، مهما أوتوا من متاع الدنيا ، وإذا كذبه فلا تذهب نفسه عليهم حسرات [عليه أن يهدي الآخرين وأن يفتح قلبه ويخفض جناحه لمن اهتدى به وسار معه ..]

﴿ وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ ﴾ (الحجر : ٨٩)

عليّ أن أُنذركم بهذا الوحي ، ولست مكلفاً بأكثر من البلاغ الواضح الذي ينير الطريق لمن شاء المضي فيه .

ولست بدعاً من الرسل الذين سبقوني ، فإن أهل الكتاب جاءتهم أنبياءهم بالحق ، كما جئتمكم أنا يا معشر العرب بالحق .. لكن أهل الكتاب سارعوا إلى التكذيب ، ونظروا في القرآن نظرة ظالمة ، رفضوا ما خالف هواهم ، وسكتوا عن غيره .

وجعلوا الوحي الصادق أقساماً يؤمنون ببعض ويكفرون ببعض ،

﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (الحجر : ٩٢ ، ٩٣)

ومن العلماء من يرى مسلكتهم هذا إنما كان في كتبهم نفسها ، كما قال في سورة أخرى واصفاً موقفهم من كتاب موسى :

﴿ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ يُبَدُّونَهَا وَيُخْفُونَ كَثِيرًا ﴾ (الأنعام : ٩١)

﴿ يَتَأْهِلَ الْكِتَابَ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ ﴾ (المائدة : ١٥)

وكأن لفظ القرآن هنا بمعناه اللغوي : أي القراءة ..

ولا يزال أهل الكتاب على هذا الموقف المريب مما نزل عليهم وهو موقف يدور بين التحريف والتأويل ، والكتمان والإهمال ..

وكثير من المستشرقين والمبشرين يتعامل مع القرآن بالأسلوب نفسه الذي ألفوه مع كتبهم .

وهناك مفسرون يجعلون المقتسمين طوائف من أهل مكة الذين يعبدون الأصنام ، توزعوا على الطرق ينهون الناس عن الدخول في الإسلام وتصدق محمد ..

وقد أمر النبي بعدم الاكتراث بهؤلاء المكذبين الذين تفرقوا على أفواه السكك يأمرهم بالمنكر

﴿ فَأَصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴾

هؤلاء الكتايبون الذين نظروا إلى القرآن الكريم، فما وافق أهواءهم قبلوه، وما صادم شهواتهم رفضوه .. ولم يلمحوا منه إلا الجانب الذي يرضيهم أو ألفوه في حياتهم ، ورفضوا الجوانب الأخرى التي تصحح لهم هذه الحياة وتنقلهم من الحيرة إلى الرشد .

خاود القرآن.. هل يعني خاود أصول المشكلات التي يعالجها

□ □ من المسلمات عند المسلمين — من سلف وخلف — أن القرآن هو كتاب الله الخالد المجرد عن حدود الزمان والمكان ، الذي ورد بالتواتر — أي : ما يفيد علم اليقين — وإنه خطاب عالمي إنساني شامل ، نزل ليرسم الطريق الصحيح للبشرية ويعالج مشكلاتها ، ويضع حلولاً لها في كل زمان ومكان ، وكانت أسباب النزول هي أشبه ما تكون بنماذج ووسائل إيضاح أو وسائل معينة لإيضاح تطبيق النص وتنزيله على الواقع ، وتبقى العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، كما يقول العلماء.

والقضية المطروحة هي :

طالما أن الخلود سمة القرآن الكريم، فهذا يعني من وجه آخر: خلود المشكلات والقضايا الإنسانية التي جاء القرآن لمعالجتها في أصولها ، وإن تغيرت في بعض فروعها وألوانها ..

أي ، أن القرآن خالد ، والقضايا الإنسانية المطلوب علاجها خالدة أيضاً ، من بعض الوجوه . ولا تزال في الإنسانية حالات كفر ونفاق ، وضعف إيمان ، واستكبار ، وعلل نفسية ، وصور من الولاء والبراء ، والسقوط والنهوض ، والنصر والهزيمة ... الخ .

فكيف يمكن والحالة هذه أن نُعمل بعض الآيات ونعطل بعضها بسبب القول بالنسخ؟ وفي الوقت نفسه نقول بالخلود؟ وكيف يمكن مواجهة الحالات المتعددة التي ستطرأ على الحياة الممتدة المتطورة ، ومعالجتها بحل واحد انتهت إليه الجماعة المسلمة الأولى ، في ظرف تاريخي معين، وشروط ميلاد وتطور معروفة؟

هذه قضية هامة في نظري ، ولا بد أن نعرض لها بشيء من الإفاضة والتفصيل ، إلا إذا اعتبرنا المجتمع الإسلامي الأول هو البداية والنهاية وبذلك نكون قد وقتنا القرآن بشكل عملي وإن كنا نرفض ذلك بشكل نظري ؟

• كنت كتبت في كتابي « نظرات في القرآن » ، أن بعض الناس جاء لابن عباس رضي الله عنهما وقال له : يتشابه عليّ القرآن .. قال له : لماذا؟ .. قال : أجد في بعض السور مثلاً قوله تعالى :

﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ ﴾ (الصافات : ٢٤)

وفي سورة أخرى :

﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَا يُشْئِلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ ﴾ (الرحمن : ٣٩)

فكيف يكون التلاقي بين الآيتين؟ .. كان جواب ابن عباس : إنها مواقف .. في بعض الأحوال يكون المتهم مسؤولاً فيحقق معه .. وعندما يتم التحقيق ويبدأ التنفيذ لا يُسأل ولا يُستقصى ولا ينتظر منه دفاع . انتهى الأمر ... وتفسير ابن عباس واضح في الموضوع .. ففهمت من هذا أن القرآن ، إذا كانت هناك آيات تصف جانباً من المجتمع البشري أو بعض الحقائق التي فيه ، وآيات أخرى قد يُنظر إليها أنها مخالفة للآيات الأولى ، فهي في الحقيقة لا تُخالف ، لأن لكل آية مجالها الذي تُعمل فيه ، والحقيقة التي تمثلها وتوجه البشرية من خلالها ، لأن الحياة ليست موقفاً واحداً ، وليست قضية واحدة ، وليست صورة واحدة إطلاقاً .. الحياة : استمرار .. والمهم عندي ، أو الحكمة في نظري هي : كيف تنزل آيات القرآن على الواقع المختلف من مكان لمكان ومن زمان لزمان ؟ وهذه هي الحكمة :

﴿ يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ ﴾ (البقرة : ٢٦٩) .

كذلك نزل القرآن خلال ربع قرن تقريباً .. القول بأن للآيات أسباب نزول ، هذا حكم خاص ، وليس حكماً عاماً . ما سبب نزول سورة يوسف كلها؟ .. ليس لها من سبب نزول ، إنما القصة قصة هداية جاءت من عند الله .. وعندما يبدأ القرآن الكريم ، من سورة البقرة ، يتحدث عن الإيمان والكفران والنفاق وأقسام البشرية ... الخ فما سبب النزول؟ إنما هو يصف الواقع الذي يعرف في حياة البشرية كلها إن البشر عندما تُعرض عليهم عقيدة ، هناك دائماً من يكفر بها ،

وهناك من يؤمن بها، وهناك من ينافق معها.. والقصة ليست مرتبطة بتطبيق عملي في جانب من الجوانب وحده.. ولهذا فمن الخير ان يفهم القرآن كله على أنه ليس هناك جانب حي فيه وجانب معطل.

□ □ خلود القرآن يعني : أن القرآن قادر على الاستجابة لكل الحالات ، وفي الظروف كلها .. وكما أن الآيات خالدة ، فإن المشكلات خالدة ، حتى يكون هناك تواز بين المشكلات والآيات .. وتبقى الحاجة للقرآن قائمة فيما تتقلب به البشرية من كفر ، ونفاق ، وهبوط ، وسقوط ، وصعود ، وما إلى ذلك .. أمّا إذا اعتبرنا أن بعض الآيات نُسخَت لأن الحالة التي جاءت من أجلها انتهت في المجتمع العربي الأول — مجتمع الجزيرة العربية — فكيف يمكن أن يكون الإسلام خالداً مع هذا الاعتقاد ؟

● هناك أمران في هذه القضية :

الأمر الأول هو أن المجتمع القديم الذي نزل فيه القرآن ، هو مجتمع بشري وأحواله صورة مما يعترى البشرية على امتداد الزمن إلى انتهاء الحياة . فالحكم في أي صورة من هذه الصور هو حكم بطبيعته ممتد لأنه ليس خاصاً بهذه الصورة بل هو يتجدد مع كل صورة مشابهة لها إلى قيام الساعة . ومن هنا جاء الخلود .

ثانياً : أن الصور التي أمامنا والتي تحدث فيها القرآن ، هو لم يكن مجيباً لسؤال فقط بحيث أن القصة تنتهي بانتهاء فهم السائل لما سأل عنه ، لا .. إن الإجابة تكون فيها توسعة وتناول لأمر آخر كثيرة .. وكون أن سبب نزول الآية كذا ، ننظر للآية ، هل هي فعلاً عندما تحدثت ، تناولت السبب ووقفت عنده .. السبب هو مفتاح لكثير من المعلومات بدا ينساب مع هذا السبب.. وهذا الكنز من المعلومات الذي انفتح لنا بسبب سؤال فلان ، أو حالة فلان ، أو تطلب الوضع لحل ، هو الذي جاء بهذه الخيرات كلها .. ولذلك لا أنظر لسبب النزول إلا كأنه نوع من السبب الأدنى لهذه المعاني التي جاءت كلها .

وفي تصوري ، أن البشرية لن تخلو على امتداد الزمن من نفس الحالات البشرية

التي رأيناها خلال ربع قرن .. فخلال ربع قرن أمكن تقديم نماذج لما يصنعه الخصام واللدن، وما يصنعه الحب والعاطفة الإنسانية، وهي تستقر، أو وهي تهجر.. ما يعترى كل إنسان في أحواله .. كانت نماذج حول النبي عليه الصلاة والسلام ، هي — النماذج — كأنها شخوص موفدة من الغيوب في المستقبل لكي تسمع وترى ما تحتاج إليه في الغد القريب والبعيد مما يقع في أيام النبي عليه الصلاة والسلام . ولعل هذا سر أن الرسالة إنسانية.. ولو أن الإعجاز بخارق من خوارق العادات يخلق الإيمان ، لما كان معنى للخلود . لأن الخارق للعادة ما قيمته إلا لمن نظروه وارتبطوا به ؟ لكن الكتاب ، كتاب معجز بأنه يتحدث للنفس الإنسانية . والنفس الإنسانية إذا كانت هناك صور أيام النبي ﷺ موجودة ، فالصور متجددة إلى قيام الساعة . فهذه الصور تنظر إلى القرآن النازل لترى أنه يخاطبها كلها ، ويتعامل معها كلها ، وآياته نفسها مفاتيحها لمشكلاتها كلها إلى قيام الساعة .. ومن هنا ، ما أظن أن يجيء شيء يلبده الزمن ويعجز القرآن عن حله . لأن الطريقة التي نزل بها تجعله حلاً للمشكلات ولا صلة له بالواقع المحسوس ، إلا صلة أنه لأدنى ملائمة بدأ الكلام .

□□ هذا الأمر مسلم فيه ، كقناعة . لكن ، حينما نأتي لنقول : هذه الآية نسخت التي جاءت لمعالجة حالة معينة ، نسخت بعد انتهاء الحالة في مجتمع النبوة ، فمعنى ذلك أن هذه الحالة سوف لن تتكرر في البشرية ، وليست بحاجة إلى هذا الحل .

• لا يمكن أن يقع هذا في القرآن .. آية بطلت لأن حكمها انتهى ، والشخص أو الجزء الذي اتصل بها تلاشى ، لا يوجد هذا في القرآن إطلاقاً .

□□ الذين قالوا بالنسخ في بعض الآيات التي كانت في مرحلة من المراحل تشكل حلاً لمشكلة قائمة ، أو تنزلت على حادثة بشرية قائمة ، وقدمت لها حلاً ، ثم حينما ارتقى المجتمع وجاءت مرحلة أخرى ، قالوا : بأن الآية السابقة تُسخت مع أن المجتمعات تتكرر فيها مثل هذه الحالة السابقة التي كانت !

• نعم .. ولذلك خطأناهم .. هذا يشبه حالة النهي عن إدخار لحوم الأضاحي ، كما

ورد في قول الرسول ﷺ : « إنما نهيتكم — أي عن أكل لحوم الأضاحي بعد ثلاث — من أجل الدّافة التي دَفَّتْ، فكلوا، وادّخروا، وتصدقوا»^(٥٥) وقوله: «كلوا، وأطعموا، وادّخروا، فإن ذلك العام — أي العام الذي نهى فيه عن الادخار — كان بالناس جهد، فأردت أن تُعينوا فيها»^(٥٦).

ففي يوم ما ، قالوا : لا تُختزن لحوم الأضاحي ! لماذا ؟ لأن الناس في أزمة ، وفي حاجة إلى توسعة .. ثم قيل : خزنوا لحوم الأضاحي ، لأن الناس ما تحتاج إلى كل ما ذُبَح .. فقيل : الثاني نسخ الأول ! والحقيقة هي :

أن الحكم الخالد هو : إذا كان اللحم الموجود قليلاً ، لا بد من التوزيع وعدم الادخار ، وإذا كان كثيراً ، تستطيع أن تدّخر .. هذا هو الحكم الخالد .. والحكم الجزئي ، الخطأ ، هو أنك قلت : كان الادخار ممنوعاً ثم أبيع .. هذا غير صحيح ، وهذا عيب الذين يقولون بالنسخ : إنهم يظنون أن حكماً انتهى أمره لأن القصة لا تتكرر .. القصة إذا تكررت تكرر معها المتصل بها ..

□□ هذا الذي أردت أن أقوله : إن الحوادث تتكرر .. فالآيات الخالدة تقابلها حوادث خالدة .. فالادعاء بتعطيل بعض الآيات باسم النسخ قد يكون محل نظر ، وقد ترم مشكلات بحاجة إلى معالجة هذه الآيات ..

مفهوم النسخ في القرآن

• في الحقيقة ، الاتجاه بين جميع العلماء المحدثين الذين التقيت بهم أو استمعت إليهم أو قرأت لهم ، كانوا ضد المعنى الذي شاع بين المتأخرين من المفسرين من أن النسخ ، بمعنى إبطال آيات في القرآن ، موجود .. وجدت أن الشيخ الفقيه المؤرخ

(٥٥) الحديث رواه مسلم في صحيحه عن عائشة رضي الله عنها ، في كتاب الأضاحي ، باب بيان ما كان من النهي عن أكل لحوم الأضاحي بعد ثلاث في أول الإسلام ، وبيان نسخه وإباحته إلى متى شاء .

(٥٦) الحديث رواه البخاري في صحيحه عن سلمة بن الأكوع رضي الله عنه ، في كتاب الأضاحي ، باب ما يؤكل من لحوم الأضاحي وما يُتَزود منها .

الأستاذ الخضري^(٥٧)، رفض النسخ رفضاً باتاً ، وقال : لا يكون إلا تخصيص عام ، أو تقييد مطلق أو تفصيل مجمل .. والشيخ رشيد رضا^(٥٨) فعل هذا بما هو أوضح ، وتكلم عن آية

﴿ مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا ﴾ (البقرة : ١٠٦)

فبين أن الآيات : تكليفية وتكوينية . وأن الذي تنسخه آية سورة البقرة هنا هو الآيات التكوينية ، وليست هناك آيات تكليفية تُسخت بهذه الآية .. ومعنى التكوينية معروف وهو خوارق العادات التي كان يؤيد بها الأنبياء ، وهي التي تتغير بتغير الأزمنة .. أما الآيات التكليفية فأنا نظرت إليها نظرة واقعية عند قوله تعالى :

﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَاتٍ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُزَكِّي قَالَوَالْإِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ ﴾ (النحل : ١٠١)

الخازن^(٥٩) ، قال : إن هذه الآية جاءت رداً على أسئلة بأن محمداً يقرر حكماً ثم

(٥٧) محمد الخضري بك ، مصري الأصل ، عمل مفتشاً بوزارة المعارف المصرية ، ومدرساً للتاريخ الإسلامي بالجامعة المصرية عام ١٩٣٨ م . له العديد من المؤلفات ، منها : أصول الفقه ، وتاريخ التشريع الإسلامي ، ومحاضرات في تاريخ الأمم الإسلامية ، ومهذب الأغاني ، وإتمام الوفاء في سيرة الخلفاء ، وغيرها .

(٥٨) محمد رشيد بن علي رضا بن محمد بن شمس الدين بن محمد بهاء الدين بن ملا علي خليفة القلموني ، البغدادي الأصل ، الحسيني النسب : صاحب مجلة «المنار» وأحد رجال الإصلاح الإسلامي ، من الكتاب ، العلماء بالحديث والأدب والتاريخ والتفسير . ولد ونشأ في القلمون (من أعمال طرابلس الشام) عام ١٢٨٢ هـ (١٨٦٥ م) وتعلم فيها وفي طرابلس . وتنسك ، ونظم الشعر في صباه ، وكتب في بعض الصحف ، ثم رحل إلى مصر سنة ١٣١٥ هـ ، فلزم الشيخ محمد عبده وتلمذ له ، وأصبح مرجع الفتيا في التأليف بين الشريعة والأوضاع المصرية الجديدة . ولما أعلن الدستور العثماني (سنة ١٣٢٦ هـ) زار بلاد الشام ، ثم عاد إلى مصر وأنشأ مدرسة «الدعوة والإرشاد» ثم قصد سورية في أيام الملك فيصل بن الحسين ، وانتخب رئيساً للمؤتمر السوري فيها ، وغادرها على إثر دخول الفرنسيين إليها (سنة ١٩٢٠ م) فأقام في وطنه الثاني (مصر) مدة . ثم رحل إلى الهند والحجاز وأوروبا . وعاد فاستقر بمصر إلى أن توفي عام ١٣٥٤ هـ (١٩٣٥ م) . أشهر آثاره مجلة «المنار» أصدر منها ٣٤ مجلداً ، و «تفسير القرآن الكريم» اثنا عشر مجلداً منه ، ولم يكمله .

(٥٩) علي بن محمد بن إبراهيم الشيعي علاء الدين المعروف بالخازن : عالم بالتفسير والحديث ، من فقهاء الشافعية . ببغداد الأصل ، نسبته إلى «شيحة» بالحاء المهملة ، من أعمال حلب . ولد ببغداد عام ٦٧٨ هـ (١٢٨٠ م) وسكن دمشق مدة ، وكان خازن الكتب بالمدرسة السمساطية فيها . وتوفي بحلب . =

ينسخه ! فتساءلت : هذه الآية من سورة النحل المكية ، أين هي الأحكام التي تنذر المشركون بها لأنها تُسخت بعد أن نزلت وحدث اضطراب في تقرير الأحكام بسبب ذلك ؟ .. لا يوجد .. وهذا الكلام عن سبب نزول الآية ، مُختلق . ولم يوجد أحد من المشركين قال : إن محمداً يقرر حكماً شرعياً ثم ينسخه .. ما وجد .. لأنه ما وجد حكم في مكة تُسخ بآية مكية .. لم يُعرف في تاريخ النزول ولا في تاريخ التشريع أن حكماً نزل في مكة ثم نزل في مكة نفسها حكم ناسخ له . القرآن لم يعرف ذلك ..

فاذاً ، الكلام باطل ، ولا توجد أحكام بطل معناها .. وكل ما هنالك أن هناك عدة آيات تُنظر فيها ، وكان النظر قاصراً مثل قوله تعالى :

﴿ اَلْكَفَّ خَفَّفَ اللّٰهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ اَنْفِكُمْ ضَعْفًا ﴾ (الأنفال : ٦٦)

فالآيات الأولى تأمر بوقوف الواحد لعشرة ، ثم تُسخت بأن يقف لاثنين .. الشيخ الخضري رحمه الله قال : إن هذه رخصة مع عزيمة ، والرخصة مع العزيمة ليست نسخاً .. الحكم الدائم الباقي : أن يقف المسلم لعشرة .. وهو أهل لهذا . أما التخفيف في أن يقف لاثنين هذه رخصة . وهذا هو الحكم الصحيح .

وأما آية :

﴿ عَلِمَ اَنْ لَّنْ نُّخْصُوهُ فَنَابَ عَلَيْكُمْ فَاَقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ اَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَّرْضٰى وَاٰخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْاَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللّٰهِ وَاٰخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّٰهِ فَاَقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ﴾ (المزمل : ٢٠)

التي قيل إنها نسخت أول سورة المزمل ، فهذا غير صحيح لأن سورة المزمل موجهة إلى النبي عليه الصلاة والسلام تفرض عليه أن يقوم الليل ، وقد ظل قيام الليل فريضة عليه إلى أن مات .. وتكرر الأمر في سورة الإسراء :

عام ٨٧٤١ (١٣٤١ م) . له تصانيف ، منها : «لباب التأويل في معاني التنزيل» في التفسير ، يعرف بتفسير الخازن ، و «عدة الأنهام في شرح عمدة الأحكام» في فروع الشافعية ، و «مقبول المنقول» الجزء السابع منه ، وهو في عشر مجلدات ، في الحديث .

﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ، نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ (الإسراء : ٧٩)

المهم ، أن عدداً من الصحابة قلّد النبي عليه الصلاة والسلام في قيام الليل بالصورة التي رُسمت في في أول سورة المزمل . ولكن الله يعلم طبيعة الجماهير التي تكدح في النهار في عملها ، وليست مكلفة برسالة كصاحب الرسالة ﷺ ، ولذلك قال :

﴿فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾

أما صاحب الرسالة ، فالأمر بالنسبة إليه كما هو ، فلا نسخ في الآية إطلاقاً .

والزعم بأن ١٢٠ آية من آيات الدعوة تُسخت بآية السيف ، هو حماقة غريبة دلت على أن الجماهير المسلمة في أيام التخلف العقلي أو العلمي في حضارتنا ، جهلوا القرآن ، ونسوا بهذا الجهل كيف يدعون إلى الله وكيف يحركون الدعوة وكيف يضعون نماذج حسنة للعرض الحسن .. ولعل هذا من أسباب فشل الدعوة الإسلامية ووقوف هذه الدعوة في أيام كثيرة عن أداء رسالتها ، ظنّ أن السيف هو الذي يؤدي واجب التبليغ ! وهذا باطل باتفاق العقلاء .

فقصة النسخ ، أو الحكم بتحنيط بعض الآيات ، فهي موجودة ولكن لا تعمل ، هذا باطل ، وليس في القرآن أبداً آية يمكن أن يُقال إنها عطّلت عن العمل وحُكم عليها بالموت .. هذا باطل .. كل آية يمكن أن تعمل . لكن الحكيم هو الذي يعرف الظروف التي يمكن أن تعمل فيها الآية ، وبذلك توزع آيات القرآن على أحوال البشر بالحكمة والموعظة الحسنة .

□ □ بالنسبة لسياق آية

﴿ مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا ﴾ (البقرة : ١٠٦)

ألا يفيد السياق بأن القضية قضية نسخ شرائع سابقة بشرية جديدة ؟

• السياق قاطع بأنه لا مكان للقول بالنسخ التكليفي هنا .. والشيخ رشيد ذكر هذا الموضوع .. فالكلام في آية :

﴿ مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (البقرة : ١٠٦)

هو كلام عن القدرة وليس عن أحكام تكليفية وإلا قال : (ألم تعلم بأن الله عليم حكيم ، مثلاً بدل « قدير ») .
وقوله تعالى :

﴿ أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سَأَلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ ﴾ (البقرة : ١٠٨)
قاطع في أنه اقتراح آيات كونية . فما الذي سئله موسى من قبل ؟ نريد أن نرى الله جهرة ، نريد كذا وكذا ، فهؤلاء يريدون آيات كونية أو خوارق عادات تثبت البرهنة على رسالة محمد ﷺ ، أما السياق من قبل فهو كلام في بني إسرائيل .
يقول تعالى : (البقرة : ٩١)

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا تَأْتُونَنَا بِمَاءٍ أَنْزَلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ ﴾
بدأ الحديث إليهم بأنهم هم غير مؤمنين ، بما لديهم ولا بما لدى غيرهم ، إلى أن قال جل شأنه :

﴿ مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾
(البقرة ٩١-١٠٥)

فالكلام هنا واضح في أن القرآن الكريم حين نزل ، رحم الله به العرب وخصهم بفضله ، وأعطاهم رسالة جديدة غير الكلام السابق الذي كان الأنبياء الأولون يتلقونه من الله وتؤيدهم فيه رفع الطور أحياناً وما كان يتم من معجزات .
□ □ نزول القرآن، إلى جانب نسخ الآيات الكونية هو نسخ لبعض شرائع أهل الكتاب ..

● القرآن نسخ بعض الشرائع القديمة من غير شك، وبدأ يشكل النفس البشرية من جديد، على طريقته في إيقاظ مواهبها وقيادتها الى الله.. فليس في القرآن تناقض إطلاقاً.. كل آية لها سياقها الذي تعمل فيه..

شمول الرؤية القرآنية: الكون المادي والمعنوي

ولكي أوضح شمول القرآن الكريم ، يجب أن أضرب مثلاً لهذا الشمول يلقي عليه ضوءاً فيتضح المقصود منه . إن القرآن الكريم يُشبه الكون الكبير الذي نعيش فيه . بل إن اعتبار القرآن كوناً معنوياً يضارع الكون المادي الذي خلقه الله سبحانه وتعالى ، لفت نظري في كتاب « نظرات في القرآن » وأشارت إليه ، واستشهدت بقول الله تعالى وهو يُقسم بعظمة الكون على عظمة القرآن :

﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِمَوْقِعِ النُّجُومِ ۖ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لِّتَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ۚ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ۚ فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ۚ تَنْزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (الواقعة : ٧٥-٨٠)

إنه يُقسم بعظمة أحد الكونين على عظمة الآخر .

الكون الذي نعيش فيه ، جعله الله مهاداً لحياتنا وملاً بالقوى الكثيرة والعناصر التي نتفقهها في حياتنا ، ويوجد علماء كثيرون تخصصوا في هذه القوى والمرافق ، وينظر كل منهم إلى الكون من الزاوية التي تعنيه فمثلاً الجيولوجي ينظر إلى الأرض وطبقاتها ، ويضع من علم الجيولوجيا ميداناً لبحثه في هذه الزاوية بالذات ... الفلكي ينظر إلى السماء وما فيها من معجزات ونجوم دوارة أو ثابتة .. ما بينهما علم طبقات الجو أو الفضاء ، له زاوية أخرى ينظر من خلالها علماء .

إن عالم الزراعة ينظر إلى النبات ، وعالم الصناعة ينظر إلى المعادن ، وعالم الأحياء ينظر إلى البشر والدواب والطيور والزواحف .. إن كل عالم من هؤلاء المتخصصين مرّ بالكون من جانب يعنيه ويكثرث به .

لكن ، الكون ليس مقسماً بحسب نظرات هؤلاء العلماء . هم ينظرون إلى الكون

الشامل كله ، ثم يلتقط أحدهم الخيط الذي يعنيه ويبدأ السير معه .. يُقبل من كل عالم من هؤلاء أن يقول : إنه من علماء الكون والحياة .. لكن إذا ظنّ أنه وحده المسؤول أو المتخصص في الكون والحياة ، وأن علم الفلك يُغني عن علم الجيولوجيا ، أو علم النبات يُغني عن علم الحيوان ، أو أن علم المعادن يُغني عن علم الطاقات والقوى ، فإن هذا يكون خلافاً .

ولم يحاول أحد أن يزعم ذلك ، بل تعاون أولئك جميعاً من علماء الكون والحياة على دراسة الكون والاستفادة منه .. وعلى هذا قامت النهضة الأخيرة .

القصور عن إدراك محاور القرآن

القرآن ، أساس للحياة الأدبية في التاريخ الإسلامي ، لا شك أن آيات الأحكام كانت من وراء قيام علم الفقه التشريعي . لكن ، هل القرآن آيات أحكام فقط ؟ أم أنه مجموعات أخرى من الآيات تكوّن كل مجموعة محوراً خاصاً يدور عليه القرآن الكريم ؟ هناك محور القصص القرآني . هناك محور الفطرة الإنسانية .. كان من الممكن جداً أن يقوم علم للفلسفة الإسلامية يستكشف الفطرة على نحو ما فعل صاحب كتاب « حي بن يقظان »^(٦٠) وعلى نحو ما حاول أن يمشي وراءه الشيخ نديم الجسر^(٦١) في كتابه : « قصة الإيمان بين الفلسفة والعلم والقرآن » .. وبلا شك ، فإن هذا النوع من الفكر أو الأساس القرآني ، مهاد صالح لفلسفة إسلامية تمتد بها مدرسة الإسلام الفلسفية القديمة ، امتداداً صالحاً ..

هناك أيضاً العلوم الإنسانية ، خذ منها مثلاً علم التاريخ .. وعلم التاريخ علم

(٦٠) حي بن يقظان هو بطل قصة رمزية للفيلسوف ابن طفيل الأندلسي الذي ولد في قادش بالأندلس وتوفي في مراكش عام ١١٨٥ م . والقصة تتضمن آراؤه الفلسفية وتصور تطور عقل الإنسان تطوراً طبيعياً ليصل إلى أعلى درجات المعرفة ، وليهتدي إلى معرفة الله وخلود الروح ، وكان لهذه القصة أثر كبير على عقول المفكرين والفلاسفة إبان عصر النهضة في أوروبا .

(٦١) الشيخ نديم الجسر ، ولد في جامع طينال بطرابلس لبنان ، وكان مفتياً لطرابلس ولبنان الشمالي ، له مؤلفات عديدة ، أشهرها : قصة الإيمان بين الفلسفة والعلم والقرآن .

مهمل في ثقافتنا على نحو شائن ! ولا أزال أعجب لماذا لم يُدرس التاريخ كبحث وتحليل وراء ذلك المد والجزر في الحياة الإسلامية والدولة الإسلامية والسياسة الإسلامية... والثقافة الإسلامية .. لماذا لم تُدرس أسباب الانكماش حيناً والتضخم حيناً آخر في تاريخنا؟ تساءلت في كثير من الأوقات : هل كان سقوط بيت المقدس يُمكن أن يمر في هدوء مع أنه أساس حرب ظلت لنحو ثلاثة قرون ، دون أن يكون هناك علم يدرس هذه الأحداث الرهيبة في تاريخنا؟ لِمَ هذا الصمت؟ لِمَ تُشيع ثمانية قرون في الأندلس بقصيدة بكاء دون بحوث مستفيضة ومؤتمرات كبيرة لترصد معرفة الأسباب العسكرية والسياسية والاجتماعية والأخلاقية؟

إن قصص القرآن — وآياته أكثر من آيات الأحكام — لم يأخذ امتداده أبداً في حياتنا ، بل هناك من هجا هذا العلم (علم التاريخ) واعتبره علم خرافات .. وهذا شيء عجب !

ومن العلوم الإنسانية الجديدة : علم النفس ، وعلم الاجتماع ، وعلم الأخلاق .. هذه العلوم ، علوم أساسية في الفلسفة الإنسانية ، وهي أساسية في الثقافة الإسلامية ، ومع ذلك لم تأخذ الامتداد المطلوب كما سرى هذا الامتداد في أنواع الثقافة الإسلامية الأخرى .. ألاحظ أن الفقه الإسلامي تحول في العصور الأخيرة ، بعد قرن أو قرنين من الثقافة الإسلامية ، في نمو غير طبيعي ، إلى تصوير أحكام جزئية لا حصر لها ، كما تحول علم الحديث إلى نمو غير طبيعي أيضاً في جمع الأحاديث الواهية .. البخاري ، كل ما فيه : ألفان وبضع مئات من الأحاديث الصحيحة ، وهو أدق الكتب بيقين .. فما الذي جعل عشرات الألوف من الأحاديث تدخل ميدان الترغيب والترهيب ، وتدخل في الثقافة الإسلامية؟ هذا التمدد في خلايا دينية ، كان على حساب العمل الصحيح في فهم القرآن والسنة .. ولذلك وجدنا أن علم الاجتماع عندنا انكمش .. كتب فيه ابن خلدون (٦٢) كتابة جديدة ، لكن من قبله ومن

(٦٢) هو عبد الرحمن محمد بن محمد بن الحسن ، أبو زيد ، الحضرمي ، الإشبيلي الأصل التونسي ثم القاهري ، المالكي ، المعروف بابن خلدون . عالم ، أديب ، مؤرخ ، اجتماعي ، حكيم . وولي في مصر قضاء المالكية ، وأخذ الفقه عن قاضي الجماعة ابن عبد السلام وغيره . ولد عام ٧٣٢ هـ وتوفي عام ٨٠٨ هـ . =

بعده؟.. آيات النظر في الكون والحياة ، وجدنا أعجب ما يقع للناس فيها وهم الحسن بن الهيثم والخوارزمي ، وبعض الذين اشتغلوا بالكيمياء مثل جابر بن حيان وغيره ، هؤلاء كان يمكن أن يتكون منهم مولود شرعي لآيات النظر في الكون لو أن ما أسداه هؤلاء من خير للحياة العملية ، وجد امتداده الطبيعي في الإسلام أو في الفلسفة القرآنية .. وإذا لم تلد آيات النظر في الكون هذه الاتجاهات إلى دراسة المادة ودراسة الكون نفسه ، فما الذي تلده؟ ومع هذا ، فإن خمریات أبي نواس (٦٣) ومجونه ، وجدت في الثقافة الإسلامية متسعاً لم تجده أعمال الذين مضوا مثل جابر بن حيان والخوارزمي وغيرهما من المفكرين !

علم النفس مثلاً ، كنا ندرسه ونحن طلاب في كلية أصول الدين ، لاحظت وعدد من زملائي أن هناك أشياء يمكن أن تدخل علم النفس فيها بالنسبة للثقافة القرآنية .. كنا ندرس نظرية ماكدوجل (٦٤) في الغرائز ، ونظرية الغرائز كما وضعها ماكدوجل ، أهملها علماء نفس جاءوا بعده ، وبنوا السلوك الإنساني على قواعد أخرى غير التي بنى عليها .. أنا لا يعني ما صنعه الآخرون ، وإنما يعني ما صنعناه نحن ، ونحن ندرس هذه الغرائز .. الغريزة يكون فيها دائماً وجدان أو انفعال وجداني ، والعاطفة تكون مفردة أو مزدوجة أو مركبة من عدة انفعالات .. فكنت أتحدث مع زملائي أن الخوف عنصر في غريزة من الغرائز الإنسانية ، هو عنصر بسيط ، إذا انضم إليه غيره ، أخذ صفة أخرى .. فمثلاً : انفعال الخوف مع غريزة التعجب يُنتج الإعجاب .. وبدأنا ندرس قرآنيات على هذا الأساس .. فلاحظنا أولاً : أن عناصر الشعور الثلاثة : الإدراك ، والوجدان ، والنزوع ، وجدت في قوله تعالى :

﴿لَوْ أَطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعبًا﴾ (الكهف : ١٨)

من تصانيفه : «العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر» و «تاريخ ابن حلدون» و «شرح البردة» .

(٦٣) شاعر عباسي ، ولد عام ٧٥٦ م وتوفي عام ٨١٤ م ، اشتهر شعره بالخمریات .

(٦٤) ماكدوجل McDougall ، عالم نفس بريطاني ، ولد عام ١٨٧١ م وتوفي عام ١٩٣٨ م .

وجدنا أن ما يشد العقل الباطن موجود فيما روته عائشة رضي الله عنها أنها قالت : قال لي رسول الله ﷺ : « إني لأعلم إذا كنت عني راضية ، وإذا كنت عليّ غضبى » قالت : فقلت : ومن أين تعرف ذلك ؟ قال « أما إذا كنت عني راضية فإنك تقولين : لا ورب محمد ، وإذا كنت غضبى قلت : لا ورب إبراهيم » قالت : فعلت أجل .. والله يا رسول الله ما أهجر إلا اسمك .. (٦٥) .. هذا نوع من معرفة العقل الباطن للمرأة أو للإنسان عامة .

المهم ، نحن في دراستنا للقرآن ، كان في الإمكان ، قديماً وحديثاً ، أن نكون كالذين درسوا الكون المادي : هناك علماء جيولوجيا في الأرض ، هناك علماء فلك في السماء ، علماء ظواهر جوية .. هناك علماء كثيرون ، ما فرض أحدهم منطقته على الآخر ، فليس لعالم الفلك أن يفرض على عالم الجيولوجيا منطقته في الفهم وتقرير الأحكام .. لكن ، عندنا ، وجدنا أمة القرآن أصيبت بإصابات جسيمة عندما حاول الفقهاء وحدهم أن يفرضوا أنفسهم بفقهاء الفروع وتوسعاته على الثقافة الإسلامية كلها ، فضمرت العلوم الإنسانية ضموراً شديداً ، كما ضمرت العلوم الكونية ، كما ضمرت أنواع أخرى من المعرفة .. والقرآن فيه هذا الشمول الذي يلد المعارف كلها التي نحتاج إليها .

شمولية القرآن ، كشمولية الكون .. فعندما أذهب إلى حديقة من الحدائق ، يعني إذا كنت عالم نبات الزهور وما يتصل بها .. لكن ، الكون يعرض نفسه كلاً ، لا يتجزأ .. فما يعني آخذه ، وما يعني غيري من علماء التغذية وغيرهم يجده في الكون لأن الكون مكتمل في أصله الذي يُعرض به على الناس ..

وكذلك القرآن الكريم ، فإننا نجد أن الآيات تُقرأ ، وكل مشغول بناحية من المعارف القرآنية يستطيع أن يأخذ ما يعنيه ، كما قال الشاعر :

(٦٥) الحديث متفق عليه ، رواه البخاري في صحيحه ، كتاب النكاح ، باب غيرة النساء ووجدهن ، ورواه مسلم في صحيحه ، كتاب فضائل الصحابة ، باب في فضل عائشة رضي الله تعالى عنها .

ولكن تأخذ الأفهام منه على قدر القرائح والعقول

شمولية القرآن ، أصيبت ، إذ فرض عليها نوع معين من علوم الدين هو الفقه .. أما آيات النظر ، فلم تأخذ امتدادها لتكون علماً إنسانياً في التاريخ وما يتصل به .. آيات كثيرة في القرآن الكريم وفي محاوره التي تُدرس ، لم تأخذ امتدادها لتكون الثقافة الإسلامية الصحيحة .. وهذا ما ينبغي أن نستدركه في ثقافتنا الحديثة ..

ويمكن اعتبار أكثر ما أصاب هذه الشمولية القرآنية من انحراف كان في أيام الاضمحلال العلمي للأمة الإسلامية .. أما سلفنا الأول ، فقد تفتحت لهم زهور كثيرة في علوم كثيرة .. والحضارات تبدأ بعد الاستقرار .. تفتحت هذه العلوم ، لكن سرعان ما ضعفت مع الانحراف الذي أصاب السياسة الإسلامية أو الثقافة الإسلامية .. وأرى أن ما ذكره الدكتور راشد المبارك في هذا الموضوع ، فيه إشارة تعطي الفكرة التي نريدها .

القرآن فتح النوافذ أمام النظر العقلي

فالواضح أن الإسلام إطلاق للعقل لا حجر عليه ، وإعمال له لا تعطيل لوظائفه .. فقد جاء القرآن دعوة إلى قراءة كتاب الكون ، وتأمل أسرارهِ وسننه ، وحث الفرد على التأمل داخل نفسه وخارجها للوصول إلى تعاون أفضل مع بني جنسه ، وفهم أتم لوحداث الكون وطبيعة المادة. ولكن الإصابات السابقة التي أشرت إليها والتي أحدثت في ثقافتنا نمواً غير طبيعي من تضخم المرويات الواهية ، وتضخم الأحكام الفرعية في الفقه ، والذبول في علم الكون والحياة بموت المكتشفين والرواد الأوائل الذين ذكرنا أسماءهم في الكيمياء والفيزياء والرياضيات وما إلى ذلك ؛ هذا كله كان سبباً في انحسار واضح في الجوانب الأخرى من الشمولية القرآنية . وتكونت نظرة دونية إلى من يشغل نفسه بمجال من المعرفة في غير الوجهات السابقة .. وانعكست هذه النظرة إلى واقع وممارسة ، فليس من المصادفة أن رجلاً

مثل سيف الدولة (٦٦) الذي يهب المئات والآلاف من الدنانير لقصيدة تقال ، يرى أن أربعة دراهم في اليوم ، كافية لمطالب الفارابي (٦٧) ، وأن يعاني الكندي (٦٨) ظروفاً أليماً لا اعتزال الناس ، وأن يقضي الحسن بن الهيثم بقية عمره كاسباً قوته من نسخ الكتب .. ولعلنا نجد في ذلك المناخ التفسير لحقيقة كثيفة وهي أن ما وجّه من جهد للمجالات الأخرى التي لا تدخل في صناعة الكلمة مثل الاقتصاد والسياسة والاجتماع ، لا يتناسب مع طبيعة ما تقتضيه هذه المجالات ، وأن ترى العلوم التجريبية والنظرية تكاد تبتدأ وتنتهي بالأوائل من واضعها ، وأن يكون كتاب « أبو يوسف » في « الخراج » أهم ما وضع في بابه .. لقد ابتدأت الكيمياء وانتهت ، أو كادت بجابر .. ولم يُعرف عمل يوازي عطاء الخوارزمي في الجبر .. ولم يتقدم علم البصریات .. الخ .

(٦٦) سيف الدولة الحمداني ، هو علي بن عبد الله بن حمدان ، الأمير ، صاحب المتنبي وممدوحه ، ولد عام ٣٠٣ هـ (٩١٥ م) في ميفارقين بديار بكر ، وملك واسطاً ودمشق وحلب حيث توفي فيها عام ٣٥٦ هـ (٩٦٧ م) .

(٦٧) محمد بن محمد بن طرخان بن أوزلغ ، أبو نصر الفارابي ، ويعرف بالمعلم الثاني : أكبر فلاسفة المسلمين . تركي الأصل ، مستعرب ، ولد في فاراب (على نهر جيحون) عام ٢٦٠ هـ (٨٧٤ م) وانتقل إلى بغداد ، فنشأ فيها ، وألف بها أكثر كتبه . ورحل إلى مصر والشام ، واتصل بسيف الدولة ابن حمدان . وتوفي بدمشق عام ٣٣٩ هـ (٩٥٠ م) . له نحو مائة كتاب ، منها : «الفصوص» و «إحصاء العلوم» و «آراء أهل المدينة الفاضلة» و «إحصاء الإيقاعات» و «المدخل إلى صناعة الموسيقى» .

(٦٨) يعقوب بن إسحاق بن الصباح الكندي ، أبو يوسف : فيلسوف العرب والإسلام في عصره ، وأحد أبناء الملوك من كندة . نشأ في البصرة . وانتقل إلى بغداد ، فتعلم واشتبر بالطب والفلسفة والموسيقى والهندسة والفلك ، وألف وترجم وشرح كتباً كثيرة ، يزيد عددها عن ثلاثمائة . ولقي في حياته ما يلقاه أمثاله من فلاسفة الأمم ، فوشى به إلى المتوكل العباسي ، فضرب وأخذت كتبه ، ثم ردت إليه . وأصاب عند المأمون والمعتصم منزلة عظيمة وإكراماً . من كتبه : «رسالة في التنجيم» ، و «اختيارات الأيام» و «تحاويل السنين» و «إلهيات أرسطو» و «رسالة في الموسيقى» و «الأدوية المركبة» وغيرها . توفي عام ٢٦٠ هـ (٨٧٣ م) .

الدور المفقود للعلوم الاجتماعية والإنسانية

□□ قد يهمننا لفت النظر إلى وجه آخر للقضية .. لا شك أن تحسيس الأمة بهذا التقصير وما لحق بها من الانحسار في ميدان العلوم الاجتماعية ، والامتداد بعلوم الفقه التشريعي وفرعياته وما إلى ذلك ، يقع ضمن مرحلة من التيقظ ؛ أي يعطي الصحو ، أو المسلمين شعوراً بالمسؤولية ، وينبههم إلى آفاق يجب أن يبصروها ليعيدوا عملية التوازن المفقود في ثقافتهم .. لكن ، لو عرفنا بعض الأسباب التي أدت بنا إلى هذا الواقع ، قد يكون من المفيد ، خاصة وأنا اليوم ، لا نزال نرى امتداداً لهذه الأسباب .. فكثير من العلماء ، والمؤسسات الشرعية ، وعلماء الدين ، والدارسين ، يجدون الأسهل عليهم أن يتخصصوا بالفقه وأصوله ، ويأخذوا مما كتبه الأقدمون ويختصرون ، ويشرحون ، وما إلى ذلك .. كان التوجه إلى القضية لأنها أصبحت هي الأسهل ، من أن ينظروا ، ويكتشفوا ، ويستنتجوا في آفاق جديدة تقوم على التأمل والنظر . وهي في الوقت نفسه معرضة للخطأ والنقد ، ويشكل هذا عملية شاقة الآن ، وقد لا يحسنها إلا النفر القليل ، ويعزف عنها الكثير .. لذلك يزداد التراكم ، ويزداد التخلف ، ويزداد الامتداد في قضية كان امتدادها في الأصل غير طبيعي .. وتتضاءل فرص الإبداع ، وتغيب شروط النهوض .

فلماذا كان الامتداد في القضية الفقهية فقط ، وأهملت بقية القضايا القرآنية في الكتاب والسنة؟

● الذي أشعر به من قديم : أن فساد الحكم في العالم الإسلامي له جذور ضاربة في التاريخ ، وأن سطوة الحكم الفردي كان من وراء ، لا أقول ضمور الدراسات القرآنية ، بل من وراء ضمور الفقه نفسه .. فالفقه تضخم حيث يجب أن يكون ضعيفاً .. الفقه الدستوري هو الذي جعل الأوروبيين يبحثون وراء سلطة قضائية ، وسلطة تشريعية ، وسلطة تنفيذية ، أو هو الذي جعلهم يبحثون عن العقد الاجتماعي بين الحاكم والمحكوم؛ هذا الكلام يكاد يكون ميتاً عندنا بعد الخلافة

الراشدة ، لأن سطوة الحكم هي التي ألجمت الأفواه ، وجعلت الكلام في فقه العبادات يبدئ ويعيد ، وجعلت الكلام في كل ما يبعد عن الحاكم ..

□□ الملاحظ أن الفقه عندنا تحول إلى نطاق الفقه الفردي ، وغاب الفقه المؤسسي بأبعاده المطلوبة ، والدولة هي مؤسسة المؤسسات ..

● وإلى الآن ، فقه العمل والعمال يُستورد من الخارج ، للأسف .. فقه الإدارة والفقه الدولي والدستوري ، يكاد يكون وجودنا فيه إلى الآن صفراً .. ومع أن تلامذة أبي حنيفة هم أول من كتب في الفقه الإداري والفقه الدولي ، ومع أن رجالاً من أئمتنا منهم ابن تيمية نفسه ، تحدثوا حديثاً عظيماً في شمولية القرآن بالنسبة إلى المنطق والسياسة ، إلا أن واحداً كابن تيمية ، قضى حياته في السجون .. والذين يريدون أن يشتغلوا بالإصلاح ، إذا وجدوا أن السجن هو الذي يقضون به حياتهم ، فإن عدداً كبيراً منهم سيبقى بعيداً عن المخاطرة .. الناس ألفت أن تعيش حيث وجدت حفاوة الجماهير ، أو أوقاف الخير تدر عليهم ليعيشوا بها..

□□ هذا صحيح .. لكن إلى حد بعيد هنالك بعض الآفاق في العلوم الاجتماعية والنفسية قد لا يكون لها اصطدام مباشر مع السلطة السياسية ، وكان يمكن أن تحقق أبعاداً كثيرة من الدراسات دون أن تعني الاصطدام بالسلطة والنظام السياسي .. مع ذلك بقيت ضامرة ، ولم تحقق البعد المطلوب أو الموازي للدراسات التشريعية ؛ مع أن القرآن الكريم اعتبرها وسيلة لا بد منها لتحقيق الشهود الحضاري (الشهادة والقيادة) ..

● الدكتور راشد المبارك، له رأي في هذا: وهو أن العرب اشتغلوا بصناعة الكلمة، أكثر مما يشتغلون بالنواحي الفنية ، والنواحي الفكرية ، والفلسفية ، وهذا جعلهم ينحرفون بكثير من الدراسات المهمة عن طبيعتها ، حتى الدراسة القرآنية . وهو يقول إن دلائل الإعجاز — وكان الكلام في بيان عظمة القرآن — ما كاد يبرز حتى اختفى ، وما ألفت فيه ، شيء يعد على الأصابع بينما ألفت مئات الكتب في فروع

الفقه العبادي والفروع العلمية قليلة الجدوى.. وفروع الفقه لا تتعدى فروع العبادات في المساجد، ولا تتعدى المعاملات في الأسواق العامة.. وحتى الأدب، فقد وجدنا أن الأدب خرج عن الطبيعة القرآنية..

والقرآن موجود بيننا، وقد مضى بالأمة العربية إلى آفاق بعيدة جداً.

قصوري إدراك الفكر القرآني

وكان أبعد شيء عن الفكر القرآني أن يتحول الأدب إلى مدائح للأفراد أو الحكام.. هذا أبعد شيء عن الفهم القرآني. فما الذي جعل الأمة العربية تنتهي إلى ما انتهت إليه؟ أبو تمام^(٦٩) وهو شاعر فحل، والبحثري^(٧٠)، والمتنبي^(٧١) نفسه، وهو حكيم العرب؛ ما الذي جعل أمثال هؤلاء يتجهون إلى المديح؟ إنها سطوة الحكم.. لا شك أن سطوة الحكم كان لها أساس في إفساد الفكر..

وهناك الاختيار الذي دخلنا به حديقة الأدب الجاهلي — وأنا أسميها حديقة الأدب الجاهلي لأنني جُستُ خلالها كثيراً أنا لا أدري حقيقة ما قيمة معلقة مثل معلقة امرئ القيس^(٧٢)؟ هي نوع من المجنون الهابط.. والكلام الذي يذكره الرجل كلام من نوع الأدب المكشوف..

مثلاً كلمة عروة بن الورد: ^(٧٣)

-
- (٦٩) شاعر عباسي، توفي عام ٨٤٥ م، تميز شعره بالتجديد في المعاني.
- (٧٠) شاعر عباسي، ولد عام ٨٢١ م وتوفي عام ٨٩٧ م، تميز شعره بحسن الديباجة وروعة الوصف.
- (٧١) هو أبو الطيب أحمد بن الحسين المتنبي، ولد عام ٩١٥ م وتوفي عام ٩٦٥ م، ويعد من أشهر شعراء العربية.
- (٧٢) الشاعر الجاهلي الشهير بمعلقته، ولد عام ٥٠٠ م وتوفي عام ٥٤٠ م، تميز شعره بدقة الوصف، وبراعة الغزل.
- (٧٣) عروة بن الورد بن زيد العبسي، من غطفان: من شعراء الجاهلية وفرسانها وأجوادها. كان يلقب بعروة الصعاليك، لجمعه إياهم، وقيامه بأمرهم إذا أخفقوا في غزواتهم. قال عبد الملك بن مروان: من قال إن حاتمًا أسمع الناس فقد ظلم عروة بن الورد. له ديوان شعر شرحه ابن السكيت. توفي نحو عام ٣٠ قبل الهجرة (٥٩٤ م).

دعيني أطوف في البلاد لعلني أفيد غنى فيه لذي الحق محمل
أليس عظيماً أن تلم مُلمّة وليس علينا في الحقوق معول

هذان البيتان — في نظري — يجعلان قصيدة امرئ القيس كلها لا تساوي شيئاً . الاختيار كان رديئاً .. في اختيار الأدب العربي ، أجد نواح إنسانية برزت في شعر الصعاليك العام وغابت في شعر المعلقات .. وكثير من الشعر الذي اختاره أبو تمام في الحماسة ، وغيره كابن الشجري^(٧٤) ، فيه نواح إنسانية عظيمة .. لكن ، لماذا اختفت هذه وظهر في الأدب المديح فقط ؟

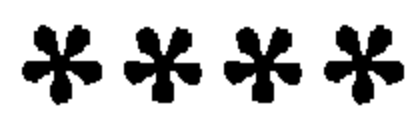
نحن لا نريد أن ندافع عن شيء باطل في تراثنا .. إنما يجب أن نتعلم من كتابنا .. فالقرآن ليس فقط كتاب علم ، هو كتاب أدب . وكان ينبغي أن يكون الأدب القرآني نسقاً يحتذى ، في الأهداف الإنسانية التي وجه إليها .. ما تحدث في العدالة الاجتماعية إلا الصعاليك .. ما تحدث في الطبيعة البشرية وتكلم فيها بشيء من الأناة والبصر ، إلا ناس مجاهيل .. لقد استغربت أن يضع أبو تمام في ديوان الحماسة في باب الهجاء هذه الأبيات الثلاثة :

دربت للمجد والساعون قد بلغوا جهد النفوس وألقوا دولة الأزرا
فكأبروا المجد حتى ملّ أكثرهم وعانق المجد من أوفى ومن صبرا
لا تحسب المجد تمراً أنت آكله لن تبلغ المجد حتى تلعق الصبرا
إذا لم توضع هذه الأبيات في باب التربية ، وفي باب الأدب ، فأين توضع ؟ أيجوز أن توضع في باب الهجاء .

(٧٤) هبة الله بن علي بن محمد الحسني ، أبو السعادات ، الشريف ، المعروف بابن الشجري : من أئمة العلم باللغة والأدب وأحوال العرب . مولده ووفاته ببغداد . كان نقيب الطالبين بالكرخ . من كتبه « الأمالي » في جزئين ، أملاه في ٨٤ مجلساً ، و « الحماسة » ضاهى به حماسة أبي تمام ، و « ديوان شعر » ، وكتاب « ما اتفق لفظه واختلف معناه » و « شرح اللمع لابن جني » و « شرح التصريف الملوكي » . وكان حسن البيان حلو الألفاظ . نسبته إلى « شجرة » وهي قرية من أعمال المدينة . ولد عام ٥٤٥٠ هـ (١٠٥٨ م) وتوفي عام ٥٥٤٢ هـ (١١٤٨ م) .

هناك أمور لا بد من النظر إليها ونحن على أبواب صحوة نستطيع أن نتعرف كيف تكون الفنون التي تداعب العاطفة وتوقظ الوجدان ، كما نستطيع أن نضع أقدامنا على دروب الحياة التي تتعامل مع الكون ، وكتابنا هو الكتاب السماوي الوحيد الذي تحدث عن الكون ، حتى أن رجلاً ليس من علماء الدين ولا صلة له بالثقافة الإسلامية في صدر حياته مثل العقاد ، يكتب : « التفكير فريضة إسلامية » ! وحتى أن مثل هذا ينظر فيه الدكتور راشد المبارك فيقول : هناك ظاهرتان : « الظاهرة الأولى : هي أن مادة فكر لم تكن ذات تكرار ، بل ليس لها ورود في أكثر ما وصل إلينا من التراث الجاهلي شعره ونثره . ومع الإدراك التام أن عدم وجود هذه المادة لا يعني انتفاء ورود مدلولها ، أو إعمال هذا المدلول ، إلا أن ذلك لا يكفي لاسقاط الدلالة في تلك الظاهرة ، أو استشكالكها ، ما دامت اللغة هي وعاء الفكر مكتوباً أو ملفوظاً .

الظاهرة الثانية : تكرار ملفت للنظر لمادة فكر ، بلفظه أو معناه ، حيث وردت هذه المادة بصيغة الماضي أو المضارع في نحو ثمانية عشر موضعاً ، وجاءت الدعوة إلى النظر بمعنى الفكر والتأمل في أكثر من أربعة وثلاثين موضعاً (٧٥) .. وقلت إنني أحصيت كلمة « أولي الألباب » في القرآن في ستة عشر موضعاً .. والعقاد بدأ كتابه « التفكير فريضة إسلامية » بنحو قريب من الثلاثمائة آية عن : العقل ، ووظائفه ، وأوصافه ، وأساليبه في الفهم والاستدلال .. فلماذا أدع هذا كله وأمشي مع أوهام الذين ورثوا من الماضي أسوأ ما فيه وتركوا أعظم ما فيه ؟



(٧٥) الدكتور راشد المبارك « من صور الجذوة والخمود في فكر المسلمين » - العربي (الكويت) .
- ع ٣٥٩ (أكتوبر ١٩٨٨ م) .

غيب المنهج القرآني

□□ يعلل بعضهم الظاهرة : بأن العرب أو المسلمين ، ما عرفوا المنهج الاستقرائي ، وإنما عرفوا المنهج الاستنتاجي أو الاستنباطي ، وهذا المنهج عمل عمله في الفقه ونموه لأنه أقرب في طبيعته إلى القياس الفقهي ، ولم يستطع أن يعمل عمله في آفاق المعرفة الأخرى .. أي أنهم يستدلون من نمو الفقه على أن العرب كانوا عاجزين عن إدراك المنهج الاستقرائي الذي يمكن أن يحقق لهم كسباً في مجال العلوم الإنسانية ، وأن الفقه هو ثمرة للمنهج الاستنباطي أو الاستنتاجي ..

• أنا أخالف في هذا ، لأني كما قلت : أجد فقها اتسع حيث كان ينبغي أن ينكمش ، وانكمش حيث كان ينبغي أن يتسع .. ثم أن منهج الاستقراء والملاحظة والتجربة ، منهج قرآني مائة في المائة . أما فكرة الاستنتاج كما صورها المنطق الإغريقي فهي الفكرة التي تأثرنا بها للأسف ، وقد كتبت في آخر كتاب لي ، ألوم المسلمين لوماً شديداً : لماذا ترجموا الفلسفة الإغريقية ؟ لقد كانوا مخطئين في هذه الترجمة ، وأسأوا إلى كتابهم .. وكتابهم كتاب عالمي ، وكان عليهم ، بدل أن يستوردوا فكر الآخرين ، أن يترجموا الفكر القرآني إلى لغات الأرض .. كان هذا هو الواجب ..

أما ما هي الفلسفة الإغريقية ، فكر أرسطو^(٧٦) .. وهو فكر فيه منطق .. ومنطق أرسطو منطق موضعي لا يتحرك إلى الأمام ، ولا يستكشف مجهولاً ، لذلك رفضه رجال عصر النهضة في أوروبا لما تأثروا بالمنطق القرآني في الاستنتاج والملاحظة والاستقراء . أما منطق أرسطو فهو منطق — كما قيل — قد يكون ترتيباً لمعلومات موجودة وليس إيجاداً وكشفاً لمعلومات جديدة ..

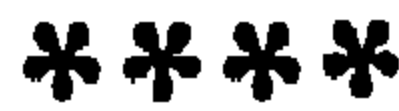
لماذا لا نقول : أخطأنا ؟ وإذا كان هناك خطأ ، فما المانع في أن نستدركه ؟

(٧٦) أرسطو Aristotle فيلسوف يوناني ، ولد عام ٣٨٤ قبل الميلاد ، وبعد واحداً من أشهر الفلاسفة حتى الآن ، توفي عام ٣٢٢ قبل الميلاد .

□ □ التعرف على الأخطاء أمر طيب.. لكن المطلوب: تحديد الأسباب التي أوصلت إلى تلك الأخطاء حتى يمكن معالجتها مستقبلاً.. ما في شك أن الاستبداد السياسي والحكم كان هو العامل الرئيسي، لكن أليس خطيراً أن تبقى القضية بدون علاج حتى تنشأ عنها كل هذه الآثار المدمرة، وكيف يستقيم هذا في واقع الأمة المسلمة، والأمة معصومة بعمومها عن التواطؤ على الظلم؟

● محاولة إصلاح الحكم عندنا، تأثرت بعقدة صفين أولاً.. وتأثرت، ثانياً: بما شاع من أحاديث وأحكام كثيرة تسوغ الظلم وتجعل الخروج على الحكم كأنه الكفر.. أو دونه الكفر.. وهذه مسألة خطيرة في تاريخنا.. بينما وجدتُ الإنجليز صححوا مسار الحكم عندهم بقتل الملك، وعملوا «الجننا كارتا» (٧٧)، واستقرت الديمقراطية عندهم.. الفرنسيون فعلوا الشيء نفسه: قتلوا لويس (٧٨).. أنا لا أدعو للقتل؟ إنما عندما تكون الشعوب في سجن وضعها فيه الحاكم، فمن حقها أن تكسر السجن، وتقتل السجّان.

عندنا أحاديث كثيرة، أكثرها ضعيف أو موضوع — للأسف — جعلت الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يدخل في نطاق ضيق محدود حتى لا يتجاوز هذا النطاق للمساس بالحاكم أو الحكم.. فالمسألة: لا بد من أن نقول: هذا خطأ.



(٧٧) تعرف في الانجليزية Magna Carta أو Great Charter أي الدستور العظيم الذي منحه الملك جون للإنجليز عام ١٢١٥م، متضمناً الاعتراف بحقوق النبلاء، والكنيسة، والمواطنين الأحرار.

(٧٨) لويس السادس عشر، ملك فرنسا، ولد عام ١٧٥٤م، حكم من عام ١٧٧٤ حتى عام ١٧٩٢م، في عهده نشبت الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩م، وأعدم عام ١٧٩٣م.

التدرج في العودة إلى الأحكام القرآنية

□□ إن قضية النسخ وتعطيل بعض الأحكام وتقطيع الرؤية الشاملة ، وما إلى ذلك ، تفودنا إلى قضية أخرى وهي : قضية التدرج ، أو ما يمكن أن نسميه : سنة التدرج. والذي نقرأه عند علمائنا في ذلك هو: الاقتصار على بحث التدرج في التشريع ويأتون لذلك بمثال عن تحريم الخمر .. وتغيب سنة التدرج في : العقيدة ، والعبادة ، والدعوة ، وتهمل كل المعاني التربوية لسنة التدرج ..

والقضية المطروحة :

أن الأحكام الفقهية إنما جاءت جواباً وعلاجاً لمشكلات وحالات كان عليها الناس قبل أن يتهيأوا للانتقال إلى المرحلة التالية .. فهل بالإمكان أن تُعمل هذه الآيات وتلك الحلول لمواجهة الحالات المماثلة ، على الرغم من استقرار الحكم النهائي ؟
بمعنى آخر :

الحكم المرحلي ، كان بالنسبة للصحابي يُشكل حكماً نهائياً للمرحلة التي كان فيها ضمن المرحلة ذاتها حتى يهيأ للمرحلة التالية .. أما نحن فنرى الحكم النهائي حيث استقر المجتمع المسلم الأول ، فهل يمكن لنا أن نستخدم الحكم المرحلي : تربوياً ودعواً مع استصحابنا وإيماننا بضرورة الوصول إلى الحكم النهائي في نهاية المطاف ؟ أم لابد من تقرير الحكم النهائي، ولو كانت الحالة تقتضي حكماً مرحلياً ؟

وهل يمكن للمجتمع والفرد الذي ينسلخ عن الإسلام لفترات طويلة أن يعود فجأة ؟

وهل يمكن أن نخاطب بالإسلام مجتمعات غير إسلامية أصلاً ، بالحكم النهائي دون تمريرها بمراحل التهيؤ ؟

وهل لنا أن نطرح اليوم إمكانية التدرج في التطبيق والتنزيل على الواقع ، حيث أننا لا نمتلك التدرج في التشريع ؟

● في الدعوة إلى الله ، أنا مضطر أن أنظر مواقف الخصوم الذي يواجهونني بمعتقداتهم المضادة لي . أنا لاحظت أن الكنيسة وهي ضد تعدد الزوجات ، تسامحت في هذا الموضوع وهي تعرض المسيحية على زنوج أفريقيا ، ورأت بأن حكمها بعدم التعدد ، يمكن أن يتحقق بعد جيل أو جيلين ، وتتغاضى الآن عن الجيل القائم بحيث أنها تستدرجهم للمسيحية ، ثم تبدأ تعلمهم المسيحية الكاملة ، وهو ما يمكن أن يسمى التضحية بشيء من الحاضر في سبيل المستقبل ، أو ما سماه بعضهم : سياسة الدعوة .

في الحقيقة ، أنا متردد في الحكم بشيء معين في هذا الموضوع ، لأني إذا نظرت إلى أوروبا مثلاً وجدت الخمر على كل مائدة هناك . ومع أن القوم يعلمون أضرار الخمر بل يتجهون إلى التحريم ، ويعرفون أضرار التدخين ويتجهون إلى التحريم لكن بطرق تحتاج إلى تأمل . فالإعلان عن السجائر ، كما نرى الآن ، معه إعلان محتوم نشره بأن التدخين ضار بالصحة .

وفي نظري ، لولا أن المسيحيين لا يريدون أن يأخذوا حكماً إسلامياً ، لأمروا بتحريم الخمر ، لأن الخمر يجتنبها كثير من الرجال العقلاء في كثير من البلاد ، أو قيدوا شربها أثناء القيادة ، لأنهم يعرفون أن أخطار الطريق أغلبها من السكارى .. حوادث الإجرام والحوادث الأخلاقية أغلبها من السكارى .. فساد الآلات في المصانع أغلبها من السكارى .. هم يريدون تحريم الخمر ، ولكنهم يكرهون أن يأخذوا حكماً من الإسلام ، مثل تعدد الزوجات ، كانوا يتمنون لو أبيح هذا عندهم ، لكن كرههم للإسلام جعلهم — في أوروبا — يرفضون هذا .

أنا أريد أن أعرض الإسلام ، ومن الممكن أن أضغط ابتداءً لأبرز شيئاً واحداً وهو التوحيد ، ضد التثليث وضد الشرك .. إنسانية محمد العظيم ﷺ الذي افترى عليه الأفاكون بما لا يليق ، ونسبوا إليه أكاذيب لا حصر لها ..

هذان الأمران يمكن أن أعرضهما عرضاً لا هوادة فيه .. ممكن أن أتكلم عن الصلوات والزكوات وأنا مطمئن لأن الطهر البدني عندنا هو الفطرة التي يعيش بها

هؤلاء أو يريدون الوصول إليها . ولعل أجسامنا — أجسام المؤمنين عندنا — أفضل من أجسامهم من هذه الناحية .. لكن ، مسألة الخلافات التي يحتاج حلها إلى وقت ، أنا أريد في هذا أن أنظر إلى الفقه عندنا ، والأحوال عندهم . ولا ألجأ إلى ما يسمى بالتدرج لأنه لا حاجة لي بذلك بل إلى حسن الاختيار من الأحكام عندنا بما يلائم الحال . فمثلاً ، الأئمة الثلاثة عندنا يرون أن المرأة لا تعقد بنفسها على نفسها . وأبو حنيفة وحده هو الذي يقول : من حق المرأة أن تعقد زواجها بنفسها .. أرى من المصلحة عرض مذهب الأحناف ..

وإذا كان للأحناف رأي في أن الخمر تحرم بشرطين : القليل والكثير من العنب مسكر عندهم ، وما يسكر مما عداه ، إذا كانت الفتوى هذه ممكن تجعلني استولي على عدد من الجماهير ، ولو أتي حنفي وأضيق بهذه الفتوى ولا أحبها ، ولكني إذا كنت سأكسب بها جمهوراً في فرنسا وغيرها ، فأنا استعملها مؤقتاً ، ولا حاجة لي أن ألتزم بالمذاهب الثلاثة الأخرى ..

هناك أحكام ربما يرفضها العقلاء عندنا وعندهم مثل ما قلته من أن القاتل إذا كان مسلماً ، والقتيل من أهل الكتاب أو من أهل الذمة ، لا بد أن يُقتل فيه ، وهذا رأي الأحناف ، فأخذ به وأعرضه وأتوقف في عرض رأي الأئمة الثلاثة ..

أخذ مثلاً برأي مالك في أن الأصل يُقتل في فرعه .. آخذ بآراء كثيرة .. مثلاً : العورة وتحديداتها ، مذهب مالك يرى أن العورة قسمان : عورة مخفية وعورة مغلظة .. فما الذي يجعلني ألتزم بالمذاهب الأخرى ، هناك عندهم ، كأسلوب في الدعوة ؟

أي ، هناك أمور يمكنني أن أختار الأنسب للبيئة هناك .. إني لا أستطيع عرض الإسلام الآن على أساس أن أترك شارب الخمر يشرب وهو لا يدري أن هذا الأمر حرام .. ليس عندي في القرآن الكريم أي نص بإباحة الخمر ، إنما عندي تطبيق للتحريم يمكن أن يتدرج .. — كأن المقصود بالسؤال هو التدرج في التطبيق وليس الإباحة ، فالحكم واضح — الآن أعمل عقوبات تعزيرية ، ولا أقيم ما يسمى بحد الخمر ، لأن الحد نفسه تعزيري ، وجاء بطريق المصالح المرسلة ولم يحىء بطريق النص .

ففقهني هنا ، فيه متسع لكثير مما أرى أنه يصلح للحياة العامة على امتداد الأرض ..

□ □ كأسلوب في الدعوة؛ الأمر لا بد له من شيء من الفقه لانتقاء الحكم الذي يناسب الحالة.. المطلوب نوع من فقه الدعوة أو سياسة الدعوة.. لكن، الذي أقصده شيئاً آخر، وهو: إننا نحن الآن عندنا قناعة كاملة، وأتينا بالخمير كمثال لأن التدرج صار بالتشريع، وصار بغيره، من العقيدة والعبادة، نلمحه عندما أرسل الرسول ﷺ معاذاً إلى اليمن، قال رسول الله ﷺ لمعاذ بن جبل: «إنك ستأتي قومًا أهل كتاب، فإذا جئتهم فادعهم إلى: أن يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، فإن هم أطاعوا لك بذلك، فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة، فإن هم أطاعوا لك بذلك، فأخبرهم أن الله فرض عليهم صدقة، تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم، فإن هم أطاعوا لك بذلك، فإياك وكرائم أموالهم، واتق دعوة المظلوم، فإنه ليس بينه وبين الله حجاب»^(٧٩).

نحن ، كمسلمين الآن ، نتعامل مع مجتمعات ليست إسلامية ، ليس مجتمعنا اليوم هو المجتمع الأول حيث استقر الحكم النهائي الذي نزل فيه القرآن .. القرآن كتاب جاء ليخاطب البشرية كلها .. في ذهننا اليوم ، قائم الحكم النهائي الذي يجب أن نصل إليه في نهاية المطاف ، ولا يجوز أن نعدل عنه لأننا لا نملك أن نعدل عنه ، فليس الأمر موضع خيار بالنسبة لنا .. الخمر حرام ، والله سبحانه وتعالى قال :

(٧٩) رواه البخاري — باب أخذ الصدقة من الأغنياء وترد في الفقراء حيث كانوا.

ومعاذ بن جبل الأنصاري ، صحابي ، ولد عام ٢٠ قبل الهجرة وأسلم وعمره ثماني عشر سنة ، وشهد بيعة العقبة ، ثم شهد بدرًا وأحداً والمشاهد كلها ، وجمع القرآن على عهد رسول الله ﷺ ، بعثه النبي ﷺ بعد غزوة تبوك قاضياً ومرشداً لأهل اليمن ، وقدم من اليمن إلى المدينة في خلافة أبي بكر ، ثم كان مع أبي عبيدة في غزو الشام . ولما أصيب أبو عبيدة في طاعون عمواس استخلف معاذاً ، وأقره عمر ، فمات في ذلك العام ، عام ١٨ هـ .

﴿ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ ﴾ (المائدة : ٩٠)

وعملية الاجتناب بكل ما تحمل من أبعاد .. لكن ، وأنا استصحب ضرورة الوصول إلى الحكم النهائي — ولا يغيب عن بالي أبداً — ماذا أصنع بالناس في بيئة أخرى وأريد أن أخاطبهم ؟ هل أقبل بعض الحلول منهم ولا أواجههم بالحل النهائي حتى أهيبهم لذلك ؟ مثلاً : فكرة الكلام عن أضرار الخمر : لا أوجه العملية بالصد بيني وبينهم في عملية الإنكار حتى أفي أغلق منافذ الدعوة بأن : هذا حرام واجتنابه كذا .. ولكن ، أهيبهم لينتهوا إلى هذا .. العملية قد تكون تأجيل لبعض الأحكام لأن الحالة الواقعية تستدعي ذلك ..

• يكفي أن أعمل غرامات وشيئاً من الإهانة ، ولا أغير الحكم : حكم الحلال والحرام ، وإنما أجتهد في عقوبة الشارب .. لا بد من الجزم بأن الخمر رذيلة وأن شربها مبعد عن طبيعة الإسلام وطبيعة الطاعة لله . لكن ، في معاملتي للشاربين ، لازم أن أكون هيناً ليناً ، فلا أقسو .. أدرج هنا في تطبيق الأحكام ، كما تدرجت في الأول ، لأن الحكم في الأول لم يكن فيه ضرب كثير .. كان الضرب بثوبه .. أما ثمانون جلدة ، فكان نتيجة لاجتماع مجلس فيه الإمام علي وعدد من الصحابة رضوان الله عليهم .. أنا ممكن أن أمشي في العقوبات هنا بالطريقة التي مشى بها الأولون : أخوف أولاً ، وأشدد أخيراً .

الاختلاف .. هل يعني تفريق الدين ؟

□ □ القرآن ، رسم المسارات العامة للحياة ، ويبيّن السنن التي تحكمها ، وجاء بقيم ضابطة للمسيرة البشرية .. ودور الإنسان ، في التعامل مع القرآن وإدراك مقصده ، إنما يتمثل في الاجتهاد في تحديد هذه المسارات واكتشاف آفاق تلك السنن ، وقوانين التسخير ووضع البرامج ضمن إطار القيم الضابطة للمسيرة حتى لا تكون الحيدة ولا يكون الخروج .. لكن ، يبقى أن ما يصل إليه الإنسان باجتهاده هو رأي وليس

ديناً .. بمعنى أنه ليس مقدساً .. والرأي معرض للخطأ والصواب . لأنه يمثل فهم الشخص . وقد يفهم إنسان آخر من خلال ما يتمتع به من الإمكانية والموهبة والكسب المعرفي أو النظر إلى الموضوع من جوانب أخرى ، فهماً آخر . فيما وراء النصوص الخاصة والمحكمة التي لا تقبل الاجتهاد ..

فهل يمكن اعتبار الفهوم والآراء كلها التي لا تخرج عن إطار القيم الضابطة ضمن إطار إغناء الرؤية القرآنية ولو اختلفت ؟ وهل لذلك من نماذج ، وبذلك نخلص من مطاردة التحريم ، والتكفير ، والتخطيء ، ونحكم على بطلان الرأي ومحاصرته برأي مماثل ؟ وهل الآراء الاجتهادية ضمن ضوابط القيم ، تعني الافتراق وتفريق الدين ، الوارد النهي عنه في القرآن الكريم من مثل قوله تعالى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا أَلَسَتْ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ ﴾ (الأنعام ١٥٩)

وقوله تعالى :

﴿ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا كُلُّ جُزَيْءٍ مِمَّا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ (الروم : ٣١-٣٢)

فالقرآن الكريم فيما أرى ، جاء بالمبادئ وترك الاجتهاد في تنزيل النص على الواقع ، ووضع البرامج ، إلى اجتهادات العقل البشري في كل عصر بحسب معطياته ومشكلاته .

● الذي لا شك فيه أن القرآن الكريم رسم الخطوط العامة ، وترك التفصيل في أمور كثيرة للنبي عليه الصلاة والسلام .. حتى صاحب الرسالة فصل في الجزئيات فيما يتصل بالعبادات ، ولكنه فيما وراء هذا ، ترك الأمر أيضاً للعموم الذي تستكشف العقول مداه على مر الأيام ، وما هو الأنفع فيه .. هنا ، أعجل فأقول : إن الإسلام ربط الحق بالمنفعة ، أو جعل علامة أن الشيء حق ، أن تكون هناك منفعة .. ترى هذا في قوله تعالى :

﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبْدُ فَيَحْطَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ الْأَرْضَ﴾ (الرعد : ١٧)

فاعتبر أن الحق بطبيعته نفع للناس ، وأن فيه صالح الأمم ، وما تحتاج إليه ..
لكن ، نعود مرة أخرى إلى القرآن في ما وضع من ضوابط عامة للأمم .. تعلم أن القرآن وضع النصوص الخاصة فيما يتصل بقواعد الصلاة وصوم رمضان والحج ، وهذه عبادات كلها ، لا تتطور ولا تتبدل مهما تغير الزمن . لكن ، في الشورى مثلاً ، لم يقترح نظاماً خاصاً أو يحدد شكلاً معيناً .. الشورى ، كقيمة ، لا بد منها .. لكن ، كيف تنفذ ؟ حتى في هذا العصر الحاضر ، نجد في الدول الحرة — كما تسمى نفسها — ليس للديمقراطية شكل خاص يشيع بين الجميع .. فالولايات المتحدة ، نظامها رئاسي ، والسلطة التنفيذية فيها تنكمش أحياناً أمام السلطة التشريعية ، فلا يملك رئيس الدولة وهو رئيس السلطة التنفيذية ، أن يعين رجاله إلا بإذنها .. بينما الديمقراطية الغربية ، ليبرالية ملكية ، فيها ملك أو ملكة تملك ولا تحكم . فالنظام الديمقراطي في إنجلترا مخالف تماماً للنظام الديمقراطي في الولايات المتحدة .. النظام الديمقراطي في فرنسا يجعل انتخاب رئيس الجمهورية من حق الشعب بينما هو في إيطاليا من حق مجلس النواب والشيوخ .

فطبيعة هذه النظم ، تختلف .. والمهم ، أن مصلحة الجمهور هنا قد تكون غير مصلحة الجمهور هناك ... أو ضوابط الحرية هنا ، قد تكون محتاجة إلى وسائل غير الوسائل التي تحتاجها الحرية في بلد آخر .. وعلى هذا ، فهذه التفاصيل متروكة للناس ، وللزمان ، وما لأحد أن يرى أن ما عنده أو ما يعرضه هو الصورة الوحيدة التي يُتعبد بها أو تتحقق بها المصلحة العامة .

هذا بالنسبة للشورى ، أما بالنسبة للعدالة الاجتماعية فإن الأمر قد يحتاج إلى ما هو أدق : هل تقيد الملكيات أو تُطلق ؟ هل تقيد الإجراءات أو تطلق ؟ أي : ما مدى تدخل الدولة في حريات الأفراد الاقتصادية ؟ وهذه أيضاً مسألة متروكة لما يقوله

القائل عندنا : تحدث للناس أفضية بقدر ما أحدثوا من فجور .. فقد نرى التقييد في ظرف ، ونرفضه في ظرف آخر ، كما حدث في انجلترا : حزب العمل أمم المرافق العامة كلها ، وجاء حزب المحافظين فرفض هذا الإجراء وبدأ يبيع القطاع العام ، واستطاعت رئيسة الوزراء أن تحول بعض المؤسسات إلى شركات مساهمة ، يساهم فيها العمال ..

كل هذه المحاولات هي وسائل لتحقيق ما نسميه العدل الاجتماعي أو الضمان لتلا يقع ما خاف منه الإسلام وهو: أن أبيت شعبان وجاري جائع.. المسألة ليست تحسس فرد لما حوله بقدر ما هي يقظة الدولة لإشاعة الثقة والأمان بين الجماهير.

هناك مسائل نبه إليها صاحب « الموافقات » : الإسلام حرّم الترف ، أو حرّم الفساد في الأرض ، فيجىء صاحب الرسالة عليه الصلاة والسلام بتشريعات هي من بيانه ليست في القرآن ، ولكن في النطاق العام للقرآن ، أو بتعبير الفقهاء الدلالات العامة للقرآن الكريم ، أو المقاصد العامة للقرآن الكريم .. فمثلاً ، في أحوال كثيرة ، نجد أن القرآن الكريم ينبّه إلى أن وجود طبقة معينة « مترفة » تملك زمام الأمة ، أمر فيه خطورة :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴾
(سبأ : ٣٤)

﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْبَرًا مُّجْرِمِيهَا لِيَمَّكُرُوا فِيهَا ﴾
(الأنعام : ١٢٣)

فكيف نمنع تكون مثل هذه الطبقات ؟ إنه أمر متروك للرسول ﷺ ولن يخلفونه في حكم هذه الأمة بحيث إنها تمنع الشر .. لكن ، ليست هناك وسيلة محددة ، وإنما تركت الوسائل لاجتهاد مطلق .

الحكمة والميزان

وأنا في هذا، أشرت إلى أمرين في بعض كتبي : الأمر الأول : ما يُسمى بالحكمة .. والأمر الثاني : ما نسميه بالميزان ، مستهدياً بقوله تعالى :

﴿ اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴾
(الشورى : ١٧)

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ ﴾
(الحديد : ٢٥)
ما هو الميزان ؟

الحكمة ، وردت في القرآن في نحو من عشرين موضعاً تقريباً ، مفردة ، أو مع الكتاب : « الكتاب والحكمة » .. من قال : إن الحكمة هي السنة النبوية ، فهو مخطئ .. لأنك تقرأ قوله تعالى :

﴿ وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴾ (آل عمران : ٤٨)

كيف تكون الحكمة هنا هي السنة النبوية والكلام هنا يقصد به عيسى بن مريم عليه السلام ..

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنْ اشْكُرْ لِلَّهِ ﴾ (لقمان : ١٢)

﴿ ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا ۚ آخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَدْحُورًا ﴾ (الإسراء : ٣٩)

﴿ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا ﴾ (النساء : ٥٤)

ففي نحو عشرة مواضع في القرآن ، لا يمكن أن تكون الحكمة هي السنة النبوية .. بل هي ما يستفاد من التعاليم القرآنية ، أي وضع الأمر في موضعه ..

وهنا أقول : إن الميزان هو الناحية العملية ، والحكمة هي الناحية النظرية في ذلك.. مجموعة الآيات التي وردت فيها الحكمة والميزان، تعطينا منهجاً أن الأمة، لا بد ان يكون لها من الرؤية القرآنية التي تستنبطها او تستدركها من مجموع الآيات سياسة قرآنية : كيف تحكم الشعب ، وكيف تنزلها على واقع الناس .. أي ، كيف يُنزل الفكر القرآني على واقع عملي ؟

□□ قد يرى الإنسان أن كلمة « ميزان » تعني — فيما تعني — تنزيل الأمر على واقع الناس .. فالكتاب هو القيم والمبادئ الموحى بها ، والميزان هو التجسيد العملي ، أو الواقع التنفيذي البراجمي لهذه القيم والمبادئ ..

● نعم .. لأن الميزان لا يمكن أن يكون معنىً حسيّاً ، فقط . والتوازن الاجتماعي فيه المعنى نفسه . فلا بد من الميزان . والميزان هنا يشترك فيه الأخلاقيون والقانونيون ، وتشترك فيه شؤون مادية ومعنوية .. الذي ألفت النظر إليه : أن الربط الذي يراه أحدنا في تفسير آية أو استنباط حكم ، هو اجتهاد .. لا يوجد إمام من الأئمة الكبار في فقهاء أئمة الناس باجتهاده .. بل كلام أبي حنيفة واضح : كلامنا هذا رأي ، من كان عنده خير منه فليأت به .. ومالك كان يرفض أن يعتبر رأيه ديناً ، بل معروف من حكمة الرجل أنه رفض وهو صاحب الموطأ ، أن يفرضه على الناس لأنه قد تبدو للناس علوم أو معارف أخرى ، وهذا من صميم ديننا الإسلامي .. والذي يُلزم الناس بأن ما عنده هو الدين ، فهو إما جاهل أو قاصر أو مريض مصاب بجنون العظمة أو به شيء يُحاسب عليه أو يجب إصلاحه .

فجعل الاجتهادات ديناً ، لا .. إنما المهم أنه لا بد من إعمال النظر في تنزيل القرآن على واقع عملي .

وإذا لم يكن هذا هو الاجتهاد ، فما هو الاجتهاد الذي نريده ؟ وأنا رأيي الآن أن أفضل شيء للأمة أن يكون الاجتهاد جماعياً .. ولا أزال أدعو إلى إغلاق باب الاجتهاد في العبادات .. يكفينا في أمور العبادات ما ورثناه من أقوال في الصلاة والحج

والصيام وما إلى ذلك .. ويكون الاجتهاد بعد هذا في المعاملات الدولية، والمعاملات الاجتماعية والإدارية وغيرها .

القرآن كتاب مفتوح . يقول تعالى :

﴿رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ ءَامِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا ۖ﴾ (آل عمران : ١٩٣)

لكن ، يبقى المطلوب : كيف نعيش بهذا الإيمان ؟ فلننقل منطق الإيمان إلى كل شيء .. ومنطق الإيمان منطق واسع ، له مواصفات في العادة .. وليس له شكل معين عملياً وإنما هي أوصاف معينة ..

□□ وهذا ما يمكن أن نسميه « القيم » : فالقرآن جاء بقيم تحدد المسارات العامة أو قواعد أو مبادئ عامة ، ولم يجرى براج إلا في القضايا التي لا تتطور ولا تختلف فيها الفهم ، كما أنها لا تختلف من زمان إلى زمان ، ومن بيئة إلى أخرى ، ومن طبيعتها أن تكون توقيفية ..

• نعم ، ما عدا هذه القضايا فهو متروك للزمن ومتروك للناس ..

□□ كأني أرى الخلاصة في هذا : أن الأصل أن تبقى القيم القرآنية هي الضابطة لمسيرة الحياة في إطار عريض ، وأن الحركة والاجتهاد ضمن إطار القيم هو متروك لاجتهادات الناس بحسب ظروفهم ومشكلاتهم التي تتبدل بحسب الزمان والمكان .. المهم أن لا تخرج الاجتهادات عن الإطار الذي رسمه القرآن . وفي ذلك متسع للزمان والمكان بمقتضى الخلود والخاتمية ..

• قلت في بعض كتبي : إن هناك وسائل ثابتة .. فإذا قيل إن الصلاة لا بد لها من وضوء ، يبقى الوضوء وسيلة محددة . لكن ، الأمة محتاجة للجهاد . كان رباط الخيل ، يوماً ما هو وسيلة الجهاد . وانبنى على ذلك أن الفارس يأخذ ضعفين أو ثلاثة أضعاف — على اختلاف المذاهب — ما يأخذه الراجل . وأقيمت الأوقاف في

رباط الخيل .. الآن ، لا يمكن الأخذ بهذا الاجتهاد ، لأن رباط الخيل انتهى من عملية الجهاد .. هناك إمكانيات أخرى هي : الدبابات والمدرعات وغيرها .

الوسائل تختلف ؛ ليس فقط في الجهاد وإنما في العدالة أيضاً .. العدالة قيمة لا بد أن تضبط الأمور بميزان العدل .. الآن قد يمكن أن أجعل محاكم عسكرية ، ومحاكم للقاصرين ، ومحاكم للأحداث ، واجعل المحاكم في الوقت نفسه ، درجات : محاكم ابتدائية ، ومحاكم استئناف ، ونقض وإبرام وتميز .. كل ما يعين على تحقيق العدالة ، اجتهد فيه كيف أشاء ..

كذلك التعليم ، فكونك تقيم معاهد ومدارس لها مواصفات معينة لتعليم الأمة كلها ، أو تجري احصاءً عاماً للأمة كلها بحسب سني العمر كي تتعرف على أعداد الطلاب الذين لا بد أن تفتح لهم مدارس ، فهذه كلها مسائل حضارية لا بد منها ، وهي تدخل في إطار ما عندنا من قيم ، وهي جزء من الحكمة والميزان الذي أشار إليهما القرآن الكريم ، ولا بد منها لبناء المجتمع .

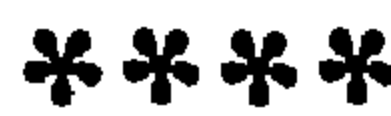
القيم تضبط .. والقيم صفات ، لا برامج وأعمال .. وليست لباساً معيناً ، فمثلاً ، الإسلام يقول للمسلم : البس اللباس الساتر للعودة الذي لا يُشتَم من لابسهِ الكبير والخيلاء .. لكن ، لا يقول له : يجب أن يكون هذا اللباس : جلابية ، أو جبة ، أو غيرها ، وإنما يترك له التصرف .

فهناك مواصفات وضعها الإسلام للحياة الاجتماعية .. وقد تحدث فيها القرآن باستفاضة دون نصوص خاصة ، أو برامج خاصة لذلك .. يمكن أن تتدخل الحكمة هنا لينشئ الناس قوانين تفي بالمطلوب للأمة .

ولذلك ، أنا ممن يرون أن تكثر الاجتهادات ضمن الصورة الإسلامية .. فمثلاً : الإمام أبو حنيفة يجتهد في أن تعطى المرأة حق أن تعقد على نفسها — وغيره من المجتهدين يرى غير ذلك — ؛ وأن تعطى الحق في أن تخالغ زوجها ، ويحكم القاضي بالحكم المناسب ؛ وأن تعطي القضاء ..

هذه برامج واجتهادات .. ومن هنا ، أنا اخترت ترجيح مذهب المالكية في أن تقسيم الغنائم ليس تقسيماً ملزماً .. أي أن « التخميس » هو صورة مما يمكن أن تقسم به الغنائم ، والرسول ﷺ لم يلتزمه عندما وزع غنائم هوازن وثقيف ، فقد حرم بعض الصحابة « الأنصار » .. ورأيت أن هذا ما صنعه عمر رضي الله عنه عندما رفض أن تقسم الأرض المفتوحة ، وفرض عليها الضرائب ، وأعطى الفاتحين أنصبة ، أو مرتبات ، من هذه الأرض المفتوحة .

وهكذا تجد أن الإسلام ليس مجموعة صور محددة ومعينة للنظام ، وليس هو قوالب ثابتة ، وإنما هو قيم ثابتة ، على ضوءها ننتقي الشكليات ، أي : نشكل ما نريد .. وإدارة شؤون الدنيا ، أعطانا الإسلام فيها فسحة : « أنتم أعلم بأمر دنياكم » (٨٠) .. أي : أنتم أعلم بالتنظيمات الدنيوية .. والمهم أن تكون هذه التنظيمات ضمن سياق محكم من القيم والقواعد الموجودة في القرآن والسنة.



(٨٠) الحديث رواه مسلم في صحيحه ، عن عائشة ، وعن ثابت ، وعن أنس رضي الله عنهم ، في كتاب الفضائل ، باب : وجوب امتثال ما قاله شرعاً ، دون ما ذكره ﷺ من معاش الدنيا ، على سبيل الرأي .

هل اختلاف وجهات النظر الاجتهادية يعني تضريق الدين؟

□□ الاجتهاد : تنزيل نص على حادثة معينة .. ومن المجازفة أن يقال عن هذا التنزيل : هذا رأي الإسلام ، أو الحل الإسلامي ، أو ما إلى ذلك .. وأتصور أنه يمكن أن ينتج عن ذلك معارك واتهامات لا نهاية لها بسبب تنوع العقول، وتعدد الاجتهادات والآراء، واختلاف الناس في تنزيل النص على الحوادث..

فلو اعتبرنا الرأي ، أو الاجتهاد ، في فهم القرآن أو الحديث ، ديناً ، له قدسية الدين ، والخروج عليه إثم كإثم الخروج على النص الشرعي نفسه ، وما إلى ذلك ؛ فهذه قضية ستمزق الأمة ، وستوقعها بنتائج نلمح بعض آثارها هذه الأيام .

نريد مناقشة هذه القضية الهامة ، والإتيان — إن أمكن — بنماذج للاستشهاد حتى لا يفسر بعض الناس من أصحاب العقول الكليّة ، النصوص الواردة في النعي على الذين يفرقون دينهم بأنه يعني : بعض الاجتهادات ، أو يحكم على بعض الاجتهادات بأنها لون من التفريق للدين ، وأن الاجتهاد هو سبب افتراق الأمة إلى ثلاث وسبعين شعبة ، وما إلى ذلك ؟

● إن أئمتنا عندما اختلفوا ، ما زعم أحدهم أنه أصاب الحق الذي يريدّه الله تعالى .. بل ، كل منهم قال : رأيي صواب يحتمل الخطأ ، ورأيي غيري خطأ يحتمل الصواب . وبقي الخلاف ، وبقي الود .. وبقي التواضع في أني أبذل جهدي لمعرفة مراد الله .. ولذلك ، وفي عبادة كالصلاة ، يرى فيها أبو حنيفة أن قراءة المأموم للفتحة حرام ، ويرى الشافعي أنها واجبة ، ومع هذا فإن الشافعي وأبا حنيفة من أئمة المسلمين ، ويُسأل الشافعي عن أبي حنيفة فيقول : الناس عيال في الفقه على أبي حنيفة .. ومن زعم أن رأيه هو الدين وأن رأيي غيره ليس بدين ، فهو كاذب ..

ويُشاع هذا الآن بين بعض أتباع المذاهب المنتطعين الذين لا يعرفون المذاهب ، فهو يرى الرأي تبعاً لفكر اجتهادي لصاحب مذهبه ، ثم يلغي جميع المذاهب الأخرى

ويرى أنها حرام .. هذا باطل .. وقد شاع بين الجهال والمتنطعين ، وأفسد الأمة الإسلامية ..

اخترت هنا أمراً من الأمور العبادية كمثال — والأمر العبادية لها طبيعتها — فكيف بالأمور غير العبادية؟ كيف بالأمور التي هي بطبيعتها محتاجة ومُحملة لأن تختلف فيها؟ الإسلام لم يضع صورة معينة محددة لبعض القضايا كشؤون الشورى، والجهاد، والعدالة، والتعليم، وما إلى ذلك .. كل هذه الأمور وردت في القرآن كقيم، وترك صور التطبيق ووسائله إلى الاجتهاد .. وهذا ما جعل أبا بكر (٨١) مثلاً يقول: استخلف واحداً .. وعمر يقول: استخلف ستة يختارون من بينهم .. الرسول ﷺ لم يستخلف أحداً .. وأخذ من هذا: أن مسألة اختيار الحاكم ليس لها نص معين، وليس هناك واحد يستطيع أن يقول: أنا أولى بالحق من غيري .. فكل منهم له سابقة يمكن الاستشهاد بها والاعتماد عليها ..

إن الذين يحددون خطأ في الحياة من اجتهاد أحدهم أو بعض الناس، ليس لهم أن يقولوا: هذا الخط هو من عند الله، وإن من عصي هذا الخط فقد عصي الله. هذا كله نوع من الباطل.

□□ يبقى: لا بد أن نعرض لمفهوم الآيتين اللتين وردتا في الإنجيل عن تفريق الدين، والآثار المدمرة لذلك:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِعَاعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ ﴾ (الأنعام : ١٥٩) .
﴿ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِعَاعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ (الروم : ٣١، ٣٢)

(٨١) هو عبد الله بن أبي قحافة عثمان بن عامر . من تيم قريش ، أول الخلفاء الراشدين ، وأول من آمن برسول الله ﷺ . من أعظم الرجال ، وخير هذه الأمة بعد نبيها . ولد بمكة عام ٥١ قبل الهجرة ، ونشأ في قريش سيداً ، موسراً ، عالماً بأنساب القبائل حرم على نفسه الخمر بالجاهلية ، أسلم بدعوته كثير من السابقين . صحب رسول الله ﷺ في هجرته . ولي الخلافة بمبايعة الصحابة له . فحارب المرتدين ، ورسخ قواعد الإسلام . وجه الجيوش إلى الشام والعراق ففتح قسم منها في أيامه . توفي عام ٥١٣ .

ما هي أبعاد هذا التفريق المنهي عنه ؟ وأعتقد أن القضية ليست في الإطار ولا الصورة التي يستخدمها بعض المسلمين اليوم ..

• التفريق المنهي عنه إنما سيكون في أمرين : الأمر الأول : خلاف جذري في العقائد وما وراء المادة والمغيبات ، لأن الكلام فيها ليس له سند عقلي عند الناس ، ولكنه تطاحن على فهم بدا لصاحبه .. كما يتحدث بعض الناس في الأمور التي نعتبرها من وراء المادة ولا مجال فيها للعقل : هل الصفات زائدة عن الذات ، أو هي عين الذات أو غير ذلك ؟ ما معنى الاستواء على العرش ؟ .. هذا كله كلام أرى الخوض فيه يعتبر أولاً : كلاماً لا معنى له ولا لزوم له ؛ وثانياً : لأن الخوض فيه يؤدي إلى انقسام ديني خطير .. ومن الخير أن نوفر لأنفسنا وحدة الأمة بأحد أمرين : إذا كان بعضنا قد أول التماساً لمعنى سليم للتنزيل — وما من أحد إلا وأول ، والسلف أنفسهم أولوا ، وعندما أقرأ قوله تعالى :

﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ ﴾ (الواقعة : ٨٥)

السلف يقولون : ملائكتنا .. هذا تأويل .. لكن المقصود هنا التنزيه .. يريدون أن ينزهوا الله عن الحلول المكانية والزمانية .. فالأمر يحتاج إلى شيء من التوضيح .. فلا يجوز أن أتهم الآخرين بالزيغ أو الكفر إلا إذا كان هناك فعلاً من يريد أن يصف رب العالمين بغير ما ينبغي له .

أما الخلافات الفقهية الفرعية ، فأجمع المسلمون على أنه لا صلة لها بكفر أو إيمان . وقد اختلف الصحابة رضوان الله عليهم في قوله ﷺ : « لا يصلين أحد العصر إلا في بني قريظة » (٨٢) هل يصلون العصر في بني قريظة أو يصلونه في الطريق ؟ ولم ير الرسول عليه الصلاة والسلام في هذا الخلاف حرجاً ، وجمعهم صفاً واحداً في مقاتلة اليهود ، ولم يعلق على هذا الموضوع ، ولم يتوقف عند الأمر ، فقد

(٨٢) الحديث رواه البخاري في صحيحه — عن عبد الله بن عمر — في كتاب صلاة الخوف ، وفي كتاب المغازي ، باب : مرجع النبي ﷺ من الأحزاب ومخرجه إلى بني قريظة ومحاصرته إياهم .

وجده أقل من أن يعلّق عليه .

كذلك الأمر بالنسبة لمن تيمموا وصلوا ثم وجدوا الماء قبل مضي الوقت ، فتوضأ بعضهم وأعاد الصلاة ، ولم يعدها بعضهم الآخر .. فالذي أعاد الصلاة قال له ﷺ : « نور على نور » .. والذي لم يعدها ، قال له : « أجزأتك صلاتك » * . وانتهى الأمر .

فالخلافات الفقهية الفرعية ، لا يعتبرها أحد أبداً خلافاً دينياً وتفريقاً للدين .. بل هي اجتهادات في فهم النص .. يقول تعالى في سورة آل عمران :

﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ١٠٥ ﴾ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ﴿ (آل عمران : ١٠٥ - ١٠٦)

يريد الله سبحانه وتعالى في هذه الآية أن لا نكون كاليهود والنصارى الذين فرقوا دينهم ، وأصبحوا مذاهب متعادية فيه مثل البروتستانت والكاثوليك والأرثوذكس ، وكان خلافهم في أصول العقائد وليس في الاجتهاد .. العقيدة عندنا واضحة ولا خلاف فيها ، وليس هناك خلاف بين المسلمين أبداً في أصول العقائد .. العقيدة تعني أن الله واحد بلا شك ؛ ليس كمثله شيء ؛ له الأسماء الحسنى .

إذا كان هناك كلام في بعض أحاديث النزول ، فهي مسائل ليس الخلاف فيها حول تنزيه الله ، فتزيه الله ثابت عند الجميع ، إنما حول الفهم اللغوي لبعض ما ورد : هل المراد الاستعارة ؟ أو المراد الحقيقة ؟ .. وهذا لا يمكن اعتباره خلافاً دينياً ..

كذلك قوله تعالى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِعَابًا لَسَتْ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ ﴾ (الأنعام : ١٥٩)

هذا كله جاء بعد الكلام عن أهل الكتاب ..

(*) الحديث رواه الحاكم في مستدركه — عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه — في كتاب الطهارة ، باب : أحكام التيمم ، بلفظ : « فقال للذي لم يعد : أصبت السنة وأجزأتك صلاتك ، وقال للذي توضأ وعاد : لك الأجر مرتين » ، وقال هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ، وتابعه الذهبي .

أما قوله تعالى :

﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ (الروم : ٣١، ٣٢)

فالآية تتصل بالدين كله بدءاً من قوله :

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ﴾ (الروم : ٣٠)

لأن الآية الثانية ﴿منيبين إليه .. ﴾ حال من الآية الأولى : ﴿فأقم﴾ والمقصود : أن نستقيم في مسالكنا ، وفي أحوالنا مع تعاليم ديننا .. والذين يريدون الانسلاخ عن الجماعة ، وإحداث شغب قد يقسم الأمة ، مسؤولون أمام الله عن تمزيقها وتفريقها .

ليس هناك من عقلاء المسلمين ، بل حتى من العامة ، في الأقدمين ، من قال : إن الخلافات الفقهية تفريق للدين .. لم يقل بذلك أحد أبداً .. الخلافات الفقهية ، خلاف في فهم نص ، أو المعنى المقصود وهو أمر يحتمله النص الديني نفسه ، فهو واحد ويتحمل هذه المعاني .

في آية مثل :

﴿أَوَلَمْ تَسْمُرُوا النِّسَاءَ ﴾ (النساء : ٣٤)

هل مطلق اللبس ينقض الوضوء؟ أو المقصود باللمس هنا لمساً معيناً وهو الاتصال الجنسي؟ .. من قال إن هذا له صلة بأصول الدين أو أنه يمس صلب الدين؟ لم يقل بذلك أحد ..

□□ ما صلة ذلك بحديث : « افترقت اليهود على إحدى أو ثنتين وسبعين فرقة ، وتفرقت النصارى على إحدى أو ثنتين وسبعين فرقة ، وتفرق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة » (٨٣) .

• هذا الحديث ليس من الصحاح ، وهو وارد في كتب السنن .. وأغلب ظني أن المقصود به : الخلافات السياسية التي توهن قوى الأمة ، وتهلكها أمام غيرها .

□□ إذا اعتبرنا أن الخلافات السياسية هي التي عناها الرسول ﷺ « بالافتراق » فهل يمكن أن تؤدي الخلافات السياسية إلى النار عدا فرقة واحدة ؟ لماذا لا تكون : اجتهادات ؟

• سؤال وارد .. ويبقى هنا أن يُفسر أن المقصود بالخلاف السياسي : أولاً : هدم الدول والخروج عليها .. فرجل يرى أنه يجب أن يكون هو رئيس الدولة ، ولا يأبى بأن يحدث شغباً يُقسّم به الشعب قسمين ، ويقا تل هذا بذاك .. هذا نوع من الخلافات الذي اعتبره كأنه كفر : « لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض » .. أما الخلاف الآخر ، وهو الاجتهادي ، فاستبعدنا ، باتفاق العقلاء ، الخلافات الفقهية ، لا بين الأربعة ولا بين الثمانية .. إنما نستبعد كل خلاف سواء كان سياسياً أو دينياً ، معه سوء النية والرغبة وعدم الاكتراث في بقاء وحدة الأمة .. هذا ما نعتبره خلافاً حقيقياً وخطيراً ..

وعندما أنظر لماضي الأمة الإسلامية أجد أن الفتنة الكبرى كانت خلافاً .. اتفق المسلمون على أن هذا الخلاف كان سياسياً ، ولم يكفر أحدهم الآخر مع أنهم تقاتلوا ، لكن اعتبر ذلك كله فتنة ، ثم تدخل العقلاء وقالوا : كان اجتهاداً ، معاوية

(٨٣) الحديث رواه الترمذي في سننه — عن أبي هريرة رضي الله عنه — في كتاب : الإيمان ، باب : ما جاء في افتراق هذه الأمة . وقال الترمذي : حديث أبي هريرة حديث حسن صحيح . كما رواه أبو داود في سننه ، في كتاب السنة .

ومن معه كانوا على حق أو أخطأوا وهم معذورون ، وعليّ ومن معه كانوا على حق أو أخطأوا وهم معذورون .. أي أن هؤلاء العلماء ساروا بالأمور بطريقة لا تخلع الأمة والناس عن الإسلام . فإذا كان لا يمكن تطبيق الحديث عل الفتنة الكبرى ، فكيف نطبقه على غيرها؟

□ □ المشكلة أن بعض الناس بدأوا يطبقونه على بعض الخلافات الفكرية والفقهية والسياسية ، ويسمون « الفرقة الناجية » ... الخ ..

● هذا كلام باطل . فلو صحّ الحديث ، فالمقصود منه : الذين ساءت نيتهم وأرادوا تمزيق الأمة .. أما الذين حسنت نياتهم ويريدون الخير للأمة فلا دخل لهم بالحديث .. وقوله ﷺ في الحديث : « ... ما عليه أنا ... » ، فقد فسرتها بما يأتي : بعض أهل الحديث يقولون : نحن الفرقة الناجية .. وهذا الكلام فيه كثير من التجاوز والمجازفة ، لأن أهل الفقه ليسوا دون أهل الحديث رغبة في إصلاح الأمة الإسلامية ، وفهم الإسلام وتحقيقه .. وقد يكون بعضهم من أهل الحديث والفقه في آن واحد مثل الشافعي وغيره .. ويوجد من أئمة الإسلام الكبار من يجمع في نفسه أو في علمه : الفكر الفلسفي ، والأصولي ، والفقه ، والحديثي .. الخ . لكن ، لا يوجد في هذه الفرق ممن يشتغلون بالسنة أو التفسير أو الفقه ، من يطلب الدنيا بعلمه ، أو تلتاس نيته ؛ هذا هو الذي نعتبره خارجاً على الجماعة .. ومع ذلك ، لا أستطيع أن اعتبره كافراً ، لأن الكفر ليس لديّ ، وإنما يكون بنصوص ، مثل ما قال الشارع : كفر بواح ، عندكم من الله فيه برهان .

أما قوله ﷺ في الحديث : « ... ما عليه أنا وأصحابي » ، فأصحاب الرسول ﷺ كلهم على ما وقع بينهم من خلاف سياسي ووصل الأمر بهم إلى القتال ، مع ذلك نقول : إنهم كلهم ناجون ، وذلك لأنهم أصحاب دين يجتهدون فيه لتحقيق مصلحة الإسلام .. فمن كان لديه الدين أو الإيمان والإخلاص والرغبة في مصلحة الإسلام ، لا أستطيع أن أدخله أبداً في الزمرة الكافرة ، وأخرجه من الفرقة الناجية .

إذن قوله تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا أَلَسَتْ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ (الأنعام : ١٥٩)

هو حديث عن أهل الكتاب ، وتحذير للمسلمين حتى لا يقعوا بالعلل نفسها التي وقع بها أهل الكتاب .. وأن المقصود : « بالتفريق » ، التفريق بالعقائد ، وليس التفريق بالمذاهب والاجتهادات التي تقع ضمن إطار القيم ..

رد خبر الآحاد إذا خالف اليقين

□□ وهذا الأمر يقودنا إلى التوقف ، ولو قليلاً ، عند خبر الآحاد ، أو أحاديث الآحاد ، واعتمادها في إثبات العقائد ، وما يمكن أن يترتب على الاختلاف فيها — من حيث الدلالة والثبت — من افتراق واختلاف ، لو أننا أثبتناها في أصول العقائد .. وشيء من الفرق بين حديث الآحاد وتباين وجهات النظر في قبوله ورده ، وبين النص القرآني لأن عدم وضوح ذلك بشكل كامل سوف يؤدي إلى تمزيق وحدة المسلمين .

فكثير من أحاديث الآحاد قبلها بعض العلماء ، وردها بعضهم الآخر .. وأعتقد أن فهمها والاستنباط منها يُشكل رأياً فردياً لا يمكن أن يرقى ليصبح ديناً ملزماً للآخرين من أهل النظر .. وقد تكون المشكلة أن رد أحاديث الآحاد برأي ونظر فردي ، أكثر ظنية وعرضة للخطأ .. فكيف نرد خبر آحاد باجتهاد آحاد ، أم لا بد للأمر من سند قرآني أو دليل نصي أقوى ؟

● علماؤنا فيما يرى جمهورهم ، يرون أن خبر الآحاد مصدر من مصادر الحكم الشرعي في الفروع . ولكن يُهمل إذا كان هناك دليل أقوى منه .. ما هو الأقوى ؟

يرى الأحناف أن الأقوى هو ظاهر القرآن مثلاً ، أو القياس القطعي .. ويرى المالكية أن الأقوى هو عمل أهل المدينة ، وبالتالي تركوا أحاديث ، أو ترك مالك أحاديث أكثر مما ترك أبو حنيفة .. فمثلاً دعاء الاستفتاح في الصلاة ، رفضه المالكية نهائياً ، وليس لديهم استفتاح .. صلاة تحية المسجد قبل الجمعة والإمام يخطب مرفوضة عند المالكية وعند الأحناف .. الأحناف رفضوا أن يُقتل المسلم في كافر ، كما رفض المالكية أن يُقتل الأصل في الفرع ، حتى إذا كان القتل عن ترصد وسابق إصرار .. المالكية يرفضون الحكم بتحريم أكل بعض الحيوانات ، فيقولون بأكل الكلب والخيل وغيره ، ويرون أن نص القرآن ظاهر :

﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خَنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهْلًا لِغَيْرِ اللَّهِ﴾ (الأنعام : ١٤٥)

حتى الشافعية رفضوا حديث أن البنت البكر تُستأذن ، وقالوا إن أباهما يزوجهما ..

الأئمة الأربعة رفضوا حديث رضاع الكبار .. حديث إن الكلب يقطع الصلاة ، رفضه الأئمة الثلاثة ما عدا الحنابلة والظاهرية .. والظاهرية لهم أشياء عجيبة في هذه المسألة ، يقولون : إن المرأة إذا مرت أمام المصلي تقطع الصلاة ولكن إذا كانت مضطجعة أمامه فلا تبطل الصلاة .

الأحاديث التي تركها الأئمة لا حصر لها .. بل هناك أحاديث كثيرة يرى بعض العلماء أنها صحيحة ، ويرى بعضهم أنها غير صحيحة .. والشيخ رشيد رضا قال : إنه لا بد من إعادة النظر في أحاديث الفتن ..

من الناحية العقلية ، عندما يقول ابن عمر^(٨٤) رضي الله عنهما : اعتمر النبي ﷺ أربع مرات إحداهن في رجب ، فتقول له السيدة عائشة رضي الله عنها : ما اعتمر في رجب قط^(٨٥) . فكيف يقال : إن حديث الآحاد يفيد عقيدة ؟! عندما يروي عمر رضي الله عنه الحديث : « إن الميت يعذب ببعض بكاء أهله عليه » ، تقول عائشة : والله ما قال رسول الله ﷺ هذا ، قال : « إن الله ليزيد الكافر

(٨٤) هو عبد الله بن عمر بن الخطاب ، أبو عبد الرحمن . قرشي عدوي . صاحب رسول الله ﷺ . نشأ في الإسلام ، وهاجر مع أبيه إلى الله ورسوله . شهد الخندق وما بعدها ، ولم يشهد بدرًا ولا أحدًا لصغره . أفتى الناس ستين سنة . ولما قتل عثمان عرض عليه ناس أن يبايعوه بالخلافة فأبى . شهد فتح إفريقية . كف بصره في آخر حياته . كان آخر من توفي بمكة من الصحابة . وهو أحد المكثرين من الحديث عن رسول الله ﷺ . ولد عام ١٠ قبل الهجرة ، وتوفي عام ٥٧٣ .

(٨٥) الحديث متفق عليه ، رواه البخاري في صحيحه — عن عروة بن الزبير رضي الله عنهما — في كتاب العمرة ، باب : كم اعتمر النبي ﷺ . ورواه مسلم في صحيحه ، في كتاب الحج ، باب بيان عدد عمر النبي ﷺ وزمانه .

عذاباً يبكاء أهله عليه . حسبكم القرآن : لا تزر وازرة وزر أخرى « (٨٦) .

فكيف يُقال في حديث الآحاد إنه يفيد عقيدة وهو لا يفيد حكماً بطريق اليقين ؟ ولولا أن الأحكام الشرعية تؤخذ بالظن ، ما كان يُعمل بحديث الآحاد .. إنه يفيد الظن ، ويؤخذ به لأننا إذا أتينا بشاهدين على القتل ، هذا لا يفيد اليقين ، لأنهما يحتمل أن يتواطأ على شيء .. فكيف يقال إن حديث الواحد يفيد اليقين ؟ هذا كلام باطل .. ونحن ليست لدينا عقيدة مأخوذة من حديث آحاد ، أبداً .. ولكن ، يمكن أن تؤخذ أحاديث الآحاد في العقائد إذا كانت شارحة لقرآن مثل أحاديث عذاب القبر وثواب القبر ، وما إلى ذلك . وهذا كلام موجود كله في القرآن ، ولكن بطريقة القرآن في الإجمال ، مثل قوله تعالى :

﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ ﴾ (الأنعام : ٩٣)

فماذا يعني اليوم ، يعني أنه سيعذب اليوم ولن ينتظر إلى يوم الساعة ، ويبقى هذا العذاب هو عذاب البرزخ ، عذاب القبر .. وكذلك الثواب ، يقول تعالى :

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَاءِ آتِهِمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ۖ وَكَسَتْبَشِّرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ ﴾ (آل عمران : ١٦٩ ، ١٧٠)

(٨٦) الحديث متفق عليه ، رواه البخاري في صحيحه — عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما — في كتاب الجنائز باب : قول النبي ﷺ : يعذب الميت ببعض بكاء أهله عليه إذا كان النوح من سننه ، وما يرخص من البكاء في غير نوح . ورواه مسلم في صحيحه ، كتاب الجنائز ، باب : الميت يعذب ببكاء أهله عليه .

فهذا كله في البرزخ .. وكل أحاديث عذاب القبر وثوابه لا تفيد عقيدة بذاتها ، ولكنها أفادت بعد أن مهد القرآن لها بحوالي خمس آيات قرآنية ..

ولو فرضنا أن هناك من قال : إن ربنا لا ينزل إلى السماء الدنيا ، بل يتجلى ، فهذه ليست عقيدة ، ولكنه يكشف معنى عبارة وردت في حديث آحاد .. ولا يمكن أن نعتبر هذا عقيدة .. نزول الله ليس عقيدة .. هناك أشياء كثيرة وسنن في الآحاد ولكنها تفسير أو لبنات في البناء الإسلامي تؤخذ في حدودها . وهذا ما مشى عليه المسلمون . فما خالف اليقين من أحاديث الآحاد ، مرفوض .. ولذلك ، القراءات الشاذة برغم أنها جاءت بأحاديث صحيحة ، لكنها مرفوضة لأنها خالفت المتواتر الذي يفيد علم اليقين .

فالقول بأن أحاديث الآحاد تبني العقائد وتفيد اليقين ، قول غير صحيح ، وما يقوله بعضهم في هذا ، مرفوض . ولا يمكن بناء عقيدة على أحاديث الآحاد ، خاصة وأن العقائد قد تكفل بها القرآن ، وليست — عندنا — من صنع المجامع ، كما هي في المسيحية ، ولا من صنع مرويات أحادية إطلاقاً .. وكما أسلفت ، فإنه يمكن أخذ أحاديث الآحاد في العقائد ، شارحة أو مبيّنة لما تواتر في الكتاب والسنة .

□□ نريد هنا أن نؤكد على قضية وردت فيما سبق ، لكن في مساحة صغيرة .. فقد نرى في بعض المصطلحات التي يعتمدونها أو يستخدمها المجتهدون والمفكرون اليوم ، بعض المجازفات الموهمة أن الاجتهاد هو الدين المعصوم .. فالمجتهد أو المفكر عندما يحاول أن ينزل نصاً على حادثة في عصر معين ، يقول : رأي الإسلام كذا .. حينما يريد أن ينظر لإعطاء حل أو وجهة نظره في قضية مطروحة يقول لك : الحل الإسلامي لها ، كذا .. وأعتقد أن هذا لون من المجازفة التي قد تحمل نتائج سلبية إضافة إلى كونها اجتهاداً في فهم قد يعارضه اجتهاد آخر .. فهل يجوز أن نعطي الاجتهاد قدسية الدين ؟

● إذا كان هناك من يقول : رأي الإسلام ، فإذا كان يقصد بالرأي : اجتهاد من

الاجتهادات ، يبقى رأياً من الآراء الإسلامية .. والأفضل أن يقول : الحل الإسلامي كما أراه ، أو كما يراه مجتهدون أو مفكرون ، هو : كذا وكذا ..

والتعبير يحتاج إلى ضوابط .. وهذه الضوابط ، يمكن أن ننظر إليها من عدة نواح :

أمر البراجم فيه سعة — كما أسلفنا — بشرط أن ننضبط بالقيم القرآنية .. لقد سبقنا الأوروبيون في العصور الأخيرة ، أو الأربعة قرون الأخيرة ، واستطاعوا ابتداع أنظمة اجتماعية ، أو سياسية ، يمكنني أن أتبناها لأنها أنظمة عامة . والإسلام أحياناً لا يمكن أن يخرج عن حدود ما يفترضه العقل البشري ، بمعنى أنه مثلاً : ورد في المكره على قتل : ماذا نصنع فيه ؟ بعض العلماء قال : يُقتل المُكره .. وبعضهم يُقتل المُكره .. وهناك من قال : يُقتل الاثنان .. وهناك أيضاً من قال لا يقتل الاثنان بل يعذّران.. هذه أربعة احتمالات موجودة ، فهل للعقل الإنساني مجال بعد هذا ؟ لم يبق احتمال .

فإذا كان الأوروبيون قد وصلوا بمنطق الفطرة للكسب العقلي ، بشيء من التجارب لا يعارض القيم الإسلامية ، وأنا تبنيته باسم الإسلام ، فلا مانع عندي من هذا .

إذا كان الإسلاميون توارثوا شيئاً من اجتهادهم أو تقاليدهم ، ويوجد خير منه عند الآخرين ، فلا يجوز أن أقول : إن اجتهادنا هو الإسلام .. بل هو فهم بشري ، وقد يكون الرأي الآخر أفضل ، وهو مستند إلى فطرة ، وهي الإسلام في هذه النواحي العامة المرنة .

قد يقع أنني أستعير عناوين عند القوم كالاشرابية ، أو الديمقراطية ، أو ما إليها .. والحقيقة أن المستعير قد يكون مخدوعاً بالعنوان ، وأنا أكره الاستعارات — وخاصة في المصطلحات — لكن قد يكون ما منها بد ، عندما يكون التقصير الإسلامي واضحاً أو فاضحاً في مجال معين . وتبقى مصطلحات لها مفهومات

ودلالات معينة ، لا بد من الانتباه لها .

فإذا قلنا إن الإسلام دين ديمقراطي ، فكلمة ديمقراطية يونانية الأصل ، والمحور الذي يدور عليه التطبيق هناك هو ضمان المصلحة بتحكيم أكبر قدر ممكن من أولى الألباب ، وإشراكهم في اتخاذ القرار ، ومنع الاستبداد الفردي ، ومنع استتالة واحد على الناس بفضل مال أو غيره .. فإذا كنا نحن لم نصل في اجتهاداتنا الإسلامية لوضع برامج ووسائل لتطبيق الشورى ، بل بقي عندنا للأسف من يقول إن الشورى غير ملزمة للحاكم ، فإن المصطلحات التي تجميء من الخارج ستنتصر ، ما دمنا نحن ضد الفطرة وضد الأصل الذي هو عندنا وهو الشورى .

والشورى ، لماذا كانت أصلاً عندنا ؟ لأن الواحد لا يمكن أن يكون مصدراً لحكم معصوم ، وإنما الجماعة هي التي لا تجتمع على ضلالة .. فأن نأتي ونجعل الجماعة يقفها واحد فهذا لا يطاق ، وقد يعارض قوله ﷺ : « لا تجتمع هذه الأمة على ضلال أبداً » (٨٧) .. ما رآه المسلمون حسناً فهو الحسن .

(٨٧) الحديث رواه الترمذي والحاكم عن ابن عمر رضي الله عنهما مرفوعاً ، وفيه سليمان بن شعبان المدني وهو ضعيف . [تلخيص الجبير ١٦٢/٣] .

إدراك السنن الإلهية في الأنفس والآفاق: وسيلة الشهور الحضاري

□□ السنن هي القانون المطرد . فلقد تحدث القرآن عن السنن التي تسير الحياة والأحياء — وهي قوانين تحكم الحركة التاريخية والاجتماعية والنفسية — سنن سقوط الأمم ونهوضها ، وغالباً ما يجيء ذلك في أعقاب القصص القرآني .. وأكد أن هذه السنن جارية على الناس جميعاً ؛ وأن اكتشافها والتعامل معها ، أمر لا بد منه للشهود الحضاري (عمارة الأرض والقيام بأعباء الاستخلاف الإنساني) ، الشهادة والقيادة للناس استجابة لقوله تعالى :

﴿ لِنَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ﴾ (البقرة : ١٤٣)

واكتشاف السنن هو الذي مكّن العالم المتقدم من التقدم والتحكم .. وغفلة المسلمين عنها كان سبب الانحطاط والسقوط والتخلف ، وأصبحوا مسخرين بدل أن يكونوا مسخرين .

فهل لنا أن نطرح القضية ونقدم شيئاً من النماذج لهذه السنن الواردة في القرآن ، وعجز المسلمين اليوم عن تسخيرها « التعامل معها » ، وكيف أن جيل القدوة أحسن إدراكها حتى تمكن من بناء الحضارة ، من مثل :

- ١ — سنة التدرج .
- ٢ — سنة الأجل .
- ٣ — سنة التداول الحضاري .
- ٤ — سنن المدافعة .
- ٥ — سنن التسخير .
- ٦ — سنن الله الأخرى في الأنفس والآفاق والكون ... الخ ؟ قال تعالى :

﴿ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴾ (فاطر : ٤٣)

● لفت نظري في تفسير كلمة « الحكمة » ، تفسير لابن عباس رضي الله عنهما ، يقول فيه : « أخذ الناس بصغار العلم قبل كباره » ، هذا ما يستقر بذهني ، ويمكن العودة لما يقوله .

« الحكمة » هي : أن أحدث الناس بما يطيقون ، فقد جاء في هذا الموضوع حديثان : أما الحديث الأول فهو : « حَدِّثُوا النَّاسَ بِمَا يَعْرِفُونَ . أَتُحِبُّونَ أَنْ يُكَذَّبَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ »^(٨٨) . وأما الآخر فهو : « إِنَّكَ مَا حَدَّثْتَ قَوْمًا بِحَدِيثٍ لَمْ تَبْلُغْهُ عَقُولَهُمْ ، إِلَّا كَانَ لِبَعْضِهِمْ فِتْنَةٌ »^(٨٩) وهذا يقتضي أن ننظر إلى حقائق الإسلام كلها ، بعد جمعها في صعيد واحد ، وهي شبكة من التعليمات تتصل بالفرد والجماعة والدولة . ثم : من الذين نخاطبهم ؟ وما ظروفهم ؟ وما أحوالهم التاريخية ، والاقتصادية ، والاجتماعية ، والحضارية ... الخ ؟ .. فيكون المتحدث لبقاً بحيث ينزل تعاليم الإسلام وفق حاجات الناس وما يمكن أن تصلحه هذه التعاليم من أوضاعهم .

وقد لاحظت أن عدداً كبيراً من المسلمين يدخلون الآن ميدان الدعوة والإصلاح بأمور عقائدية من النوع الذي ثار الجدل حوله قديماً . وأذكر أنني لقيت شخصاً ذاهباً إلى مسجد ، قلت له : إلى أين ؟ قال : لأحدث الناس في المسجد وأهاجم هؤلاء الزائغين من الأشاعرة .. فقلت له : هل أدلك على أفضل من هذا ؟ قال : وما أفضل من هذا ؟ .. قلت له : تستمسك بالمحكم الذي هو لب الكتاب وأساسه ، وتبعد عن هذا المتشابه وعن الخوض فيه سلباً وإيجاباً ، هجوماً ، أو رد عدوان .. لأن الله وصف آياته المحكمة :

(٨٨) الحديث رواه البخاري في صحيحه — عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه — موقوفاً في كتاب العلم ، باب : من خص بالعلم قوماً دون قوم كراهية أن يفهموا .

(٨٩) الحديث رواه ابن عساكر في تاريخه عن عبد الله بن عباس رضي الله عنه بلفظ : « ما أنت محدثاً قوماً حديثاً لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة » . المناوي في الجامع الصغير برقم ٧٨٣٨ وقال : وهو ضعيف .

﴿ هُنَّ أُمَّ الْكِتَابِ ﴾ (آل عمران : ٧)

فإذا كانت الأمة في أحوالها العامة مضطربة سقيمة ، فما الذي يجعلك تذهب إلى أمور ، يحار العقل البشري في إدراك كنهها ، لتبدأ الإصلاح من هناك ؟ وإلا يبدو أنك ستزيد الأمة سقاماً ! وخير لك أن تعلم الناس ما يحتاجون إليه من الكتاب .

وقد رأيت فعلاً أن الخشوع في الصلاة ، وهو ركن وهو روح الصلاة ، ما يلتفت الكثيرون إلى تعليمه أو التنبيه إليه ، وتوفير أسباب وجوده في الصلاة ، بقدر ما نرى الكلام عن قضايا نواقض الوضوء ، وكيفيات الوقوف في الصلاة ..

لقد تحولت أركان الإسلام بهذا إلى مجرد أشكال تتحرك ، وأصبحت شؤونه الكبرى تائهة مع هذا الغناء الطافي فوق أفكار المتحدثين عنه .

نحن نريد أن نعلم الناس الإسلام كله فإذا كان الإسلام سبعين شعبة أو يزيد ، فلنبداً بالأهم فالهم ، ونأخذ الناس بطريق التدرج كما فعل القرآن وهو يعرض تعاليمه على الناس .. والتدرج سنة قرآنية ، لها أبعاد تربوية لا بد من إدراكها حتى يمكن تبليغ دعوة وإقامة حضارة .. إن تحريم الخمر جاء بعد غزوة أحد بسنتين تقريباً ، أي أن ناساً ممن قُتلوا في أحد ، ماتوا وفي بطونهم خمور ، وهم شهداء .. ما نقص هذا من إيمانهم ولا أضاع ثوابهم عند الله .. المهم أن الإسلام عندما عُرض أخذوا بجملة ما عُرض منه .. ما بقي لم يُكَلَّفوا به لأنه لم يطلب منهم .

نحن الآن نعرض الإسلام متدرجين في التطبيق .. وأعتقد أن العرض في الجبهة الشرقية غير العرض في الجبهة الغربية .. وأن الكلام عن الإسلام بين الهنود غير الكلام عن الإسلام بين الزنوج ، غير الكلام عن الإسلام بين عرب يتبعون إحدى الجبهتين .. وهكذا . فلا بد من أن أعطي الإسلام على مراحل بحيث أني سأصل إلى الإسلام كله حتماً ، ولكن ، بالطريقة التي أقر بها الإسلام في القلوب والمجتمعات .. وهذا ما يمكن أن أسميه سنة التدرج .

□□ يمكن أن نستعير هنا : ما عرّف به العرب البلاغة من أنها : مطابقة الكلام لمقتضى الحال ، فنرى أنه لا بد من دراسة أحوال المستفيدين من الخطاب ، وعمرهم الحضاري ، وعقلهم ، والمشكلات التي يعانون منها ، ثم بالتالي التفكير بما يُعرض عليهم ، مع احتفاظ الداعي بالرؤية الشاملة للإسلام التي يجب أن تنتهي بالناس إليها ..

وقد يكون المطروح : التدرج في التطبيق ، أما التشريع فأمره استقر عند الحكم النهائي بعد أن أكمل الدين ..

هل يمكن أن نعرض لبعض الآيات في مجال التدرج ، غير آية الخمر الشهيرة ؟ وكيف يمكن التعامل معها من خلال واقعنا المعاصر ؟

• الربا نفسه ، لم يتم تحريمه إلا في حجة الوداع تقريباً . لأن آيات البقرة من آخر ما نزل من القرآن الكريم . وألحق بموضوع الربا موضوع الزكاة في سورة البقرة .. وكان أول ما نزل في سورة الروم :

﴿ وَمَاءٌ أَنْتُمْ مِنْ رَبِّا لَيْرَبُّوا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرَبُّوا عِنْدَ اللَّهِ وَمَاءٌ أَنْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ ﴾ (الروم : ٣٩)

ثم وجدنا حديثاً عن الربا في سورة النساء يتحدث عن أهل الكتاب :

﴿ فِيظَلِمْنَ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا وَأَخَذَهُمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ ﴾ (النساء : ١٦٠ ، ١٦١)

فكان في هذا إشارة إلى أن الربا محرم .

ثم وجدنا ما نزل في سورة آل عمران :

﴿ لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ مَصْرَفَةً ﴾ (آل عمران : ١٣٠)

ثم جاء بعد ذلك ما نزل في البقرة ، وكان حاسماً :

﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ (البقرة : ٢٧٨)

فهذا نوع من التدرج .

□□ في مجال التشريع ، قد يلتقط المرء أمثلة كثيرة .. لكن في مجال العقيدة والعبادة ، هل يمكن أن نأتي أيضاً على ذكر بعض الأمثلة ؟

• في عقيدة التوحيد ، الله واحد .. وقد حاول بعض الناس استبقاء شيء من عبادة الأصنام ، فرفض النبي ﷺ رفضاً باتاً .. فلا تدرج هنا .. الله واحد ، ولا يمكن قبول شيء يخالف هذا .. كل ما في ذهني بالنسبة للعبادات أن ثقيف طلبت رخصة في الصلاة ، فقال ﷺ : « لا خير في دين بلا صلاة » (٩٠) لا بد من الصلاة .. وعندما طلبوا رخصة في الجهاد ، تهاون في ذلك قليلاً ..

□□ نلمح أبعاداً لسنة التدرج في أركان الإسلام ، بعد الإقرار بالتوحيد .. لقد ذكر الرسول ﷺ : « فَإِنْ اسْتَجَابُوا » أكثر من مرة عندما أرسل معاذاً (٩١) إلى

(٩٠) الحديث رواه أبو داود في سننه — عن عثمان بن أبي العاص رضي الله عنه — في كتاب الخراج والإمارة والنفي ، باب : ما جاء في خبر الطائف بلفظ : « ولا خير في دين ليس فيه ركوع » وقال المنذري — في سند الحديث — قد قيل إن الحسن البصري لم يسمع من عثمان بن أبي العاص . [عون المعبود ١٢٦/٣] .

(٩١) هو معاذ بن جبل بن عمرو بن أوس الأنصاري الخزرجي ، أبو عبد الرحمن . صحابي جليل . إمام الفقهاء وأعلم الأمة بالحلال والحرام ، ولد عام ٢٠ قبل الهجرة . أسلم وعمره ثماني عشرة سنة ، شهد بيعة العقبة ، ثم شهد بدرًا وأحداً والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ . جمع القرآن على عهد الرسول ﷺ ، =

اليمن ، وبذلك عُلِّم كيف يكون الانتقال من قضية إلى أخرى ..

● التدرج في التعليم بدهاءة لأنني لا أعرض الصلاة على من لم يؤمن بالله سبحانه وتعالى ، فإذا آمن بالله ، بدأت بما يلي الإيمان وهو أول العبادات .. ثم أجيء بعد ذلك بالزكاة .. فأرى أن هذا ترتيباً في تقديم الأدوية ، لكن لا بد منها جملة ..

□□ أي أن ما يلمح من قصة بعث معاذ هو تدرج تربوي وتعليمي مع أهمية الاحتفاظ بالقضايا الجوهرية؟

● هو يشبه التدرج في قصة إبراهيم عندما أراد أن يعلم عبدة الكواكب أن الله واحد ، فتدرج معهم في أن تمثل الألوهية في النجم ، ثم أبطلها .. وتمثلها في القمر ثم أبطلها .. وتمثلها في الشمس ثم أبطلها .. ثم انتهى إلى أن خالق هؤلاء جميعاً هو الله سبحانه وتعالى .. هذا نوع من التعليم بطريق التدرج .

والقرآن نفسه ، يُلمح فيه هذا التدرج التربوي والتعليمي .. فقد كان لا بد أن ينزل القرآن مدرجاً .. فالتدرج كان لا بد منه لتربية الناس ..

□□ لأن الأمة تخضع للسنن الطبيعية في صياغتها وبنائها ، والتدرج من الأمور الطبيعية ، لذلك لا يمكن أن نخضع لسنن خارقة لأن ذلك يحتاج إلى نبوة وإعجاز ..

● هذا صحيح .. وأنا كنت أتصور أن العرب ناسٌ فيهم سذاجة ، أو أنهم بدو معرفتهم بالحياة محدودة ، وأن الحروب قلماً تكون بينهم ، لكن تبين لي بعد ذلك ، أن أشنع الجرائم كانت موجودة في قلب الصحراء ، وفي المدن البدائية .. فالشذوذ الجنسي موجود الآن مع الحضارة الغربية المتقدمة جداً ، لكن كان موجوداً بطريقة غير عادية في ديار لوط ، في قرى الموتفكة ، وهي قرى في صحراء الأردن ..

= وكان من الذين يفتنون في ذلك العهد . بعثه النبي ﷺ بعد غزوة تبوك قاضياً ومرشداً لأهل اليمن . قدم من اليمن إلى المدينة في خلافة أبي بكر ثم كان مع أبي عبيدة بن الجراح في غزو الشام ، ولما أصيب أبو عبيدة في طاعون عمواس استخلف معاذاً وأقره عمر ، فمات في ذلك العام ، ١٨ هـ .

بنفس المكايل والموازين وحرص الإنسان على جشعه وأنانيته ، كان موجوداً أيضاً في قوم شعيب .. الكبرياء إلى حد الجبروت الذي نأخذه الآن على قادة الحضارة الغربية ، وهي حضارة لم تر حرجاً في أن تهلك نحو مليون شخص في اليابان بالقنبلة الذرية في حرب إبادة لا تخضع لأي مقياس خلقي ، من أجل الانتصار .. إنها أخذت الأخضر واليابس ، والطفل والمرأة والرجل ، هذا الكبرياء وهؤلاء الجبابرة وجدت نماذج لهم أيضاً في قوم عاد وقوم ثمود .

فيبدو أن الطبيعة البشرية هي الطبيعة البشرية ، مهما اختلفت الوسائل في التنفيس عن الغرائز.. وما أراه من ضراوة الشهوات اليوم، كان موجوداً بين بعض القبائل العربية ..

لكن ، المهم هو : أنه خلال ربع قرن أمكن علاج النفس البشرية كلها من الأمراض ، لأن الأمراض هنا تشكّل نماذج من الأمراض في القارات كلها ، والخالدة في النفس البشرية على الزمن كله .

سنة الأجل

□□ سنة الأجل قد تكون قريبة من سنة التدرج .. فلكل شيء أجل معلوم ، ولا يمكن استعجال الأمور واختصارها قبل الأوان : يقول تعالى :

﴿ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ﴾ (يونس : ٤٩)

و ﴿ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴾ (الرعد : ٣٨)

و ﴿ وَاسْتَغِثُوا نَجْدَكُمْ بِالْعَذَابِ وَلَوْ أَنَّ أَجَلَ مَسْمَىٰ لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ ﴾ (العنكبوت : ٥٣)

والأمور مرهونة بأوقاتها ، وعلماء الاجتماع اليوم يقدرّون عمر الجيل الذي يكون محلاً للتغيير بسنوات محددة ، ولعلها من ٢٥ إلى ٣٥ سنة . ولقد نظرت في الزمن الذي استغرقه نزول الإسلام من قوله تعالى :

﴿ اقْرَأْ ﴾ (العلق : ١)

إلى قوله تعالى :

﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾ (المائدة : ٣)

﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ﴾ (البقرة : ٢٨١)

فوجدتها ٢٣ سنة ، هي عمر الدعوة التي أحدثت التغيير ، ووضعت أساساً للإنسانية .. ومع ذلك ، يغفل بعض الدعاة اليوم عن سنة الأجل ، ويغلب عليهم استعجال النتائج دون وضع المقدمات ، وكأنهم يتعاملون مع سنة خارقة !

• الله سبحانه وتعالى ، مع أنه يملك كل شيء ، لكنه قال :

﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنْزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ ﴾ (الحجر : ٢١)

لماذا القدر المعلوم ؟ لمصلحة الناس ، تمشياً مع حكمة أن العطاء يكون على قدر ما يحتاج إليه الإنسان .. ودائماً ، لا بد من التقدير ، فالماء إذا كثر في الزراعة أمتها ، وإذا كثر حول الناس أغرقهم.. لكن ، لا بد من الماء ، ولا بد أن آخذ منه بالقدر الذي احتاج .

□ □ كأي أقصد بالأجل : العمر الذي يقتضي شروطاً معينة لنمو الفكرة التي تمهد للتغيير والوصول إلى النتائج المطلوبة ؟

● ليس الفكرة فقط، وإنما شروط معينة لنفس البشر، ونفس النبات، لأن الله قادرٌ على أن يخلق الجنين بدل تسعة أشهر في تسعة أيام، في يوم، في لحظة.. وقادر على أن يجعل الحبوب أو « حب الحصيد » كما ذكر ، بدل أن يحتاج إلى خمسة أو ستة شهور، كما في القمح، وشهرين أو ثلاثة في الذرة، كان من الممكن أن يقع هذا فجأة ودفعة واحدة .. لكنه ، سبحانه ، كما خلق الكون على عدة أيام ، جعل التدرج هنا في أزمنة .. ولأمر ما كان الأستاذ حسن البنا رحمه الله ، يقول لنا : الزمن جزء من العلاج .. والزمن هو في الحقيقة بُعدٌ رابع من الطول والعرض والعمق . ولا بد منه لاستكمال الصورة .. ولقد رأيت الأستاذ الكسيس كاريل ، في كتابه « الإنسان ذلك المجهول » — وهو طبيب — يعتمد على نظرية أينشتاين* في علاجاته وفي وصفه لوظائف جسم الإنسان ، كأن الزمن حقيقة حسية مع الطول والعرض والعمق .

□ □ يلمح الإنسان من الآيات التي تحدد لكل شيء أجلاً معلوماً، أن الآجال أمر اخر غير الأقدار .. فالأقدار قد تكون أقرب إلى النوع والصفة ، والآجال قد تكون

* أنظر الهامش رقم (١٢٨).

أقرب إلى الشروط والعمر الزمني المطلوب لإنضاج الفكرة بعد مراحل تربوية متتابعة ..

كما يمكن أن نلمح أيضاً من سنة الأجل : ضرورة وضع الوقت المحدد كعنصر وقيمة لا بد منه في العمل حتى لا تبقى الخطة المأمولة سائبة وحتى لا يكون المسلم خارجاً من إطار الزمن كما هو الحال ..

• الزمان والمكان ، كلاهما ، موضع دراسة لعلماء الطبيعة .. وهم حائرون في تحديد المكان والزمان . وهذا ما يجعلني سلفياً في أمر العقائد . لأننا إذا كنا حائرين في معرفة المادة ، فكيف بما وراء المادة ؟

عيوننا خلقت لترى على مسافة معينة وعلى حجم معين ، فإذا نقص الحجم كثيراً ، انعدمت الرؤية ، وإذا زادت المسافة كثيراً عجزت الرؤية .. فيبدو أيضاً أن بصيرتنا العقلية على هذا النحو ، لها طاقة معينة تستطيع أن تدرك بها الأمور ، وبعد هذا تتلاشى ، ولا تستطيع أن تدرك شيئاً .

سنة التداول الحضاري

□□ بعد أن قصَّ الله سبحانه وتعالى قصة غزوة أحد ، وما خضع له المسلمون من سنة كان تجاهلها سبباً في سقوطهم أو في هزيمتهم قال:

﴿ قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ ﴾ (آل عمران : ١٦٥)

عقب الله على ذلك بما يسمى بـ « سنة التداول الحضاري » :

﴿ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ (١٣٩) إِنْ يَمَسُّكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ ﴿ (آل عمران : ١٣٩ ، ١٤٠)

وقد عبّر بعض علماء الحضارة عن هذه السنة بالدورات الحضارية ، ووضعوا لذلك سمات وقوانين حاولوا تطبيقها على الحضارات الإنسانية في التاريخ .. وقد صحَّ شيء من ذلك على الحضارة الإسلامية ، وعزَّ شيء آخر عن الخضوع لحساباتهم في سنة التداول الحضاري أو الدورات الحضارية ، لأن الأمة المسلمة لم تمت ، والحضارة الإسلامية تجددت وتتجدد دائماً ..

● عندما أنظر إلى تواريخ العالم في الشرق والغرب ، أجد أن الامبراطوريات والدول كأنها تشبه البشر ، لأن لها أعماراً تنتهي إليها .. صحيح أن الحضارة ظهرت في الشرق الأوسط ، ويبدو أن هذا هو السر في أن أغلب النبوات كانت في الشرق الأوسط لأن ازدهار الملكات الإنسانية كانت في حضارة مصر والشام والعراق وجنوب أوروبا في اليونان وإيطاليا ، أي حوض البحر المتوسط تقريباً .. وصحيح أن هناك حضارات كانت في الهند والصين . لكن لا أدري لأن هذه الحضارات التي كانت في أطراف العالم ، كأنها كانت محلية ، أو ما رأيت أنها بلغت في النمو العقلي ما بلغته

حضارة الشرق الأوسط .. هذا كله نوع من الحدس .

لكن الذي ظهر لي هو أن الحضارة أشرقت من مصر ثم انطفأت .. وأشرقت من اليونان ثم انطفأت .. وأشرقت من الرومان ثم انطفأت .. وأشرقت من بلاد العرب بالإسلام ثم خبت .. وبعد هذا يوجد الآن تحول حضاري يقولون إنه سيجعل الحضارة تشرق من جنوبي آسيا وشرقيها : اليابان والبلاد التي تقترب منها .

ويخيل إلي أن الذين يرون هذا ، يؤمنون بالحضارة المادية فقط ، لأن التقدم المادي الآن في اليابان ، وتايوان ، وكوريا ، وغيرها من بلاد جنوب شرقي آسيا يكاد يضارع أوروبا وأمريكا ، وينافسها في أسواقها الداخلية .. لكن أعتقد أن العالم ، قد تكون له عند الله مكانة تجعله سبحانه وتعالى لا يربط كرامة البشر بأسواق السلع البراقة التي جاءت بها الحضارة الحديثة .

أنا أتصور أن هناك حضارة دينية ، يكون الإسلام لبابها هي التي ترث العالم . وفي ظني أن هذه الحضارة الإسلامية ستعم العالم قبل أن ينقضي تاريخ الدنيا .. ولي هنا في القرآن شاهدان : الشاهد الأول قوله تعالى في سورة الروم :

﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾
وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْنَا فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ ﴿٥٦﴾

(الروم : ٥٥ ، ٥٦)

فكان هذا الكتاب سيقى إلى يوم البعث .. ومعنى بقاء الكتاب : بقاء رسالته وحضارته ..

الشاهد الثاني من سورة آل عمران في قوله تعالى :

﴿ وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ ﴾ (آل عمران : ٥٥)

والذين اتبعوا عيسى خصوصاً عندما يظهر بينهم هم المسلمون .. أما المسيحيون الذين ألّهُوا عيسى فهم خصوم له وليسوا أتباعه ، والدليل على هذا من القرآن نفسه ، ومن سياق الكلام :

﴿ إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴾ ﴿٥١﴾ ﴿ فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمْ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ (آل عمران : ٥١ ، ٥٢)

فالمسلمون هنا هم الذين يتبعون عيسى عندما ينزل لتكذيب من ألّهُوه ، وهم الأتباع الحقيقيون له ، وسيبقون إلى يوم القيامة ..

ورشح هذا المعنى أيضاً ما رواه الإمام أحمد بن حنبل في مسنده : « والله ليبلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار ، ولن يقي أهل مدر ولا وبر إلا دخلوا في الإسلام ، بعز عزيز ، أو بذل ذليل » .. (٩٢)

فالتنقل الحضاري ، أو التداول الحضاري ، سنة .. لكن ، هل يقع أن الأوروبيين يدخلون الإسلام ويحملون هذه الحضارة ؟ .. ربما .. هل يقع أن المسلمين يثوبون إلى رشدهم ويتوبون إلى الله و يقيمون هذه الحضارة ؟ ربما .. لا أدري بدقة ما الذي يقع .. لكن أحياناً ، أنظر إلى أحاديث جاءت مفردة وغريبة في بابها ، وتؤيدها دراسات بعض العلماء اليوم .. فهناك عدد من العلماء يقول : سيحصل تغير كوني ، وأن بلاداً خصبة ستجف ، وأن بلاداً صحراوية ستعود مروجاً وأنهاراً .. فهل هي بلاد العرب التي قيل إنها كانت أيام عاد وثمود مليئة بالخير .

(٩٢) الحديث رواه الإمام أحمد في مسنده — عن المقداد بن الأسود رضي الله عنه — بلفظ : « لا يقي على ظهر الأرض بيت مدر ولا وبر إلا أدخله الله كلمة الإسلام بعز عزيز ، أو بذل ذليل ، إما يعزهم الله — عز وجل — فيجعلهم من أهلها ، أو يلهم فيديون بها ».

وسمعت أن نجداً كانت مليئة بالزروع والثمار وأنواع الإنتاج الحيواني — خف هذا مع ظهور البترول؟ لا أدري : لم ؟.. على كل حال قد تقع سنة التداول ، لكن لا ندري بالضبط : أين ستنتقل بمنارة الحضارة العالمية ليكون شعب ما هو الشعب الرائد تتبعه بقية الشعوب .. وتلك سنة الله في الكون .

□□ الناس الذين يعتنون بالجانب المادي ، تكلموا عن الدورات الحضارية : ظهور الحضارة ، ثم ذبورها وانقضائها .. ولو استقرأ الإنسان تاريخ الحضارات ، لا يجد أن ما سمي بالدورات الحضارية ينطبق على حال الأمة الإسلامية .. في سيادة الأمم وإبادتها ، ترى أن كثيراً من الحضارات في التاريخ ، سادت ثم بادت وانتهت حتى أصبح لا وجود لها ، ولا قيمة عملية لها غير القيمة التاريخية فقط ، بينما نجد عملية النهوض والسقوط بالنسبة للأمة الإسلامية — إذا استقرأنا التاريخ — لم تخضع تماماً في جوانب حياتها كلها لهذه السنة من الدورات الحضارية ..

خميرة النهوض موجودة في القرآن ، وأسباب النهوض والسقوط في القرآن (السنن) هي أشبه ما تكون بمعادلات رياضية ، وبمجرد أن أحسن المسلمون التعامل معها ، أوجدوا حضارة .. وعندما يتنكرون لها ، يكون السقوط .. لذا نرى كل ما جاء على الحضارة من الفساد الداخلي والاستبداد السياسي ، وما إلى ذلك ، ومن الموجات العارمة الخارجية المبيدة والسنين الطويلة التي عاشتها لإسقاط الحضارة الإسلامية ، لكن مع ذلك استعصت الحضارة الإسلامية ، ولعل هذا يعطيها لونا من الخصوصية بسبب الوحي ، بسبب خلود القرآن — كما أسلفنا — وإن قابلية النهوض موجودة باستمرار ، وإن عدم القضاء عليها دليل على عدم خضوعها للدورات الحضارية والمقاييس الحضارية الأخرى بشكل صارم ، ولعل ذلك لأن الأمة المسلمة هي الأمة الخاتمة التي ورثت النبوة ، ولأن الإيمان الكامل هو خميرة النهوض وشرطه ولذلك قال تعالى في أعقاب هزيمة أحد :

﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (١٢٦) إِنْ يَمَسُّكُمْ فَزَعٌ فَقَدْ

مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ، وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ ﴿١٣٩﴾ (آل عمران : ١٣٩ ،
(١٤٠)

• هذا صحيح .. وأنا أؤيد هذا .. وهذه الأمة — كما قلت — تمرض ولا تموت .
والعلل التي تصيبها ، يجيء أغلبها من اضطراب الحكم ، فالعطب يكون دائماً في
القشرة التي تغلف العود ، وهي الحكم ..

فساد الحكم ، قشرة في النظام الإسلامي ، لأن الإسلام ليس حزباً سياسياً ، إنما
هو مجموعة قيم وتعاليم ، قد يكون الحكم حزاماً يشد التعاليم ، لكن بقيت التعاليم
قائمة مع انقطاع الحزام .. ويظهر هذا جلياً مع سقوط بغداد ، فإن التتار دخلوا في
الإسلام ، رغم محاولات أوروبا العنصرية والشديدة في أن تجر التتار إليها ، وأن تجعل
منهم حرباً صليبية ، بل كانت هي فعلاً كذلك ، وتدرس في تاريخ أوروبا على أنها
حملة تنارية صليبية معاً .. إلا أن الأندلس حقيقة ، تعرضت لحملة إبادة تُشبه
القنبلة الذرية ، لأن الحقد الصليبي تجمع كله فيما يسمى بمحاكم التفتيش فكانت
التصفية الجسدية بتعبير العصر ، هي الأساس في محو الإسلام من اسبانيا .. وكان
ينبغي على المسلمين أن يأخذوا من هذا عبرة .. والأمر نفسه حدث في يوغسلافيا .

□□ لا شك أن إثارة النزوع القومي وإيقاظ النعرات العرقية والقوميات التعصبية ،
هي محاولة لإلغاء الحس الإسلامي ..

• هذا حق .. ويجب الالتفات له .

سنة المدافعة

□ □ سنة المدافعة مأخوذة من قوله تعالى :

﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الصَّوْمُ مَعَ وَبِيعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذَكَّرُ فِيهَا أَسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا ﴾ (الحج : ٤٠)

هذه السنة الاجتماعية التي تحكم التجمعات البشرية ، يلمح الإنسان أثرها الفاعل في كل زمان ومكان حيث يسلط الله الظالمين بعضهم على بعض ، وتكون بذلك فرصة لنجاة المستضعفين ونمو الخير ، وحماية أهله .. ولعل هذا الذي حمل بعض المفسرين إلى القول : بأنه في غياب العدل والحكم الإسلامي لا يمكن أن يسلط الله على البشرية ظالماً واحداً يتحكم بها بل يوجد دائماً أكثر من ظالم ، ومن خلال مواجهتهم وصراعاتهم تتحقق فرص النهوض والبناء الحضاري .. فإذا أحسن المسلم اليوم التعامل مع سنن المدافعة ، يمكن أن يحقق كسباً وإنجازاً هاماً للقضية الإسلامية ، على الرغم من الضعف والتبعثر .. والحكمة هنا في التحرك هي : حسن اختيار الموقع الفاعل ..

فكيف يمكن أن يستفيد المسلمون من سنة المدافعة حتى تستمر حياتهم حينها لا تكون الغلبة لهم ، ولا تكون الحضارة لهم ، في مثل حالنا اليوم ؟ وهل من شواهد قرآنية موضحة ؟

● حينما أتأمل في قوله تعالى :

﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ ﴾

(البقرة : ٢٥١)

أشعر بأمرين :

الأمر الأول : أن الاختبار الإلهي ليست له صورة محددة .. فصوره كثيرة متعددة .. وعلى الإنسان أن يكون على استعداد دائم لكي يتحمل تبعات الدفاع عن معتقده وعن سيرته ومسلكه وقيمه .. لكن ، كيف سيكون لون هذا الاختبار ؟ لا ندري ...

الأمر الثاني : أن هذا التدافع هو طبيعة الحياة الفردية والاجتماعية ، بمعنى أنه في داخل الجسم البشري ، تفرض المناعة نفسها عندما تدخل جراثيم غازية ، ويبدأ القتال حتى يبقى الجسم حياً ..

الحياة الإنسانية ، لا بد فيها من هذا التدافع .. هذا اللون من التدافع .. ربما تنشط أجهزة الإيمان ، وتتحرك فيه قواه الداخلية إذا كانت فاترة عندما يشعر بالتحدي ويكون هذا سبباً في إمداده بحياة جديدة .. وهنا ، سنن الله الكونية التي يجب أن يخضع لها المؤمنون والكافرون : أن الحياة ، فيها هذا التصادم المستمر بين قوى ومبادئ مختلفة .. وهكذا الحياة .. يحاول الكفر أن يفرض نفسه ، فتتنشط قوى الإيمان لكي تبقى .. فيبقى الإيمان بعد أن نمت قواه بضغط الكافرين عليه ..

﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ﴾

(البقرة : ٢٥١)

هذا التدافع الحضاري ، جزء من الاختبار الإلهي ، وجزء من تمكين الخير من أن تزداد صلابته في مواجهة الشر .

□□ بعض علماء الحضارة ، مثل توينبي^(٩٣) وغيره ، يعتبرون التحدي والاستفزاز هو سبب هام في الاستجابة والنهوض الحضاري .. هو الذي يقضي على العناصر السائخة ويستفز الأمة لتنهض ، وتواجه ظروفها ، وعدوها ، وأن فترات التحدي هي فترات خير للأمة لأنها تعيد إليها شبابها ونهوضها وما إلى ذلك ..

(٩٣) توينبي ، أرنولد Toynbee, Arnold مؤرخ بريطاني ، ولد عام ١٨٨٩ م ، له نظرية في تفسير التاريخ على أساس من التحدي والاستجابة ، وقد توفي عام ١٩٧٥ م .

هذه القضية ، لا شك أنها تقع ضمن مساحة ما أسميناه : سنة التدافع .. لكن هناك هامش آخر في سنة التدافع ، أرى بأنه — أحياناً — في حالة ضعف المسلمين وعدم قدرتهم على المواجهة الكاملة — تكون هناك قوى عالمية متناقضة تحمل العداوة للمسلمين ، لكنها في الوقت نفسه تحمل من التناقض فيما بينها ما يحملها على الاقتتال والمواجهة ، فإذا أحسن المسلمون التحرك الحكيم من خلال الظروف المتاحة مستثمرين التناقض القائم ، يمكن أن نقول : بأنهم أفادوا من سنة المدافعة التي وردت في القرآن وأدركوا أبعادها .. فنعيم بن مسعود^(٩٤) مثلاً ، أحسن التحرك بين بني قريظة وقريش ، في غزوة الخندق ، على الرغم من حصار المسلمين وضعفهم المادي ..

الكتل الدولية ، في كل فترة من الفترات ، لو استقرأنا ذلك ، نلمح بأن الله سبحانه وتعالى لم يسلط على البشرية ظالماً واحداً إلا كان هناك ظالم يواجهه ويدافعه .. فمن خلال الخصومات العالمية ، والظلم العالمي ، والمواجهات العالمية ، يمكن أن تُفسح فرج إذا أحسننا التعامل بما أسميناه : سنة المدافعة ..

● هذا معنى جديد ، ومعنى صحيح ، ويستطيع الإسلاميون في هذا العصر أن يستغلوا ما بين الجبهات المتصارعة في العالم من فروق ومن نقائص اجتماعية وسياسية لكي يظفروا بحق الحياة أولاً ، ولكي يعرضوا أيضاً ما عندهم ، ويُعرف ما فيه من خير .. وأخيراً ، لكي يستطيعوا أن يستردوا ما فقدوا من مساحة مكانية في الاستعمار ، وما أصابهم من نكبات اجتماعية وسياسية كثيرة في الهزائم التي لحقت بهم ، ويستعيدوا ما فاتهم .. ممكن من خلال هذا كله .. لكن ، هذا يحتاج فعلاً إلى أن الذي يُحسن الاستغلال ، يجمع بين أمرين : بين الإخلاص العميق للعقيدة والمبدأ ، والذكاء العميق أيضاً الذي يستطيع به أن يفتق الحيل حتى يصل إلى ما يريد ..

(٩٤) هو نعيم بن مسعود بن عامر ، يكنى أبا سلمة الأشجعي ، أسلم ليالي الخندق ، وهو الذي أوقع الخلف بين الحيين ؛ قريظة وغطفان ، في وقعة الخندق ، فخالف بعضهم بعضاً ، ورحلوا عن المدينة . وقد قتل رضي الله عنه في أول خلافة علي كرم الله وجهه قبل قدومه البصرة في وقعة الجمل ، وقيل مات في خلافة عثمان رضي الله عنه . والله أعلم .

□□ وإلا في عصر الأذكاء ، لا يستطيع التعامل مع سنّة المدافعة أصلاً ، وإذا لم يكن على هذا القدر من الذكاء ..

• هذا صحيح ، وأخشى أن أقول : إن غيرنا طبق هذا . ولعل اليهود استطاعوا أن يستفيدوا من سنّة المدافعة أكثر منا .. نحن الآن في حاجة ماسة لسنة المدافعة .. وليس أمامنا في هذه الظروف إلا الأخذ بسنن المدافعة .. فكيف تحتال لتشق بين الأقوياء طريقاً لك ؟

□□ يلمح الإنسان أحياناً — كأنموذج تطبيقي معاصر لسنة المدافعة — أن أقلية أو نائباً في برلمان واحد مؤلف من كتلتين ، قد يرجح الكفة إذا انضم لأحدهما ، ونجعلها تفوز بتشكيل الوزارة ، وكأنه هو المتحكم بالتوجه السياسي ، بينما هو فرد واحد ، لكنه استطاع أن يستفيد من سنن المدافعة ، ويفعل ما لا يفعله حزب كبير ..

• الحزب الديمقراطي "المسيحي" في إيطاليا ، لم يحكم إلا فترات قليلة ، على الرغم من الأكتية ، وكان يكسب الحكم حزب صغير ، فيه رجل ذكي ، كان رئيساً للوزراء قبل سنتين ، استطاع أن يولف من مجموعة الأحزاب ما وقف به أمام الأكتية الديمقراطية المسيحية عدة سنين ..

سنة التسخير

□□ السنن الموجودة في القرآن ، هي — كما أسلفنا — أقرب للمعادلات الرياضية : مقدمات ونتائج .. وهي تؤكد نظرية السببية في نهاية المطاف ، أي : ربط حصول المسببات بتعاطي الأسباب .. ولعل من سنن الله في الكون ، أيضاً ما يمكن أن نطلق عليه : سنة التسخير ، وسنن التغيير في الأنفس ..

● تقسيم الناس طبقات ، من السنن التسخيرية . فهناك مهندس ، وهناك عامل .. ولا بد أن يُسخر المهندسُ العاملَ ، لأن المهندس كأنه يمثل الدماغ ، والعامل كأنه الساعد في يده .. القيادة والجند ، القائد يبقى في مكان يصدر منه الأوامر ولا يتلقى الضربات وإنما يتلقاها الجند ، والمعارك لا تدور إلا بهذا .. واحد يصدر الأوامر ، والثاني ينفذ .. هذه سنن تسخيرية ، وهي لا تدل على رضئ وسخط من الله بقدر ما تدل على أن الله خلق الناس هكذا .. والمواهب متفاوتة ..

□□ مستحيل أن تقوم شبكة العلاقات الاجتماعية بدون هذا التفاوت ، وهذه الفوارق الفردية ..

● هذا صحيح .. وهذا ما جاء في قوله سبحانه وتعالى :

﴿ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحِمْتُ رَيْكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ (الزخرف : ٣٢)

فهذا تسخير ، وهو سنة كونية ، ولا أدري ما دخلنا نحن فيها ؟ .

□□ أردت جانباً آخر من التسخير : إن الله سبحانه وتعالى حينما سخر لنا البحر والأرض والشمس ، لفت نظرنا إلى أهمية اكتشاف قوانين التسخير الكونية ، ولست أقصد الاجتماعية بين الناس ، فمعرفتنا لهذه القوانين التي تنظمها ، هي التي تمكننا من القدرة على

تسخيرها ، أي أن التقدم العلمي لا يمكن أن يتحقق إلا بفهم قوانين التسخير ..
الله لفت نظرنا إلى قوانين التسخير ..

• هذا تعبير جديد لحقيقة أخرى :

﴿ خَلَقَ لَكُمْ مَّا فِي الْأَرْضِ ﴾ (البقرة : ٢٩)

فنحن مكلفون بأن نرتفق ما سخره الله لنا .

□□ الأوروبيون ، الآن ، اكتشفوا قوانين التسخير ، فأحسنوا تسخير الأرض
والبحر .. الخ .

• هم طوّعوا الأدوات التي أتاحها العلم لهم في خدمة قضاياهم ، وخدمة مبادئهم ..

□□ ألا نستطيع أن نقول : بأن هذه القضايا لها قانون ؟ المادة لها قانون ، والتعامل
معه لا يمكن أن يتم ما لم يتعرف الإنسان على هذا القانون ، وأن القرآن عندما جعل
هذه الأمور الكونية

﴿ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ ﴾ (الأعراف : ٥٤)

فكيف نحقق التسخير والعمارة ما لم نكتشف السنن التي تحكمها ؟

• ممكن .. لكن الخلاف الذي بيني وبينك هنا ، هو في أن « قانون التسخير »
عنوان جديد .. لكن المعنى كنا ذكرناه في أن الإنسان خليفة الله في أرضه ، ولا بد
أن يستولي على كل شيء مسخر لخدمته ..

□□ هذا لا بد منه لتحقيق عمارة الأرض واستغلال الإنسان وغير ذلك .. لكن
تسميتي لهذا القانون : بقانون التسخير ، كانت حتى يلتفت المسلمون لما ورد في

القرآن من قوانين لإدراك كنه هذه القوانين ..

● لا بأس .. ملحظ يجعل المسلمين ، وهم الآن مُسَخرون في الأرض ، أن يعلموا أن الله سخر لهم الشمس والقمر ، فلا يجوز أن يكونوا آلات بالطريقة التي يعيشون بها ..

□□ هناك قضية لم تحظ بالدراسات المتوازنة في نظري ، وهي العلاقة بين البعد الإيماني ، والسنن التي تحكم عالم الشهادة ، ودور البعد الإيماني في الهداية إلى هذه السنن ، والتفاعل الذي يحدثه الإيمان بين هداية السماء واستجابة الأرض لتحقيق الشهود الحضاري ، وربط نتائج ذلك بقضية الإيمان .. إن اكتشاف انتظام هذه القوانين ، وعملها ، يقود إلى الإيمان بالله ، والاستدلال بالأمور المادية والسنن الكونية على الأمور النفسية والإيمانية .

ودور الإيمان في التنبيه لهذه السنن ، وإعمالها ، وما يهب الإيمان والتقوى الفرد المسلم من استعدادات تدفعه إلى الإنجاز ، ولا تقعد به عاطلاً عن التعامل مع هذه السنن .

أقصد أن العلاقة بين البعد الإيماني والإنجاز الحضاري ، تحتاج إلى مزيد من النظر والتأمل .. لذلك رأينا بعض المدارس الحديثة التي تتعامل مع المادة فقط ، تقرر : أنه لا بد من إعادة صياغة المعادلة النفسية والاجتماعية للأمة ، حتى تصبح قابلة للتطور والإنجاز التكنولوجي ، لأن التكنولوجيا تأتي ثمرة لفلسفة ، وعقيدة ، ومعادلة نفسية معينة ، وبالتالي فلا يمكن أن تتطور في مجتمع عقيدته تغاير أو تختلف عن مجتمع نشوئها ..

لقد ربط القرآن كثيراً من النتائج المتحصلة من أعمال هذه السنن والتقوى .. فمثلاً : ربط بين التقوى وما تؤدي إليه من بصيرة في النظر للأمور ، والحكم عليها بالحق والباطل ، والصواب والخطأ .. يقول تعالى :

﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا ﴾ (الأنفال : ٢٩)

وهناك ارتباط بين الإيمان والتقوى وبين اكتشاف سنن التسخير وزيادة الرزق :

﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾
(الأعراف : ٩٦)

وهناك ربط بين الإيمان والصبر الإيجابي وبين تجاوز المحن :

﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ
الصَّابِرِينَ ﴾ (البقرة ١٥٥)

وربط أيضاً بين الاستغفار والتوبة وبين نزول المطر وتحقيق الخير :

﴿ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّكُمْ كَانَتْ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُمْ
بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا ﴾ (نوح : ١٠-١٢)

وهناك ربط بين الانتصار في ميدان المبادئ ، والانتصار على الشهوات وبين الانتصار
على العدو :

﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَصُورُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ (محمد : ٧)

وهناك أيضاً الربط بين الظلم الاجتماعي ومنع الفقراء حقوقهم ، وبين فقدان الثروة

ودمارها :

﴿ إِنَّا بَلَوْتُهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٨﴾ وَلَا يَسْتَنْتُونَ ﴿١٩﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِبُونَ ﴿٢٠﴾ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ﴾ (القلم : ١٧ — ٢٠)

وأيضاً ، الربط بين الفسق والترف وبين الهلاك :

﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا ﴾ (الإسراء : ١٦)

نصيب الفرد من الخطاب القرآني

□□ لا شك أن الخطاب القرآني ، للناس بشكل عام ، وللمسلم بشكل خاص ، يحمل أبعاداً متعددة من التكليف .. والتكليف ، ابتداءً ، إنما يكون بقدر الوسع .. فهل نستطيع القول : بأن نصيب الفرد من الخطاب القرآني ، يمكن أن يتحدد على ضوء إمكاناته ووسعه ؟ .. نأتي بمثال لذلك : يقول تعالى :

﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جِزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِّنَ اللَّهِ ﴾ (المائدة : ٣٨)

﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ ﴾ (النور : ٢)

فهل يملك الفرد المسلم — وهو يحقق الاستجابة للخطاب القرآني — القيام بممارسة عمل القاضي والسلطة في قطع يد السارق ، ورجم الزاني ، وما إلى ذلك ؟ أم أن الخطاب هنا للسلطان ابتداءً ، وأن الفرد معفي من ذلك بشكل مطلق ؟ أم أن للفرد نصيباً من الخطاب القرآني ، وهو العمل على إيجاد السلطان المسلم ، لإنفاذ الأحكام ، وبذلك لا نخرج الفرد من نطاق الخطاب القرآني ؟

كثيرون يخلطون في هذه القضية ، ويستشهدون لذلك بآيات قد لا يكون الاستشهاد بها في محله ؛ فقد يكون من المفيد بيان ذلك ، وكيفية التعامل مع هذه النصوص ؟ فلقد وصل الأمر ببعضهم إلى القول : بأنه يحق للفرد إنفاذ الأحكام على الناس عند غياب السلطة المخاطبة بالموضوع !

• الذي أعرفه في الفقه الإسلامي ، وفي الأحاديث التي وصلت إلى علمي : أن الحدود والقصاص وظيفة الدولة .. ويستحيل أن يقوم إنسان بإنفاذ الحدود ، وإنفاذ

القصاص ، وهو من عامة الشعب .. هذه وظيفة الدولة ، وليست وظيفة الأفراد .. بل ، في رأيي ، أن تغيير المنكر ، وهو مطلوب من الأمة ، لا يعطي هذا الحق كل إنسان ! لأن تعريف المنكر نفسه ، يختلف فيه الغوغاء مع الفقهاء ..

فقد يرى بعض الناس أن تصوير شخص في ورقة ، معصية ، وكبيرة من الكبائر ، وأن امرأة كشفت وجهها ، جريمة ..

لا بد من وضع حدود ليعلم كل إنسان الدائرة التي يمكن أن يؤدي فيها واجبه الديني .

وباستقراء أحوال الحكومات كلها ، منذ بدء العالم إلى الآن ، وباستقراء أحوال الفقه الإسلامي وأحكامه ، ما وجدت أحداً قال : إن القصاص أو الحدود يقوم بها الشعب .. بل الذي جاء في السنن : أن من ارتكب جريمة كالزنا ، ولم تنكشف ، فإن له أن يتوب منها ، وليس له أن يكشف عن نفسه ، بل يحترم ستر الله الذي أسدل عليه ويتوب إلى الله ، وليس لأحد أن يبحث أو أن يجري وراء هذا أو ذاك ليتعرف إذا كان الناس ارتكبت جرائم أو لا .. وحديث عبادة بن الصامت في هذا واضح : « ومن أصاب شيئاً من ذلك فستره الله فأمره إلى الله ، إن شاء عذبه وإن شاء عفا عنه » (٩٥) .. وفي مسألة التوبة ، أرى أن كلام ابن تيمية في فتاواه أدق ، وهو : قبول التوبة .. والتوبة مسألة بين الإنسان وربه .. دخول الغوغاء في هذا ، مستحيل ..

الجهاد وظيفة للأمة .. والفرد ليس له إلا أن يقدم نفسه ليكون فرداً يتلقى

(٩٥) الحديث متفق عليه ، رواه البخاري في صحيحه — عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه — في كتاب الإيمان ، باب : علامة الإيمان حب الأنصار . ورواه مسلم في صحيحه ، في كتاب الحدود ، باب : الحدود كفارات لأهلها ، واللفظ لمسلم .

وعباد بن الصامت بن قيس الأنصاري الخزرجي ، أبو الوليد : صحابي ، من الموصوفين بالورع ، شهد العقبة . وكان أحد النقباء ، وبدراً وسائر المشاهد . ثم حضر فتح مصر . وهو أول من ولي القضاء بفلسطين . ومات بالرملة أو ببيت المقدس . روى ١٨١ حديثاً اتفق البخاري ومسلم على ستة منها . وكان من سادات الصحابة . ولد عام ٣٨ قبل الهجرة (٥٨٦ م) وتوفي عام ٣٤ هـ (٦٥٤ م) .

الأوامر . أما عملية الجهاد ، تمويلها ، تقوم به الأمة .. صنع الأجهزة في البر والبحر والجو ، تقوم به الدولة .. وما يتصل بالجهاد كله ، ليس قطاعاً خاصاً .. هذا شيء يتصل بالدولة المسلمة .

□□ يمكن أن نوضح هذا ، فنقول : هنالك بعض الأحكام موجهة للدولة ، وهناك بعض الأحكام موجهة للفرد ، وتقع في نطاقه .. وهناك أحكام لا يمكن أن يتصور إنفاذها إلا عند وجود دولة ، أي سلطة ..

لكن ، في حال غياب الدولة ، تتعطل بعض الأحكام ، ولا يحق للأفراد ، بحال من الأحوال ، أن يمارسوا سلطان الدولة .

● عندما يغيب سلطان الدولة لسقوط الدولة الإسلامية ، فإنه من الممكن أن يتواصى الناس بتكوين هيئة أو جهاز نائب مؤقت عن الدولة ، ولا يُترك الحكم للأفراد ..

□□ أردت هامشاً آخر : في الخطاب الموجه للسلطان ، هل للفرد فيه نصيب ؟ أنا أقول فيه نصيب — من وجهة نظري — ليس نصيباً تطبيقياً تنفيذياً .. وقوله تعالى :

﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جِزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِّنَ اللَّهِ﴾ (المائدة : ٣٨)

أنا كفرد ، مخاطب فيه أيضاً ، لكن ، ما هي حدود الخطاب بالنسبة لي ؟ حدود الخطاب بالنسبة للحاكم هي إنفاذ الأحكام ، لأن الأمر في وسعه .. أما أنا ، طالما ليس في وسعي إنفاذ الأحكام ، فنصيني من الخطاب أن أعمل ، وأن اجتهد في إيجاد السلطة الغائبة ، ومعاونة الحاكم المسلم إذا كان موجوداً — في إنفاذ الأحكام .

● هذا حق ..

□□ إذا كان عندنا للقاضي شروطه وصفاته — كما هو معروف — وللقضية المقضي بها ، وللشهود والبيّنات والقرائن مواصفات أيضاً ، وهو باب طويل قد لا يصل إليه إلا نماذج معينة من الناس ، فكيف يمكن أن نسلم مثل هذه القضية لناس غير مؤهلين لها من الرّعاع ، فتقلب الحياة الإسلامية إلى لون من شريعة الغاب ، والتناقضات ، والاضطراب ، والفوضى ، وما إلى ذلك ..

أنا أردت من كلمة « الخطاب القرآني للإنسان » أن لكل إنسان نصيبه من هذا الخطاب .. الحاكم له نصيبه ، والفرد له نصيبه كذلك .

● الشعب يعاون الحكومة في تطبيق الأحكام ، أما العمل الذي تقوم به الدولة ، فلا يترك للأفراد ، ولا يُطلب منهم ، فكيف أنظم الجهاد مثلاً؟ الجهاد لا بد له من أجهزة تشرف عليها الدولة .. فمثلاً الأمر الإلهي : جاهدوا في سبيل الله .. كيف يُنفذ؟ لا يمكن للإنسان أن يخرج ويقاتل من نفسه ، لا بد أن يسلم نفسه للدولة المسلمة ، كذلك القضاء ، الأمر يحتاج في تحقيق الجرائم وإثباتها ومعرفة الجدير بالعقاب أو من تاب الله عليه ، كل ذلك يحتاج إلى تخصصات وأجهزة تشرف عليها الدولة . فإذا سقطت الدول الإسلامية، فجهد الناس إقامة الدولة التي تقوم بوظيفتها.. أي أن نصيبهم من الخطاب إقامة الدولة.. وفي غياب الدولة، لا يمكن أن أعطي الأفراد حقوق الدولة..

هذا باب إذا فُتح ، فُتحت معه أبواب الفوضى كلها ، وأبواب الهمجية ، لأن كل إنسان سيدعي أنه يقيم حكم الله وهو لا يدري ما حكم الله .. وتتعدد السلطة .. الخ ، الحاكم يقول للزاني : « لعلك قبلت » .. يريد إسقاط الحكم عنه .. فإذا جاء من يريد إقامة الحكم بأي طريقة ، فرما صادم التعاليم الإسلامية وأضاعها . ويوجد الآن ناس كثيرون لا يوثق بفقهم ..

الإعجاز العلمي في القرآن

□□ لقد شاع في الآونة الأخيرة مصطلح : « الإعجاز العلمي في القرآن » إلى درجة إنشاء مؤسسات للإعجاز العلمي في القرآن والسنة ، حتى وصل الأمر عند بعضهم إلى محاولة تحميل الآيات ما لا تحمل من النظريات والاكتشافات العلمية .

ومن الأمور المعروفة ، أن العلم وصل إلى آفاق وأبعاد متقدمة جداً جداً .. وأن الإعجاز يعني استمرارية المعجزة وخلودها ، لأن خلود المعجزة ثمرة لخلود الإسلام .. والقول بالإعجاز العلمي في القرآن ، قول يحمل الكثير من المخاطر والمجازفات إذا نظرنا لبعض الإشارات العلمية التي وردت في القرآن بمقابل ما وصل إليه العلم الحديث .

فالكلام عن مراحل الخلق ، وتطور الأجنة ، وما إلى ذلك مما أثبتته العلم بعد آماذ ، لا شك أنه يدل دلالة واضحة على أن القرآن الذي أنجز بهذا ضمن الظروف العلمية السائدة ، هو من عند الله .. ولكن أن يصل الأمر إلى تسميته إعجازاً ، أظن أن ذلك يحمل كثيراً من المجازفة — كما أسلفنا — وقد يكون التعبير الأمثل عن ذلك أنه من دلائل النبوة .

ولا أشك أن القرآن ، لفت نظر الإنسان إلى الحقائق العلمية أيضاً ، ووضع الإنسان في المناخ العلمي ، حيث حثّه على التأمل ، والنظر ، والاختبار ، وملاحظة اضطراد القوانين والسنن ، ليتكسر ويكتشف ، ويخترع ، ويسخر .

أما أن يسمى ذلك إعجازاً علمياً ، بمعنى استمرار الإعجاز وخلوده ، فتلك قضية غير دقيقة وإن كان معجزاً في وقته ، خاصة وأن محل القرآن هو الإنسان ابتداءً ، والارتقاء به .. ومجال الإنسان هو العلم ، والكشف ، والاختراع لأداء الاستخلاف الإنساني ، وعمارة الأرض بالعلم ..

● يعجب الإنسان مما اكتشف أخيراً .. فنحن في الطائفة ، مثلاً ، نشعر وكأننا نمر بنجال ، وقد نرى صور السحب أمامنا وكأنها الجبال التي نراها من بعيد على ظهر

الأرض على شكل سلاسل في الصحراء .. وانفراد القرآن بهذا الوصف قبل أن يتمكن أحد من الصعود عشر كيلومترات في الجو ، ويتعرف على ما فيه ، لا شك هذا نوع من الإعجاز . قبل أن يكون هناك تصوير بالأشعة وقبل أن يكون هناك علم تشریح ، أمكن معرفة أطوار التخلق البشري ونمو الجنين . والمراحل التي ذكرها القرآن وتفرد بها ، ولم تعرف في كتاب لا ديني ولا مدني في الأيام السابقة ، وجاء العلم فوثقها وكملها .. هذا ، من دون شك يدل على الإعجاز ..

ما هو الإعجاز ؟ الإعجاز هو أن يعجز الإنسان عن الإتيان بمثل هذا .. هم عجزوا عن الإتيان بآيات تدانيه ..

□ □ الخلود يعني عجز البشر عن الوصول إلى ما وصل إليه القرآن من الإشارة للحقائق والقوانين العلمية وما إلى ذلك ، إذا سلمنا بأن هناك شيئاً من الإعجاز العلمي .. لكن ، العلم الآن وقد وصل إلى ما وصل إليه ، أثبت ما وصل إليه ، وأصبح ما أثبتته القرآن غير معجز لعالم اليوم .. لقد استطاع العلم كشف آفاق تجاوزت ما ورد من إشارات علمية في القرآن ، لأن ما جاء به القرآن كان معجزاً في عصر معين ، ولا يمكن أن نحكم بإعجازه إلا من خلال ذلك العصر . أما اليوم ، فقد تجاوز العلم تلك الآفاق مما قد يدفعنا إلى القول : بأن هذه الآيات ليست معجزة لعالم اليوم ، وأنه كانت معجزة لعالم الأمس .. والقرآن معجزة لها صفة الخلود ، فلماذا لا نقول : إن هذا من دلائل النبوة ؟

وقد يكون من المفيد ، التفريق بين دلائل النبوة والإعجاز .. الإعجاز هو : الأمر الذي لا يستطيع الناس الإتيان بمثله ، فهو أمر خارق للعادة يعجز الناس عن الإتيان بمثله في كل العصور ..

● كونهم الآن عرفوا تطور الأجنّة، ووصلوا إلى ما هو أبعد من ذلك في هذا الأمر، وكون القرآن ذكر ذلك في فترة ماضية لم يكن العلم، ولم تكن الوسائل مؤهلة لإعطاء الإنسان هذه المعلومة؛ فذلك لا يعني إبطال الإعجاز

الإعجاز ، في أني استطعت بنظر غير طبيعي أن أعرف ما هنالك .. فإذا كان الناس قد وصلوا من بعد إلى هنالك ، وعرفوا ، بقي لي حق تاريخي .

□□ خلود المعجزة ، يعني : استمرارية العجز عن الإتيان بمثلها .. فلو جاء في عصر من العصور ، من استطاع أن يأتي ، ولو جدلاً أو فرضاً ، بمثل القرآن الكريم ، أو بمثل آيات منه ، لبطل خلود الإعجاز ؟

● الخلود يعني الاستمرارية .. والاستمرارية في أني ، مثلاً ، استطعت أن أصل بالطائرة ما بين فلسطين ومكة ، في ربع ساعة مثلاً ، هل هذا يعني أن الإسراء ليس معجزة ؟

□□ لا .. يعني : أن الإسراء معجزة مادية حدثت في زمن معين .. لكن الإسراء ، لم يُعتبر المعجزة الخالدة .. المعجزة الخالدة هي القرآن ..

● معنى إعجاز القرآن العلمي : أنه اكتشف كنه شيء ما كان الناس يستطيعون أبداً أن يعرفوه في حينه .. كون ، بعد قرون ، عُرف أن ما اكتشفه القرآن ، حق ، فهذا دليل صدقه ..

□□ أنا أقول بذلك . أقول : إنه دليل صدقه ، ودليل نبوة الرسول عليه الصلاة والسلام ودليل مصداقية القرآن .. أما تسميته : «إعجازاً» ، فهذا الذي أتوقف عنده ، لأنني أرى ذلك يتعارض مع خلود المعجزة ..

● القرآن هو المعجزة الخالدة .. وإلى الآن لم يستطع أحد أن يأتي بمثله .. والخلاف بيني وبينك حول التسمية « بالإعجاز » خلاف ، لفظي ، ليس له قيمة كبيرة .. والقرآن ليس كتاب تاريخ ، بمعنى أنه لا يحدد مكان الميلاد ولا زمان المآل يد بدقة ، ولا يذكر تفاصيل الوقائع التي يعني التاريخ دائماً بذكرها ، لكنه في نطاق ما يفيد

العبارة ، يذكر الوقائع في قصص الأولين .. فلولا كتب التاريخ لما عرفت أن عاداً تقع في جنوب جزيرة العرب ، إذ القرآن لم يذكر المكان والزمان التي وقعت فيه قصة قوم عاد ، كل ما هناك خصال البشر التي يريد القرآن تهذيبها من غرور وكبرياء وتطاول على الآخرين وجبروت .. الخ هذا هو الذي يهم القرآن ..

هناك بعض الناس يأتي إلى الطب النبوي ويقول لك : « الطب النبوي » .. وأنا لا أستطيع أن أقول أن هناك طباً نبوياً وطباً غير نبوي .

□□ بعض الناس يمكن أن يضع ذلك في طور الإعجاز أيضاً ..

• الطب — كما يقول ابن خلدون أو غيره — من المسائل العادية ، أو من الصناعات .. والصناعة لا علاقة لها بالعبادة .. وليس القرآن مصدراً للدراسة الطب ، أو أنه كتاب طب .. وأنكر « الشاطبي » في كتابه : « الموافقات » ، الإعجاز العلمي .. وتكلم في هذا ، وقال عن الشريعة : إنها أمية ! ونقده الشيخ « ابن عاشور » (٩٦) في تفسيره ، وقال : إن هذا الكلام مرفوض .. الشريعة ليست أمية ، ولكنها إنسانية وراقية جداً ..

يكفيني أنه منذ خمسة عشر قرناً ، أن القرآن تكلم عن أبعاد الكون ، وقال عن النجوم :

﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِمَوْقِعِ النُّجُومِ ۖ وَإِنَّهُ لَقَسْرٌ لِّوَتَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ۖ ﴾ (٧٥)

(الواقعة : ٧٥—٧٦)

(٩٦) محمد الطاهر بن عاشور : رئيس المفتين المالكيين بتونس وشيخ جامع الزيتونة وفروعه بتونس . مولده عام ١٢٩٦ هـ (١٨٧٩ م) . عين (عام ١٩٣٢) شيخاً للإسلام مالكيًا . وهو من أعضاء المجمعين العربيين في دمشق والقاهرة ، توفي عام ١٣٩٣ هـ (١٩٧٣ م) . له مصنفات مطبوعة ، من أشهرها «مقاصد الشريعة الإسلامية» و «أصول النظام الاجتماعي في الإسلام» و «التحرير والتنوير» في تفسير القرآن وغيرها .

فالمُنزل هنا ، من غير شك ، هو الذي تكلم هذا الكلام .. الآن ، أبعاد الكون ، والأرقام الفلكية ، تُعجز الخيال ..

أنا اعتبرت أن كون عيسى عليه السلام شفى مريضاً ، فذلك من الإعجاز .. وكون هذا المريض يشفى بالعلاج بأدوية الآن ، فهذا لا يطل إعجاز عيسى عليه السلام .

□ □ هذا صحيح.. لكن، نحن نقول بأن المعجزة نوعان: معجزة مجردة، مستمرة، ودائمة، وغير مرتبطة بأشخاص الأنبياء.. خالدة مجردة عن حدود الزمان والمكان سيقى الناس عاجزين عن الإتيان بمثلها حتى يوم القيامة، وهي القرآن.. ومعجزة مجسدة مادية مرتبطة بأشخاص الأنبياء وجدت بوجودهم وانتهت بوفاتهم والرسول ﷺ له معجزات مادية مثل: الإسراء، نبع الماء.. الخ.

● ما في هذا شك .. لكن قصة مثل هزيمة الرومان ، وكانت هزيمة ساحقة ، فهذا من غير شك تنبؤ يدل على شيء غير عادي .. فالقرآن ، دخل في مجازفة خطيرة ، تقول الآية :

﴿وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ﴾ (الروم : ٣)

وينحدد :

﴿فِي بِضْعِ سِنِينَ﴾ (الروم : ٤)

ثم يتم ما كان ،

﴿وَيَوْمَ يُفْرَخُ الْمُؤْمِنُونَ﴾ ﴿بِنَصْرِ اللَّهِ﴾ (الروم : ٤، ٥)

وقد جاءت القصة مع نصر الله للمؤمنين في بدر . وهذا كشف عن جانب غيبي هو من غير شك معجزة قرآنية ، باقية لقيام الساعة .. أن يحدث القرآن عن شيء أنه سيقع قبل أن يتبين أي شيء ، فيقع .. فتلك معجزة . وفي آية :

﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّءُوسَ يَا بِأَلْحَقٍ﴾ (الفتح : ٢٧)

إخبار عن شيء سيقع ووقع فعلاً .

ويمكن أن نجد في الأحاديث مثل ذلك : « إذا هلك كسرى فلا كسرى بعده » (٩٧) وهذا وقع فعلاً .. و « ستفتحون مصر » (٩٨) وهذا وقع أيضاً .

أما ما يسمى بالإعجاز العددي ، فهو ضرب من السخف يختلف من كاتب لآخر.. أذكر أنني قرأت كتاباً لأحد المؤلفين، سماه: «تسعة عشر» من قوله تعالى:

﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ (المدثر : ٣٠)

وذكر المؤلف كلمات كثيرة قال : إنها قائمة على العدد تسعة عشر .. وقال كلاماً كثيراً .. من أين هذا ؟ هذا نوع من السخف .. ثم إن القول بأن ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ تتكون من تسعة عشر حرفاً ، فهو كلام سخيف أيضاً . لأنه لكي نتحايل على هذا اعتبرنا الألف محذوفة وغير موجودة نهائياً واعتبرنا الحرف المشدد حرفاً واحداً ، وهذا كلام لا يقال ، ففيه كثير من التعسف لقد أَلَّفَ الرجل جملاً كثيرة وجملاً مضحكة ، يتكون منها العدد تسعة عشر .. ولا يدل هذا على شيء ..

□□ هناك جانب آخر من جوانب الإعجاز القرآني وهو : ذكر بعض الحقائق العلمية للفت نظر الإنسان، ودعوته إلى الملاحظة، والتدبر والاختبار، ووضع الإنسان

(٩٧) الحديث متفق عليه ، رواه البخاري في صحيحه — عن أبي هريرة رضي الله عنه — في كتاب الخمس ، باب : قول النبي ﷺ : أحلت لكم الغنائم . ورواه مسلم في صحيحه — عن جابر بن سمرة رضي الله عنه — في كتاب الفتن وأشراف الساعة ، باب : لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل ، فيتمنى أن يكون مكان الميت ، من البلاء .

(٩٨) الحديث رواه البخاري في تاريخه وقال : لا يصح . ولفظه : « ستفتح مصر بعدي ، فانتجعوا خيرها ، ولا تتخذوها داراً ، فإنه يساق إليها أقل الناس أعماراً » . كما أورده ابن الجوزي في الموضوعات ، في باب ذم مصر ٥٧/٢ .

المسلم في مناخ علمي ، ولم يقرر له علوماً معينة وإنما وضعه في مناخ علمي لينطلق في النظر إلى الكون ، ويستخدم حواسه ..

• منابع الإيمان عندنا في ديننا ، هي التأمل .. وهذا ما ذكره الدكتور راشد المبارك عندما قال : إن كلمة فكر ليس لها ورود في أكثر ما وصل إلينا من التراث الجاهلي ، شعره ونثره . بينما امتلأ بها القرآن ، بل إنه أكثر ما كلف الناس به :

﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَشْئِئًا وَفِرَادَىٰ ثُمَّ تَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ ۖ ﴾ (سبأ : ٤٦)

القرآن ، يجعل بناء الإيمان على دراسات كونية ، ودراسة إيمانية نفسية ، وهو يخالف بهذا ، الكتب السماوية السابقة التي يكاد يكون مصدر الإيمان فيها الرسول الذي جاء يحدث الناس عن الله .. أما تكليف الناس بأن يرتبوا نتائج على مقدمات بفكرهم ، هذا هو الذي فرضه القرآن .. ولذلك ، مع التقدم العلمي الجديد الذي صدق وصف القرآن للكون ، يجيء التلاقي بين العلم والإيمان .

وإذا كان هناك بعض الناس .. يجعل الإيمان من أعمال الوجدان أو القلوب ، إلا أن الإيمان هو أثر من آثار العلم ابتداءً ، ولذلك قوله سبحانه وتعالى :

﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ۖ ﴾
(آل عمران : ١٨)

لا بد من عقل جبار قائم يكشف الحقائق ، ويزيح عنها الستار ، ويتعرف على ما تلمسه الملائكة بحسها ، ونعرفه نحن بعقولنا .. العقل هنا أساس .

عظمة القرآن ، من الناحية العلمية ، أو ما نسميه الإعجاز العلمي ، هي أن

الكون هو الوعاء الذي يضم عناصر الإيمان الأساسية . بدأ قديماً الأمر بالنظر فيه ،
وتحول النظر فيه الآن إلى عمل للناس .. إن ما وضع الناس فيه أصابعهم واستيقنوا
منه، كان القرآن يصوره قبل هذا اليقين، كأنه فعلٌ ملموسٌ.. وهذه هي عظمة القرآن.

القرآن والكسب العلمي

□□ المناخ الذي وضع القرآن الإنسان فيه ، هو : النظر والكسب العلمي ، وما إلى ذلك مما يمكن أن تكون به عمارة الأرض .. ويقوم الإنسان في ضوء ذلك ، بأعباء الأمانة والاستخلاف ..

ما هو — في رأيكم — السبب في تحول المسلمين عن المنبهات العلمية ، والأوامر بالنظر التي وردت في القرآن الكريم ، إلى لون من التخلف ، والجهل بقضايا القرآن ، والعدول ، وعدم القدرة على العيش بمناخ القرآن ، والاستجابة لدعوته ، والتخلف في شعب المعرفة الكثيرة التي يمكن أن يُعتبر القرآن مصدراً لها ؟

● هناك ثلاثة أسباب في نظري: لعل السبب الأول منها يرجع إلى الطبيعة العربية..

الطبيعة العربية طبيعة تهوى صناعة الكلام . وكأن صناعة الكلام عند العرب هي الأساس في التقدم ، وكما قال الدكتور راشد : الرياسة كلها ، والعظمة كلها ، في السيف والقلم . الآن أصبحت الزخارف الكلامية طبيعة عندنا ، وأصبحنا نكتفي بزخارف الكلام وبيانه عن الحقيقة نفسها : فإلى الآن ، تجد أن مشروعاً يقام ، فيكون أول ما يفكر فيه القائمون بأمر : كيف سيكتبون البيان الصحفي الذي يتحدث عن المشروع ، وتجد أن البيان شيء ، وحقيقة المشروع شيء آخر .. فالاهتمام هنا بالبيان أكثر من المشروع نفسه .. فهذه طبيعة رديئة في العرب .

□□ المشكلة أن مقتضيات الرياسة والشهود الحضاري اليوم : الحصول على القضايا العلمية .. وكان يُفترض أن يدفعنا حب الرياسة إلى الحصول أو القبض على مستلزماتها خاصة وأن العرب هم قاعدة الإسلام البشرية الأولى وأن القرآن أعاد صياغتهم فالإمكان قائم لاستئناف الدور .

• صناعة الكلام تجعل أصحابها يهتمون بالبديع والزخارف أكثر مما يهتمون بالحقائق ..

والسبب الثاني في تخلف المسلمين، — وهذا قد يكون مسيئاً لبعضهم — انشغال المسلمين أكثر من المطلوب بالمرويات .. ما صح من السنن يمكن أن يكون عدة آلاف.

لكن، السنن التي انشغل المسلمون بها ولا يزالون، عدة مئات من الألوف .. هذا جمد العقل المسلم، وجعله عقل نقول ومرويات أكثر من عقل بحث في الكون.. سيدنا عمر رضي الله عنه منع الاشتغال بغير القرآن، لكن عصي أمر عمر .. ولو انشغل المسلمون بالمتواتر والصحيح فقط، لكان الأمر هيناً .. لكن، المشكلة، أن المرويات كثرت إلى حد بعيد، والمساحة العقلية للبشر محدودة، فإذا أخذت المساحة هذه المرويات، فما بقي للعقل مساحات أخرى يفكر فيها؟

□ □ لو اقتصروا على المتواتر وما إلى ذلك من الصحيح، لا يمكن عقلاً أن يعتبر ذلك من معوقات النظر في الكون، بل لمساعد عليه، ونبه إليه.. فالتواترات تكمل الرحلة، ولا يمكن أن نعتبر النصّ معوقاً للعقل، ومانعاً له من التدبر والنظر .. لكن المشكلة قد تكون في منهج التعامل مع النص، والتوقف عند الآفاق والأبعاد القريبة ..

• قد تكون المشكلة التي حدثت من انطلاق العقل العلمي، أن هناك مرويات واهيات تصطدم بالعقل العلمي والعقل العملي .. والناس يتهيئون من الإقدام على فحصها واختبارها. وكان من نتيجة ذلك أن العقل المسلم أصبح متخلفاً ..

□□ الحقيقة ، قد يكون من أسباب هذا ، ما أتينا على ذكره من إلغاء نظرية السببية ، ورد الأمور إلى أسبابها ، ونسبتها إلى قوة علوية ، مع أن الأمر لا يتعارض مع الإيمان كما توهموا ، فالله هو الذي خلق الأسباب ، وجعلها مقدمات لحصول النتائج والمسببات .. لذلك ، فمنهج إلغاء الأسباب ، وعدم التعرف عليها ، والتعامل معها ، أوقع المسلمين في العطالة والعجز عن الفحص والاختبار ، واكتشاف مواطن القصور ، واستشعار المسؤولية ، مع أن الله يقول :

﴿ قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ ﴾ (آل عمران : ١٦٥)

فأن تنقلب العقول والمؤسسات الإسلامية إلى معوق للنهوض العلمي — كما حدث في أوروبا في القرون الوسطى عندما كان العلماء يحاولون كشف السبب لأي نتيجة ، كانت تقوم الكنيسة على العالم وتقول : إن النتائج من الله وليست من الأسباب التي تفعلونها .. والقوانين التي تضعونها أنتم تضارعون الله بها ، وتتعدون على سلطته — فهذا هو الموت العقلي ، والشلل الفكري الذي نقضته الرؤية القرآنية ..

● مثل هذا لم يقع إطلاقاً في محيطنا الثقافي ، لأن نظرية الأشاعرة في أن السبب لا يؤثر ، وإنما تجيء قدرة الله عند السكين ، وأن السكين لا تقطع بنفسها ، وأن النار لا تحرق بنفسها .. الخ ، هذا الكلام ، انتشر بين الأشاعرة ، وفيه من موارث اليونان ، الكثير .. ذلك أن اليونانيين قالوا بأنه : لا يوجد رباط عقلي بين السبب والمسبب .. لكن ، السلفيين رفضوا هذا الكلام .. كما رفضه المعتزلة أيضاً ، على ما أعتقد ..

فهذه وجهة نظر لبعض الناس .. لكن ، أسباب انهيار الحضارة كثيرة .. والذي يهمني الآن في ما يسبب تخلف المسلمين .. ممكن نرجع إلى الأسباب التي ذكرناها آنفاً .. لكن ، أولها — وهذا هو المعنى الثالث الذي أريد أن أذكره — فساد الحكم ..

محمد ﷺ الذي عاش فقيراً ، حكم باسمه من يريد جمع القناطير المقنطرة من

الذهب والفضة ! محمد ﷺ الذي ألغى الأنساب ، وقال لقومه : « لا يأتيني الناس بأعمالهم وتأتوني بأنسابكم » (٩٩) هو الذي قامت قبيلته بفرض نظام الأنساب ، واستغلال الصلة بالأسرة النبوية ، أو الأسرة نفسها ، في حكم المسلمين .. ففساد الحكم ، كان له دخل هائل .. وليس عند الحاكم مانع في أن يشغل الناس أنفسهم بالمرويات التافهة ، بل يضع لهم من يؤلف لهم « عنترة بن شداد » ، و « حمزة البهلوان » ، و « ألف ليلة وليلة » حتى ينشغلوا عنه .. وفساد الحكم ، من أهم أسباب انهيار الحضارة الإسلامية ..

□□ ألا تعتقدون هنا : أن إعطاء الحاكم هذا القدر الكبير في القدرة على التغيير ، وعلى التحكم ، والتعطيل وما إلى ذلك ، يمكن أن يلغي دور الأمة في قدرتها على التغيير ، ويجعلها أسيرة في يد الحاكم مع أن القرآن يجعل أسباب التخلف ترجع إلى عدة أمور؟

● هذا ما حدث للأسف .. وعندي ، كمثال: الفقهاء الأربعة .. فقد كانت صلتهم بالحاكم سيئة جداً . وعندما وقع البطش بهم ، ما أغنت عنهم الأمة ! فابن حنبل رحمه الله عُذب كثيراً ، وأبو حنيفة رحمه الله مات في السجن .. ابن تيمية رحمه الله ، ظل حياته سجناً .. مالك رحمه الله ، كسر ذراعه في فتوى سياسية ، فقد أفتى بأن إيمان التواطؤ على البيعة لا قيمة لها ، فكسرت ذراعه ، وأصبح لا يخرج للناس في صلاة الجمعة .. والشافعي رحمه الله ، لولا حنكته ، لمات قتيلاً ، فقد قبض عليه مع تسعة آخرين قتلوا جميعاً ..

فالفساد السياسي عندنا ، له أثر أكبر من غيره . ولذلك أحب أن يلتفت المسلمون إلى أن الفساد السياسي سيعيق نهضتهم ما بقي هؤلاء الساسة المستبدون وما بقي حكم الفرد والاستبداد السياسي ..

(٩٩) الحديث رواه الحاكم في مستدركه عن رفاعه بن أبي رافع رضي الله عنه في كتاب معرفة الصحابة ، باب : فضائل قريش ، بلفظ « لا يأتيني الناس بالأعمال وتأتون بالأثقال فيعرض عنكم » وقد صححه الحاكم وتابعه الذهبي . المستدرک ٧٣/٤ .

لكننا حائرون ! الرعاع الذين حكموا في العالم العربي باسم الثورة والاشتراكية ، والديمقراطية ، كان لهم بطش لم يعرفه الأباطرة الظلمة من آل عثمان ، ولا خلفاء السوء من العباسيين ! والمؤسف أن ظلت تقاليد بعض الأسر الحاكمة ، أشرف من الحريات التي ادعاهها هؤلاء الرعاع !

[] يبقى صعباً قبول المعادلة : أن يكون هذا القرآن الذي ينشئ أمة ويحضنها على التفكير ، والنظر ، والبناء ، وارتداد الآفاق العلمية ، ويحصنها ضد الاستبداد السياسي وما إلى ذلك ، أن تقع أسيرة في فترات من تاريخها لنماذج من الحكام الظلمة يتصرفون بشؤونها ! أمة لها ميراث ثقافي وحضاري وتاريخي ، حتى في مجال الحكم ، في الفترة الراشدة ، تغتال هذه المعاني فيها ، وتقع من ثم أسيرة في قبضة حكام مستبدين ، في فترات معينة ، فتلك معادلة يصعب قبولها .

● دولة الخلافة الراشدة ، لها قسمان : قسم معترف بأن لا نظير له (دولة أبي بكر وعمر) . أنا أرى أن عثمان (١٠٠) وعلي رضي الله عنهما ، بالرغم مما حولهما من لغط كثير ، يمثلون فعلاً الخلافة الراشدة .. لأن عثمان رضي الله عنه لم يفكر قط ، بتعبير العصر الحديث ، بأن يأمر بإطلاق الرصاص على الجماهير .. بل كان طيعاً في أيدي الجماهير ، وشاعراً بأنه لا يملك الاستئثار بالأمر برمته .. ولعلي أظن أن العرب فوجئوا بهذا اللون من النظام الذي أعطاهم حريات ما كانوا يحلمون بها ، فلم يحسنوا استغلالها ، فكان رد الفعل أن سلبوا الخلافة الراشدة ، وجاءت الخلافة — باتفاق —

(١٠٠) هو عثمان بن عفان بن أبي العاص . قرشي أموي . أمير المؤمنين . وثالث الخلفاء الراشدين . وأحد العشرة المبشرين بالجنة من السابقين إلى الإسلام . ولد عام ٤٧ قبل الهجرة ، وكان غنياً شريفاً في الجاهلية ، وبذل من ماله في نصرة الإسلام . زوجه النبي ﷺ بنته رقية ، فلما ماتت زوجه بنته الأخرى أم كلثوم ، فسمي ذا النورين . بويع بالخلافة بعد أمير المؤمنين عمر . واتسعت رقعة الفتوح في أيامه . أتم جمع القرآن . وأحرق ما عدا نسخ المصحف الإمام . نقم عليه بعض الناس تقديم بعض أقاربه في الولايات . قتله بعض الخارجين عليه بداره يوم الأضحى عام ٣٥ هـ وهو يقرأ القرآن .

غير راشدة .. فالخلافة التي جاءت من بعد ، سواء كانت أموية أو عباسية ، كانت غير راشدة ، لأنها جاءت بطريق : كسرى عن كسرى .. الخليفة مات ، فالحكم وراثي ! ويتحايلون على ذلك بالمبايعة ! ما قيمة المبايعة ؟ .. مثلهم في ذلك مثل بني إسرائيل ، عندما حُظر عليهم الصيد يوم السبت ، حجزوه يوم السبت ، وأخذوه يوم الأحد !

رأيت الشورى في موضعين : كان يمكن أن تُلغى الشورى فيهما لو أن الإسلام نزاع إلى حكم الفرد .. في هزيمة أحد أكذ الرسول ﷺ على الشورى مع أن الهزيمة — بحسب الظاهر — كان سببها الشورى .. هذه واحدة .. الشيء الثاني : في سورة الشورى وجدت أن الشورى سابع خصلة من خصائل الإيمان التي لا أجد من بينها خصلة واحدة يمكن اعتبارها نافلة ، يقول تعالى :

﴿ فَمَا أَوْتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَنْعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ وَالَّذِينَ يَحْنَبُونَ كِبِيرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ (الشورى : ٣٦ — ٣٨)

أي شيء في هذه الخصال ، نافلة ؟ كلها فرائض ، ومع ذلك استقر في الفقه ، وفي التفسير ، أن الشورى غير ملزمة !.. من أين جاء ذلك ؟ إنه أثر الحكم الفاسد .. ثم ، ما معنى أن تكون الشورى غير ملزمة ؟ وما فائدتها إذن ؟ ذلك تفكير عقيم وخطير .

● أرى أن غيرنا استطاع ، على عجل ، أن يحل إشكاله ولو بالسيف : الإنجليز ، والفرنسيون ، والأمريكان .. عانت الجماهير من الحكم والاستبداد ، فقاومته .. لذلك ، أنا أرفض الاغتيال السياسي ، لأن الاغتيال يدل على شجاعة فرد ، وجبن أمة ، ولذلك يذهب من يُغتال ويحيى بعده من يكون أسوأ منه ، أو مثله ، وانتهى الأمر .. لم يصنع هذا الغربيون عندما استأصلوا الجرثومة من أساسها بثورات كبيرة .

أزمة فكر... لا أزمة منهج وقيم

□□ هل يعاني المسلمون اليوم من أزمة في المنهج كانت سبباً في أزمتهم الفكرية ، أم أنهم يعانون من أزمة فكر وفهم ، ووسيلة فهم للمنهج الذي شرعه القرآن بقوله :

﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ (المائدة : ٤٨)

﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾
(الأنعام : ١٥٣)

فالقرآن موجود بين أيديهم كما كان موجوداً بين أيدي الصحابة ، ونصوصه محفوظة .. لكن ، المشكلة : بالتعامل والفهم .. ومالك رضي الله عنه — وهو على رأس القرن الثاني من الهجرة — يقول : لا يصلح أمر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها ..

فهل نقول : بأن نهوض أي مجتمع ، مرهون بتوفير ظروف وشروط ميلاده الأولى ، ومن ذلك : حسن الفهم للقرآن ، وحسن التعامل معه ؟ وقد تكون الخطورة كبيرة إذا سلمنا بوجود أزمة منهج مع وجود القرآن والسنة !

● امتاز العرب الذين صحبوا النبي عليه الصلاة والسلام ، بأنهم تلقوا الرسالة بسليقتهم ، ووصلوا إلى أعماقها دون تكلف ، وكانوا أشعة لها .. فعندما أنظر إلى بدوي مثل ربيعي بن عامر يكلم قائد الفرس ويقول له : جئنا نخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله .. من أين فهم الرجل هذا الكلام ؟.. من نضح القرآن على نفسه ..

لقد أوجد القرآن ناساً استطاعوا أن يرتفعوا فوق مستوى عقل الفرس ، وعقل الروم ، وهذه دول لها حضارة لا يمكن إنكارها لكنها تلاشت ، وعندما تعامل العرب

معهم ما كانت هناك عقدة نقص أبداً عند العرب ، بل كان هناك استعلاء إيمان .
والذي صنع هذا في نفوسهم ، هو : القرآن .

بقي ، أن القرآن حمّال أوجه — كما يقال — وهذا جزء من إعجازه ، وليس عيباً
فيه .. وكون الآيات مرنة ، فذلك لكي تطاوع العصور كلها . لكن ، مع حسن
النية ، وسلامة وشرف القصد ، فإن المرونة تكون أساساً لسعة العصور كلها ، لا
أساساً للعب والعبث . ومع ذلك . فإذا كان هناك أساس للعبث من أنه حمّال
أوجه ، تأتي هنا السنّة ، ما تواتر منها وما صح .. وهذا ما نستطيع أن نضمه للقرآن
في تكميل المنهج ..

ويبقى بعد هذا ، منطلق واسع للفكر الإنساني كي يبدع لأن المنقول من القرآن ،
أو التعاليم التي تصوغ قوالب محددة في القرآن الكريم ، غير موجودة بالنسبة للسلوك
السياسي ، والاجتماعي ، والدولي ، وذلك لأنه عندنا مبادئ عامة وقيم تضبط السير ،
وهذا يعطي القدرة على الإبداع ، وأن يتحرك الإنسان ويعمل ويتحرى ضمن حدود ،
وضوابط ، وقيم معينة ، ودون خوف من منزلقات .. ولذلك أنا معك في أن المنهج
قائم ، وهو الكتاب والسنّة .. ويكاد يكون عدد كبير من الناس يرون أن الحل الأول
والأخير — تبعاً لما لك في كلمته ، وهو حديث مشهور : « تركت فيكم شيئين لن
تضلوا بعدهما كتاب الله تعالى وسنتي .. » (١٠١) .. المنهج من الكتاب والسنّة ،
لكن هناك بعض الناس يأتي ويأخذ من سورة عاد :

﴿ وَإِذَا بَطَشْتُمْ رِجَالَكُمْ لَتُرْجَبْنَ ﴾ (الشعراء : ١٣٠)

ويعيب على الملوك في عهده أنهم جبابرة !

من قصص القرآن ، آخذ الفكر العام : أن لا يكون الحاكم جباراً ، وأن لا تكون

(١٠١) الحديث رواه الحاكم في المستدرک عن أبي هريرة رضي الله عنه .

السلطة قاهرة بمثل تلك الطريقة .. وأخذ أيضاً من قوله تعالى :

﴿ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ﴾ (البقرة : ٨٥)

ضرورة أن الإسلام متكامل ، لا يقوم بعضه في غيبة بعضه الآخر ، ولا بد من هذا التماسك ..

كلمة عمر رضي الله عنه عن حقوق الإنسان والتي هي أول بند في ميثاق الأمم المتحدة، لم يرتبها، ولم يجلس لصياغتها، وإنما استمدّها من المناخ الذي وضعه فيه القرآن: (متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً) ، ونتيجة لتجاوبه مع القرآن وفهمه له..

انطلاق أبي بكر لضرب الفرس والروم ، انطلاق من أن سطوة الحق في نفسه ، دلته على أن الباطل لا يمكن أن يحكم بهذه الطريقة ، وعرف رسالة الأمة العالمية ، ومعنى أن محمد ﷺ رحمة للعالمين ، أي أن يهدي هذه الشعوب التي حولهم ، وإلحاق الرحمة بها ، وفك إسارها ، وإخراجها من السجن الكبير الذي تعيش فيه..

المنهج هو المنهج ..

القرآن هو القرآن . لكن ، إلى الآن ، أين المتدبرون؟! أنا أتأمل الآية في همس وأتأملها وأنا أخافها أحياناً ، وأتأملها دون أن يتحرك لساني بشيء ، أجد أنه قد نضحت معاني كثيرة منها في نفسي .. الناس تنسى هذا كله ، وتتبع النغم من قارئ يُشبه المزمار الخنس ، يريد أن يلحن القرآن بصوته ، وانتهى الأمر! أهكذا يُعامل الكتاب؟! الكتاب لا يُعامل بأن يُحوّل إلى موسيقى!! الكتاب لا يُعامل بأن يُحوّل إلى تراويل دينية!! المعاملة التي عومل بها القرآن من جانب المسلمين ، معاملة شاذة!

المنهج قائم ، في الكتاب .. وما أجمله الكتاب ، فقد أجمل عمداً حتى تكون التفاصيل والاحتمالات عندي كثيرة .. وأنا عندما قلت : إن حق الطلاق عند الرجل يقابله حق الخلع عند المرأة ، اعتمدت على آية ، فليس هناك إهانة لأحد الجنسين ، ولا هناك ضمانات لاستعلاء أحد الجنسين بما ينفس الجبروت البشري في بعض الخلق .. لا . المرأة إذا كرهت البيت مثل الرجل إذا كره البيت . هو يطلق ، والمرأة تخالع .. ومن حقها ذلك .. والآية التي اعتمدت عليها في ذلك هي قوله تعالى :

﴿ الطَّلَاقُ مَرَّتَانٍ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَنٍ وَلَا يَحِلُّ لَكُمُ أَنْ تَأْخُذُوا بِمَا
ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا
فِيمَا افْتَدَتْ ﴾ (البقرة : ٢٢٩)

فكلمة ﴿ فيما افتدت به ﴾ ، هي الشاهد .. وقوله تعالى : ﴿ حدود الله ﴾ يدل على أن الأسرة محكومة بحدود الله وشرعية الله .. وكلمة ﴿ الطلاق مرتان ﴾ نفسها ، تنبيه إلى كل من عن له أن يطلق ، أن يراقب وأن يترث ، وذلك إلى ضميمه : وجود حكمين وغيرها من المراحل التي تسبق عملية الطلاق ..

□ □ يمكن أن تنتهي الآن في هذه المناقشة إلى: أن المنهج قائم، وأن المسلمين لا يعانون من أزمة منهج، وإنما يعانون من أزمة فكر، وتعامل، وفهم لهذا المنهج .. فكان المفروض: إعادة النظر في أداة التوصيل، أو مناهج التفكير التي تصل المسلمين بالقرآن، أكثر من التفكير في ابتكار مناهج جديدة حملت بعض المسلمين إلى استيراد مناهج من حضارات وأيديولوجيات أخرى، ظلُّوا فيها الخلاص ..

• المطلوب اليوم: وجود ضمانات شعبية، أو عقلية، أو مادية، أو قانونية .. الخ للعلماء والمفكرين والفقهاء. ذلك أني أرى أن عقلاء هذه الأمة يُظلمون واحداً بعد الآخر، ويعيشون مشردين.. وفي العصر الذي أنا منه الآن، رأيت خيرة قادة الفكر الإسلامي، إما ماتوا مظلومين، أو مضطهدين، أو مُضيقاً عليهم الخناق، أو إن ظفروا بعيش هادئ فلا أسباب غير عادية، استثنائية، كأن الأساس هو: أن الإنسان طالما كان من فقهاء الإسلام ومفكره، يُضرب حوله نطاق فلا يتصل بأحد ولا يتصل به أحد، أي يجب أن يبقى مقطوع الاتصال بالناس. وإذا حدث أن حاول أن يتطلق هنا وهناك، يعتقل، يسجن .. جمال الدين الأفغاني (١٠٢) مثلاً، كانت

(١٠٢) محمد بن صفدر الحسيني، جمال الدين: فيلسوف الإسلام في عصره، ولد في أسعد آباد عام ١٢٥٤ هـ (١٨٣٨ م) بأفغانستان، ونشأ بكابل، وتلقى العلوم بها، وبرع في الرياضيات، وسافر إلى الهند، ثم رحل إلى الآستانة فجعل فيها من أعضاء مجلس المعارف. ونفي منها سنة (١٢٨٨ هـ) فقصده مصر، فنفع فيها روح النهضة الإصلاحية، في الدين والسياسة، وتلمذ له نابغة مصر الشيخ محمد عبده، وكثيرون. ونفته الحكومة المصرية فرحل إلى حيدر آباد، ثم إلى باريس. وأنشأ فيها مع الشيخ محمد عبده «جريدة العروة الوثقى» والتقى بشاه إيران «ناصر الدين» ودعاه هذا إلى بلاده، فسافر إلى إيران. ثم ضيق عليه، فاعتكف في أحد المساجد سبعة أشهر، كان في خلالها يكتب إلى الصحف، ومرض بعد هذا بالسرطان، في فكه، ويقال: دس له السم. وتوفي في الآستانة عام ١٣١٥ هـ (١٨٩٧ م). له «تاريخ الأفغان»، و «رسالة الرد على الدهريين» وغيرهما.

عيشته سيئة ، كذلك الشيخ محمد عبده ، والكواكبي (١٠٣) ، وحسن البنا ، وسيد قطب ، وعبد القادر عودة (١٠٤) ، وآخرون غيرهم .. كل من رأيت من إخواننا الذين لهم فكر ، ويريدون العمل هنا وهناك ، لا يعاملون إلاّ معاملة قطاع الطرق ، والأمة مسؤولة عن هذا .. وما قيمة أن يقال : إن الناس قلوبهم مع الحسين (١٠٥) ، وسيوفهم مع يزيد (١٠٦)؟! ما يعني أن الشعب يحبني ، إذا كان سيتركني أقتل؟!!

أنا رأيت بعض الناس ينصح واحداً من الدعاة الأقوياء ويقول له : يا أخي هون

(١٠٣) عبد الرحمن بن أحمد بن مسعود الكواكبي . ويلقب بالسيد الفراقي . رحالة ، من الكتاب الأدباء . ومن رجال الإصلاح الإسلامي . ولد عام ١٢٦٥ هـ (١٨٤٩ م) وتعلم في حلب ، وأنشأ فيها جريدة «الشهباء» فأقفلتها الحكومة . وجريدة «الاعتدال» فغطلت ، وأسندت إليه مناصب عديدة ، ثم حنق عليه أعداء الإصلاح ، فسعوا به ، فسجن وخسر جميع ماله ، فرحل إلى مصر ، وساح سياحتين عظيمتين إلى بلاد العرب وشرقي افريقية وبعض بلاد الهند ، واستقر في القاهرة إلى أن توفي ١٣٢٠ هـ (١٩٠٢ م) . له من الكتب «أم القرى» ، و «طبائع الاستبداد» .

(١٠٤) عبد القادر عودة : محام من علماء القانون والشرعة بمصر ، كان من زعماء جماعة «الإخوان المسلمين» ولما أمر جمال عبد الناصر بتنظيم «محكمة الشعب» كتب نقداً لتلك المحكمة . واتهم بالمشاركة في حادث إطلاق الرصاص على جمال (١٩٥٤ م) وأعدم شنقاً على الأثر مع بضعة متهمين آخرين في نفس العام . له تصانيف كثيرة ، منها «الإسلام وأوضاعنا القانونية» ، و «الإسلام وأوضاعنا السياسية» ، و «التشريع الجنائي الإسلامي مقارناً بالقانون الوضعي» جزآن ، و «المال والحكم في الإسلام» ، و «الإسلام بين جهل أبنائه وعجز علمائه» .

(١٠٥) هو الحسين بن علي بن أبي طالب ، أبو عبد الله الهاشمي ، سبط رسول الله ﷺ وريحانته من الدنيا وأحد سيدي شباب أهل الجنة . ولد بالمدينة عام ٤ هـ ، وقيل بعدها ، وكانت إقامته إلى أن خرج مع أبيه إلى الكوفة ، فشهد معه الجمل ثم صفين ثم قتال الخوارج وبقي معه إلى أن قتل ، ثم مع أخيه إلى أن سلم الأمر إلى معاوية فتحول مع أخيه إلى المدينة . أخرج له أصحاب السنن أحاديث يسيرة . كان فاضلاً عابداً . قتل بالعراق بعد خروجه أيام يزيد بن معاوية عام ٦١ هـ .

(١٠٦) يزيد بن معاوية بن أبي سفيان الأموي : ثاني ملوك الدولة الأموية في الشام . ولد بالماطرون عام ٢٥ هـ (٦٤٥ م) ونشأ بدمشق . وولي الخلافة بعد وفاة أبيه (٦٦٠ هـ) وأبى البيعة له عبد الله بن الزبير والحسين بن علي ، فانصرف الأول إلى مكة والثاني إلى الكوفة ، وفي أيام يزيد هذا كانت فاجعة المسلمين بالسبط الشهيد «الحسين بن علي» سنة ٦١ هـ . وخلع أهل المدينة طاعته (سنة ٦٣ هـ) فأرسل إليهم مسلم بن عقبة المري ، وأمره أن يستبجحها ثلاثة أيام وأن يبيع أهلها على أنهم خول وعبيد ليزيد ، ففعل بها مسلم الأفاعيل القبيحة ، وقتل فيها كثيراً من الصحابة وأبنائهم وخيار التابعين . ومدته في الخلافة ثلاث سنين وتسعة أشهر إلا أياماً . توفي بحوارين (من أرض حمص) عام ٦٤ هـ (٦٨٣ م) .

عليك ، فسيلقى القبض عليك ، وتأخذك الدولة ، والذين استمعوا إليك سيذهبون إلى بيوتهم ، ليأكلوا أو يعاشروا نساءهم ، وكأن شيئاً لم يقع ! ولولا أن الذين يحملون الدعوات — كما قال شوقي (١٠٧) :

إن الذي خلق الحقيقة علقماً

لم يُخل من أهل الحقيقة جيلاً

ولولا أن بعض الناس يرى أنه لا بد أن يقول الحقيقة ، ولو مات ، ولو أن الموت في هذا يكسبه الشهادة ، ما بقي للإسلام من يتحدث عنه وباسمه .. يقول المتنبي :

حتى رجعت وأقلامي قوائل لي المجد لل سيف ليس المجد للقلم
أكتب به أبداً قبل الكتاب بنا فإنما نحن للأسيف كالخدم
فإذا كانت وظيفة القلم ، أو الرأي ، أن يخدم أصحاب السلطة ، فإن الأمة الإسلامية ستكون آخر الأمم ، بالطريقة التي تعيش بها .

والغريب أني لا أرى هذا في العالم الآخر !

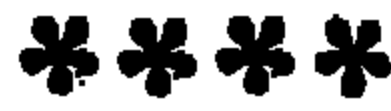
عندنا أزمة فهم .. عندنا أزمة فقه .. وعندنا مع هذا وذاك أزمة فكر .. والمحزن أن الذين يملكون الفكر ، يملكونهم من يملكون السيف .. فالحنة كبيرة في العالم

(١٠٧) أحمد شوقي بن علي بن أحمد شوقي : أشهر شعراء العصر الأخير . يلقب بأمير الشعراء . مولده عام ١٢٨٥ هـ (١٨٦٨ م) بالقاهرة . نشأ في ظل البيت المالكي بمصر . وتعلم في بعض المدارس الحكومية . وقضى سنتين في قسم الترجمة بمدرسة الحقوق ، وأرسله الخديوي توفيق سنة ١٨٨٧ م إلى فرنسا . فتابع دراسة الحقوق في مونبلييه ، واطلع على الأدب الفرنسي ، وعاد سنة ١٨٩١ م فعين رئيساً للقلم الإفرنجي في ديوان الخديوي عباس حلمي . وندب سنة ١٨٩٦ م لتمثيل الحكومة المصرية في مؤتمر المستشرقين بجنيف . ولما نشبت الحرب العالمية الأولى سافر إلى إسبانية سنة ١٩١٥ وعاد بعد الحرب (في أواخر سنة ١٩١٩ م) فجعل من أعضاء مجلس الشيوخ إلى أن توفي عام ١٣٥١ هـ (١٩٣٢ م) . عالج أكثر فنون الشعر : مديحاً ، وغزلاً ، ورثاءً ، ووصفاً ، ثم ارتفع محلقاً فتناول الأحداث السياسية والاجتماعية ، في مصر والشرق والعالم الإسلامي ، فجري شعره على كل لسان . وكانت حياته كلها «للشعر» يستوحيه من المشاهدات ومن الحوادث . اتسعت ثروته ، وعاش مترفاً ، في نعمة واسعة ، ودعة . من آثاره : «الشوقيات» أربعة أجزاء ، وهو ديوان شعره .

الإسلامي ، ما بقي السيف قادراً على ضرب الفكر ، وتحديد إقامته ..

أنا قرأت الكتب التي تُسمى سماوية ، فوجدت أنها ينبغي أن تلقى في أماكن القمامة .. ليس فيها شيء .. وكذلك الأمر بالنسبة لكثير من الفلسفات ، فأنا أظلم ديني وكتابي عندما أرى هؤلاء فعلوا شيئاً ، بالنسبة لما عندنا .. وأظن أن كلمة ابن حزم (١٠٨) رحمه الله ، التي يقول فيها : إن لكل مسلم الحق في طعام وشراب ولباس وبيت يقيه من الشمس وعيون المارة .. وأن هذا حق يقاتل عنه ، ما أظن اشتراكياً في أوروبا قال هذا الكلام .. ولو قاله واحد من الاشتراكيين بهذا التحديد ، لاشترت كلماته بالذهب هناك ، كما يقولون .

الكلمة عندنا — وأمور أخرى كثيرة — أهيل عليها التراب ، لسطوة الحكم الفردي !!



(١٠٨) هو علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الظاهري . أبو محمد ، عالم الأندلس في عصوره . أصله من الفرس . كانت لابن حزم الوزارة وتدير المملكة ، فأنصرف عنها إلى التأليف والعلم . كان فقيراً حافظاً يستنبط الأحكام من الكتاب والسنة على طريقة أهل الظاهر ، بعيداً عن المصانعة حتى شبه لسانه بسيف الحجاج . طارده الملوك حتى توفي مبعداً عن بلده . كثير التأليف . ولد عام ٥٣٨٤ هـ . وتوفي عام ٤٥٦ هـ . من تصانيفه : «المحل» في الفقه ؛ و «الإحكام في أصول الأحكام» في أصول الفقه ؛ و «طوق الحمامة» في الأدب .

الاستبداد السياسي ووسائل التغيير في الخطاب القرآني

□ □ قلم : إن السبب الرئيسي لمعظم المشكلات التي نعاني منها نحن المسلمون : فساد الحكم ، أو الاستبداد السياسي الذي أتى بدوره على قدرة الأمة على الامتداد في مختلف المجالات .. وهذا صحيح من الناحية الواقعية ، إلى حد بعيد ..

لكن ، الشيء الذي يشغل البال حقيقة هو قدرة الحكم على غلبة الأمة — الجماهير — على امتدادها ! كيف ؟

لا شك أن ذلك إنما يكون بسبب وجود القابليات عند الأمة لهذا النوع من الاستبداد السياسي ! فلولا هذه القابلية لما امتد الاستبداد ، « فكما تكونوا يولئ عليكم » .

والأمر المحير : أن الأمة التي لها هذا الميراث الثقافي ، وهذه القيم الهادية ، إضافة إلى تجربة الخلافة الراشدة ، وما إلى ذلك ، يستطيع وبسهولة — فرد ، أو نظام ، أو طبقة ، أو مجموعة ، أو عشيرة ، أو قبيلة ، أن تلغي دور الأمة ! هذه قضية ملفتة ، خاصة والدراسات الحديثة تجعل التاريخ من صنع الأمم وليس من صناعة الأفراد .. وهو كذلك حقيقة ، لأن الأفراد في نهاية المطاف ينشأون في مناخ الأمة الثقافي وظرفها الاجتماعي ..

إن أمة يستأثر بها حاكم ، أو ظالم أو مستبد ، أمة لا يوثق بها أصلاً أن تكون قابلة للحياة والامتداد وصناعة حضارة .

هذا جانب ، حبذا لو أمكن أن نلتقط له بعض مؤشرات من القرآن الكريم بأن الظلم والفرعنة والاستبداد والفسوق الذي هو ثمرة من ثمار الاستبداد السياسي ، كان سبب سقوط كثير من الأمم ؛ وكيف انتصر المستضعفون ، والأسباب المادية والنفسية التي وراء انتصارهم على قوى الظلم والاستبداد ؟

● في اعتقادي أن هناك أمرين :

أولاً : أحاديث الفتن التي شاعت بين الناس ، فُهمت فهماً مغلوطاً ، ولم تُشرح الشرح الصحيح .. انضم إليها ، أن بعض الذين مشوا مع ظاهر القرآن وظواهر تغيير المنكر ، فشلوا كذلك ، لأنهم ما استطاعوا أن يكونوا فقهاء أو ساسة يدرسون المعارك التي يخوضونها ضد دولة مستقرة . فكانت فرق الخوارج تخرج بدون وعي ، ولأنها تمثل نوعاً من مقاومة الظلم ، ولكن مقاومة بدائية صبيانية .

أحاديث الفتن أدت إلى اعتزال عدد كبير من الفقهاء لأنهم رأوا خدمة الجماهير عن طريق التربية والتعليم أفضل من الدخول في مغامرات لا تعرف نتائجها .. هذا كله انتهى إلى الوضع السياسي الذي شكونا منه .

الأمة نفسها ، من غير شك ، مسؤولة أمام الله ، عن طريق فهمها للإسلام .. لقد استطاع الإسلام أن يدخل الشعوب التي هزمتها في الإسلام مثل التتار وغيرهم ..

القصة ، يمكن أن تكون فيها عدة عناصر . وأنا أرى : أن عدم قدرة الشعب العربي على رسم خطة معقولة وطويلة الأمد ليتخلص من مشكلاته ، أضر بالأمة الإسلامية لأن العرب هم الذين قادوا الإسلام .

ولا أنسى أن هناك عادات جاهلية عند العرب تسربت إلى الحكم الإسلامي وإلى المجتمع الإسلامي نفسه .. فقصة أن المرأة إنسان من الدرجة الثانية ، وأنها لا تُعامل حتى فيما كفله الشرع كالموارث ، وفيما كفله الله من حق اختيار الزوج ، ولا يلتفت إلى وضعها ..

لقد غلبت هذه التقاليد على قيم الدين الإسلامي ، ولا تزال غالبية عند بعضهم إلى الآن .. فبالرغم من أن أمتنا في عصر نحن نقاتل حتى يستطيع الناس تغيير رأيهم .. فإن العادات عند هؤلاء تكاد تكون أهم من العبادات والتقاليد الروحانية التي جاء بها الإسلام .

تغيير الأفكار والتفوس.. هو الأساس

□ □ كثير من الناس يرى: أن التغيير المطلوب هو تغيير ثقافي نفسي ، وأن التغيير الثقافي هو الذي يستتبع ويؤدي إلى التغيير السياسي ؛ — ذلك أن السياسة أحد مظاهر الثقافة — وأن مواطن التغيير الحقيقية والتشكيل الحقيقي في الإنسان ، هي مواطن التربية والدعوة ؛ وأن الحكم يمكن أن يأتي ثمرة لذلك .. فهم يفكرون بأن الخلل الذي لحق بالأمة ، يمكن أن يكون خللاً فكرياً أو ثقافياً وليس سياسياً ، لأن الخلل السياسي إنما تربع وامتد في إطار الخلل الفكري ، أو التربوي ، أو الدعوي الذي شكل القابلية لامتداد الخلل السياسي . والله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ إِنَّا لَا نَبْدِلُ مَا يُعْطَىٰ مَا يَكُونُ حَتَّىٰ يَغْيِرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾ (الرعد : ١١)

حبذا لو أعطيتمونا من خلال بعض الآيات نماذج على نهوض الأمم من خلال التغيير الثقافي ، وإصلاح عالم الأفكار ؟

• قولك بأن الخلل قد يكون فكرياً ثقافياً ، فهذا صحيح .. وأنا لاحظت أن الثقافة الإسلامية ، حدث فيها شيء من العوج . فمن ناحية التربية والتصور ، انسحب الناس من الحياة .. رأوا أن المجتمع فاسد ، فانسحبوا وهربوا منه بدل أن يغيروه ..

وإذا نظرنا في فقه المعاملات والعبادات ، أنا لا أعرف أمة أطالت الوقت في الفروع الفقهية ، كأمتنا .. الضوء مثلاً ، يمكن أن يتعلم في دقيقتين ، فما الذي يجعل فيه مئات الصفحات والكتب ، بل والمجلدات ، وتختلف المذاهب فيه ؟ هذا شيء عجب ! حتى أنني أسميت الضوء : « علم تشریح الضوء » !

لا شك أن هذه المساحة التي أخذها البحث في الفروع الصغيرة ، كانت على حساب القضايا الكبيرة .

□□ نلمح من معطيات القرآن الكريم : أن التغيير هو تغيير النفوس :

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ (الرعد : ١١)

والتغيير يشمل كل الجوانب — النفسية والثقافية — التي فيها إعادة تشكيل الإنسان .. بينما لم يطل في القضية السياسية ويعطيها البعد أو الحجم نفسه ، واعتبرها ثمرة وليست مقدمة .. فكوننا نعطي الأهمية الكبرى للاستبداد السياسي على حساب موطن التغيير الأساسي وهو ميدان النفس ، فكأننا — نحن المسلمين — افتقدنا ضبط النسب أو التوازن في النظر للقضايا !

بعضهم يرى القضية السياسية أهم من القضية الثقافية ، وبعضهم يرى القضية الثقافية أهم من السياسية ... وهكذا .

● عندما تحدث القرآن الكريم عن الأمة ، تحدث عن فسادها وانهارها بشيوع أخلاق معينة ، وبانقسامها إلى طبقات سيّدة وطبقات تابعة ، وبإصابتها بالتبلد العقلي الذي يجعل التقليد أساس الفكر ..

لقد كان تعاملنا مع القرآن تعاملًا رديئاً ..

لقد كان من الأفضل بدل أن يدرس الموضوع خلال ثلاثة شهور مثلاً ، أن يُدرس : لماذا هلكت عاد ؟ لماذا هلكت ثمود ؟ هل المجتمع الآن يشبه مجتمع عاد و ثمود أم لا ؟ ما الفساد الذي حدث في بني إسرائيل ؟ كيف تحولت الحقيقة إلى شكل ؟ كيف تحول الدين إلى انتماء عنصري بدل أن يكون انتماءً إلهياً وزكاة نفسية ؟ كل هذا كان ممكناً من خلال دراسة القصص القرآني ، لكننا أهملناه إهمالاً تاماً ، وابتعدنا عنه كما ابتعدنا عن دراسة آيات النظر إلى الكون ، فتبدلت العقول . وكان آخر شيء يُنظر إليه النظر في الكون .

كنت أتحدث وأقول : إن الزكاة فرضت في مكة .. فانتفض أحد شيوخ الإسلام وقال : لا ، إن الزكاة فرضت في المدينة .. أقول له : إن آية سورة الأنعام مكية ، وفيها

في زكاة الزروع والثمار :

﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ أَتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ ﴾
(الأنعام : ١٤١)

أقول له في سورة فصلت وهي مكية ، ومن أوائل ما نزل :

﴿ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴾
(فصلت : ٦-٧)

وفي سورة المدثر وهي من أول ما نزل :

﴿ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ ﴿٤٢﴾ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمِ الْمِسْكِينَ ﴾
(المدثر : ٤٢-٤٤)

مع هذا ، قال : لا .. الفقهاء قرروا أن الزكاة كانت في المدينة ! قلت : ربما تفاصيل
الأنصبة : العشر ، ونصف العشر .. الخ ، كل هذا كان في المدينة لا في مكة ..

فأجد أنه حتى بعض الشيوخ الكبار المؤلفين ، قد تجمدت عقولهم .. وكيف
تجمد هكذا ؟ أنا تحيرت .. وإلى الآن ، فإن هذا الكلام الذي يقوله هذا الشيخ
موجود في أدمغة الشباب والناس الذين يأخذون الكلام كما يلقي عليهم .

□□ هذه القضية ، هي — كما أسلفنا — نوع من إعطاء القدسية للآراء ،
وإضفاء صفة الدين عليها ، بينما هي آراء اجتهادية في تنزيل النص على واقعة
معينة .. فإذا أخذت سمة الدين ، وسمة النص النقلي ، وسمة الوحي ، أصبح صعباً
التفكير بالخروج عليها أو مناقشتها ..

● لاحظت أيضاً أن الرسول ﷺ حذرنا من اتباع اليهود والنصارى .. نحذر أن نكون كاليهود في تجسيد الله ، وكالنصارى في بنوة المسيح .. لكن قال : « لتتبعن سنن من كان قبلكم شبراً بشبر وذراعاً بذراع » (١٠٩) ، معنى هذا أن الأمة ستتحدر في سلوكها .. والسلوك نتيجة الخلق ونتيجة المعرفة والثقافة .. ومع هذا ، لم أر بحثاً في تتبعنا لليهود والنصارى، في تفكيرنا، في أخلاقنا، في أعمالنا، بل ببساطة، انحدرنا وانتهى الأمر.

□ □ استطعنا أن نقلدهم بانبيارهم، ولم نستطع أن نقلدهم بنهوضهم.. وانتقلت إلينا علل التدين، كان مقتضى ذلك أن تنتقل إلينا من هذه الأقوام أسباب النهوض!

● أعتقد أن ما حدث اليوم في الأمة الإسلامية ، هو ما حصل في الأمم الأخرى تاريخياً.. والعقاب الإلهي: أن الله نزع قيادة البشرية من أيدي المتدينين ووضعها في أيدي العلمانيين . وها ما حدث في العالم كله الآن : القيادات ليست للأديان ، وإنما تستطيع بعض الديانات أن تستغل الجشع البشري العادي في النفوس لكي تعرض خدماتها لضرب الأمة الإسلامية لحساب الجشع العالمي في النفوس البشرية . فالفاثيكان اليوم يشغل لحساب أمريكا وأوروبا الغربية ضد روسيا .. وفي اعتقادي أن أهل الدين بحاجة أيضاً لأن تكون فيهم رجّات داخلية تجعلهم يتحركون من الداخل لإصلاح أنفسهم .. ولعل الأمة الإسلامية ، كُتِب لها الخلود ، لأن حقيقة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا تزال حيّة فيها.. بينما الأمم الأخرى ماتت تماماً . في المجتمع الأوروبي ، لا يرى أن الزنا زنا ، وأن الربا ربا ، وأن الخمر حرام .. فالمسألة طبيعية جداً عندهم ! بينما المسلمون ، لا تزال فيهم حساسية غير عادية ضد هذه الأمور .

(١٠٩) الحديث متفق عليه ، رواه البخاري في صحيحه — عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه — في كتاب الأنبياء ، باب : ما ذكر عن بني إسرائيل . ورواه مسلم في صحيحه ، في كتاب العلم .

عصمة عموم الأمة

□□ الأمة : معصومة بمجموعها ، ولا يمكن أن تتواطأ على خطأ ، وكذب ، واستبداد ، وظلم ، وما إلى ذلك .. فيمكن أن نقول : بأنه وُجد خلال فترات التاريخ الإسلامي ، وخلال فترات الاستبداد السياسي ، من يُعلن الحقيقة ويُشير إليها ، ولو كانت مساحة المعارضة والمواجهة لم تشكل تياراً ، في بعض الفترات إلا أنها لم تغب بشكل كامل ، وكان ذلك مصداقاً لحديث الرسول ﷺ : بأن الأمة لا تتواطأ على خطأ .. فتبقى شعلة الإضاءة قائمة على مدى العصور من خلال أفراد ، أو جماعات أو مجموعات .

● على امتداد أربعة عشر قرناً ، كان هناك مجدد — تقريباً — أو مجددون كل قرن .. الأمة لم تبق في الظلام باستمرار دون أن يكون هناك من يذكرها . بل وُجد في كل عصر من وضّح أن القافلة تسير بطريقة فيها انحطاط . لكن ، أين الخطأ بالتحديد ؟ بعضهم يقول إنه : سياسي ، وبعضهم يقول : إنه اجتماعي ، أو تربوي ، أو عقائدي .. فهناك شعور بأن القافلة أخطأت ، وتصايح بأن أوقفوا الخطأ .. فالمصلحون يختلفون في تحديد أسباب الخطأ ، ولكنهم — جميعاً — يعتقدون أن الإسلام هو الدين المعصوم ، وأن الحقائق فيه ، وأن الأمة نفسها تشعر بأنها مسيئة ، وأن الحاكم منحرف .

□□ أي ، كونهم استطاعوا أن يحتفظوا بنفسية الأمة بهذا الموقف — الموقف النفسي على الأقل ، إن لم نستطع القول بأنه امتد إلى الموقف العملي — فيمكن أن يكون لونا من تواصل الحق .

● بل أيضاً ، فيه حسّ عام لأن بعض علماء السلطة لا دين لهم ، وأن الذين مشوا مع الموكب المعوج وطبلوا له ، هم كلاب جهنم .. وإن لم يكن لهم تأثير واضح في

الأمة، بينما ظل العلماء الشعبيون هم الذين يقودون الجماهير. فلو مات الحاكم الظالم، وربما قُتل، ما أحسَّ به أحد، لكن عندما يموت أحمد بن حنبل، تخرج بغداد كلها حتى لتكاد تعطل صلاة الجماعة .. فهذا مما يدل أيضاً على أن الأمة معصومة بمجموعها، وأن المجددين فيها، يتحركون باستمرار. ولكن نوعاً من المقاومة التي تأبى أجهزة المناعة في الجسم أنها تموت، في انتظار لحظة الصحة والعافية.

فهم متميز لاختطاب القرآن

□ □ لقد أدرك بعض العلماء، كابن تيمية رحمه الله، جوانب متميزة من التعامل مع القرآن، الأمر الذي يمكن أن يشكل منهجاً لا يزال غائباً عن الواقع الإسلامي حتى اليوم .. فعندما تعامل مع العصر من خلال رؤية قرآنية، رأى مثلاً في آية :

﴿إِنَّكَ خَيْرَ مَنْ أَسْتَجَرْتَ الْقَوَى الْأَمِينُ﴾ (القصص : ٢٦)

أن صفة القوة عند عدم القدرة على الجمع بينها وبين صفة الأمانة في شخص واحد ، هي ألزم للقيادة العسكرية ، وأن صفة الأمانة عند عدم إمكانية الجمع بينها وبين القوة في شخص واحد كذلك ، هي ألزم للأعمال المالية .. وهكذا نرى كثيراً من اجتهاداته وفهمه : في الطلاق مثلاً ، في قوله تعالى :

﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانٍ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَنٍ﴾ (البقرة : ٢٢٩)

أوقع الثلاث واحدة ، ولم يوقع الطلاق القسمي .. وهكذا .. وهناك موقفه من التتار الخمورين .. لم يكن الفقه عنده يعني الحكم التشريعي والنظرة الجزئية بمقدار ما كان يعني الفهم العام وإدراك المقصد والتحقق بالرؤية القرآنية الشاملة ..

حبذا لو أعطيتهمونا نماذج قرآنية لذلك ؟

• ابن تيمية — بلا ريب — من شيوخ الإسلام الأكابر .. وقد قاتل في جميع الميادين التي فتحتها القوى المعادية للإسلام ضد الإسلام ، وكان فيها صلباً وقوياً .. وقد لاحظت مثلاً ، أن رأيه في الشورى هو آخر ما وصلت إليه الديمقراطية الغربية ، لأنه رأى أن اجتماع المسلمين في سقيفة بني ساعدة لاختيار أبي بكر ، هو الأساس في أن يكون الحاكم حاكماً ..

فهو رجل متفتح ، من غير شك ، من الناحية السياسية . ويدري جيداً أن الحكم ملك الأمة وهي التي تستأجر الحاكم لكي يؤدي عنها ما تريد ، وإذا ضاقت به عزلته . كألوان من العقد الاجتماعي .. فهذه هي نظرتة في الحكم .

ونظرتة في المال تشبه نظرة ابن حزم في أن الأمة يجب أن يكون الجهاز المالي فيها دَوَّاراً كالجهاز الدموي في الجسم الإنساني بحيث لا يبقى أسرة ولا يبقى مكاناً إلا وصل إليه خيرات الله بحيث لا يضيع أحد ولا يجوع أحد ..

ورأيتة من ناحية المحافظة على الأسرة ، رفض رأي الأئمة الأربعة في إمضاء طلاق البدعة ، فكانت هذه جراءة هو لها أهل ، لأنه فعلاً لا معنى لإطلاقاً لأن تكون الأسرة العوبة في يد طائش ، وكأنما البيت ورق لعب .. المسألة لا بد لها من ضوابط .

في الحقيقة، إن الأسرة في القرآن الكريم وفي السنة النبوية، لها رسالة اجتماعية وتربوية ، وهي أصل من أصول البناء الاجتماعي للأمة . فتعريض الزواج والطلاق لاجتهادات فقهية عجيبة حتى بلغ العبث إلى القول بأن من قال لامرأته أنت طالق نصف تطليقة ، فهي طلقة واحدة !! وفي حالات الإكراه ، يرى الأحناف أن المكره يقع طلاقه، والسكران يقع طلاقه كذلك ، دون أن يكون هناك تفكير في حال الأسرة والأولاد وتربيتهم .. لقد كان الفقهاء ناسين ذلك .. لكن الرجل الذي جاء فعلاً وفهم أن الأسرة لها دخل في المجتمع وبقائه، وهلاكه أو نجاته، هو ابن تيمية.

أحياناً أنظر إلى سورة الطلاق في القرآن ، فأجد أن نصفها الأول أو أكثر من النصف قليلاً ، في أحكام الطلاق ، والنصف الثاني مباشرة يبدأ بقوله تعالى :

﴿وَكَايْنٍ مِّن قَرْيَةٍ عَنَّتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسِبْنَهَا حَسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا ثَقِيلًا ﴿٨﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عِقَبُهُ أَمْرًا خَسِرًا ﴿٩﴾﴾ (الطلاق : ٨ ، ٩)

ما صلة هذا الكلام بأحكام الطلاق التي قيلت ، ووضع الأسرة ، ومناشدة الناس أن يتقوا الله

﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ﴾ (الطلاق : ٢)

ومناشدة الناس الرفق بهن :

﴿ وَأَنْتُمْ أَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ ﴾ (الطلاق : ٦) ؟

من خلال السرد القرآني ، يفهم : أن تدمير الأسرة هو باب الشر على المجتمع كله .. وبنظري أنا شخصياً ، فقد وجدت أن أكثر العقد التي تقع في نفوس الأولاد والتشرد والسفه ، تكون من أن العلاقة بين الرجل والمرأة علاقة سخيفة ..

فابن تيمية جاء ورفض هذا الطلاق الجنوني فيما يتصل بإيقاع الطلاق ، والعبث ، فمثلاً لو أن رجلاً قال لجزار: عليّ الطلاق لآخذ كيلو اللحم هذا، ثم لا يأخذه، فتطلق المرأة ، دون أن يكون لها دخل في الصورة أو رغبة في الزوج للتطليق !

لا شك أن ابن حزم كان أسبق ، وابن تيمية رحمه الله ، استفاد كثيراً من ابن حزم ، واستفاد ممن قبله ، بل استفاد من الغزالي ، نفسه ، وإن كان يخاصمه فيما يتصل بمذهبه في الصفات والأسماء .

و« ابن تيمية » هو أول من كتب في السياسة الشرعية .. بل أنا لاحظت أن كتابته في السياسة الشرعية كانت في صدر شبابه ، وهي حسنة وجيدة ، لأنه تكلم في اختيار الحاكم ، وواجبات الحاكم ، والمصالح المرسلة ، وأشياء كثيرة كانت مهمة من قبله .

وابن القيم ، تلميذه ، تحدث حتى عن تسعير السلع ، وتسعير المواهب والشهادات فيما يتصل بكادرات الوظائف .. فهذا الكلام ، كان يعتبر كلاماً جديداً ، وابن تيمية وابن القيم ، هما أساسه ..

فهذه مدرسة ، ارتفعت من الفقه المذهبي ، فأخذت أفضل ما فيه ، ونقدت أسوأ ما فيه ، ولم تنقيد إلا بما يتصل بالكتاب والسنة .

□□ هل هناك ميزات واضحة في نظرة ابن تيمية التفسيرية ، ونظرتة إلى القرآن ؟

● لم ينشغل « ابن تيمية » بالتفسير ، لأنه يرى أن معظم آيات القرآن واضحة ، وما يحتاج إلى تفسير منه شيء قليل . والمهم أنه يأخذ القرآن كله كمرجع للحكم والأخذ في الأمور .

لكنني أعجب لأمرين فيه :

الأمر الأول : أنه أنكر المجاز في القرآن ، وفي اللغة ، وهو ليس من رجال الأدب واللغة ! ويخيل إلي أن إنكاره للمجاز كان بدافع من إيمانه الراسخ بأن يحتاج كل شيء .. لكن ؛ هذا لا يجوز ، لأن المجاز بديهي في القرآن .. وعندما أقرأ قوله تعالى :

﴿ وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا ﴾ (يس : ٩)

وقوله :

﴿ إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ ﴾ (يس : ٨)

لا أجد من يقول : إن هناك أغللاً وسدوداً ! لا سد الفرات ، ولا السد العالي .. فالمقصود سدود وأغلال معنوية .. وتلك كلها مجازات .. والمجازات موجودة في لغات الأرض ، وليس في اللغة العربية وحسب .

الأمر الثاني : كاد هو وابن القيم ، يقعان في التجسيد .. واذكر أنني كنت أناقش رسالة ماجستير في الأصول الخمسة للمعتزلة .. فوجدت الطالب يقول : هل لله جسم ؟ ثم قال : نتوقف عن الإجابة ! سكث حتى أسمع ما يقول .. قال : ما أذكره ، نقلاً عن ابن القيم .. قلت له : لا ابن القيم ولا ابن تيمية نقبل منهم التوقف . لأن كلمة جسم يعني : مادة .. وخصائص المادة عرفت في الفيزياء الآن : القصور الذاتي ، والمساحة والحيز .. الخ ، فأنا أرفض أن يكون هناك توقف في هذا الموضوع ، بل الإنكار ، وهذا قوله تعالى :

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ .. (الشورى : ١١)

فرفضت رفضاً باتاً هذا القول .

□□ هذا اللون من التفكير أو الاهتمامات ، لا أدري : ماذا يكون مردوده العلمي للمواقع الإسلامي ؟

● هذا اللون أساء للأمة الإسلامية .. وهذا الكلام هو امتداد للبيزنطية التي أكلت الدولة الرومانية .. وهو من الجدل المنهي عنه يقيناً ...

وهذه النزعة التي أخذت على ابن تيمية ، جعلت بعض المسلمين يبتعد عنه .. ابتعد عنه الأزهر ، كما ابتعدت عنه أعداد من جماهير المسلمين . لولا أن الله لا يضيع أجر من أحسن عملاً ، وأن الرجل عقل كبير ، وكان ينبغي للأمة الإسلامية أن تلتفت إليه وأن تدرسه .

□□ وقد يكون من النعم أن كل إنسان ، له وعليه ، وإلاً لقدس الأشخاص ..

● لقد رأيت كلاماً للغزالي في العدل الاجتماعي لم أر مثله .. وبعض كتبه لم تصل إلينا ..

على كل حال ، ابن تيمية ، والغزالي ، وغيرهم من كبار الأئمة ، لم يكونوا كباراً لأنهم اعتمدوا على مذهب من المذاهب الفقهية أو مدرسة من المدارس الفكرية في الإسلام ، إنما كان اعتمادهم على الكتاب ، تأملاً في محاوره كلها ، وآفاقه كلها ، وميادينه كلها .. وهذا ما جعلهم أئمة .

فالفغزالي عندما تكلم عن تشريح العين ، حدد عناصر التشريح بسبعة ..

قال لي الدكتور محمد يوسف موسى^(١١٠) : (إن التشريح يتكون من ثمانية

(١١٠) د . محمد يوسف موسى ، متخرج من الأزهر الشريف ، حصل على الدكتوراة من جامعة ليون بفرنسا ، اشتغل بالتدريس في كلية أصول الدين ومعهد الدراسات العربية العليا . من مؤلفاته : «الفقه الإسلامي» ، و «القرآن والفلسفة» ، و «نظام الحكم في الإسلام» ، و «التشريع الإسلامي وأثره في الفقه الغربي» .

عناصر) . لذلك نرى الخلاف في عدد العناصر محدود .. ومعنى هذا أن الرجل كان يتفكر في الكون ، في النفس ، في الجسم .. يمشي مع القرآن في التدبر والتأمل ..

وهذا شيء جميل .. بينما نجد التفكير الفقهي هو الذي حبس العالم الإسلامي في القرن الثاني عشر والثالث عشر والرابع عشر ، حبسه في كفيات الضوء وفي المسجد ، وفي بعض الأسواق التي تباع الأنعام ، وبعض صور البيع الساذجة ، والنخاسة ! أما ما عدا هذا من آفاق تحدث الإسلام فيها ، لم تأخذ الاهتمام المطلوب .. ويُخيل إلي أن من كان يتلو قوله تعالى :

﴿ أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ﴾ (النمل : ٦١)

كان كمن يقول كلاماً من المريح لا تعرف الأمة معناه ، ولا مغزاه ، ولا تمشي في هداه . لأن الأمر الذي تمشي في هداه تماماً ، متون في بعض المذاهب الفقهية . وهذا شيء عجب ! وعندما ألفتُ كتابي : « فقه السيرة » كانت هذه الفكرة تملكني ، وأن القرآن أساس ، والسيرة النبوية تطبيق قرآني .. والرسول ﷺ ، قرآن حي يمشي على الأرض .. والسنن تسير في نطاق القرآن .. والسنن العملية التي طبقها الرسول ﷺ في سيرته ، هي الأساس ، وهي التي يسير عليها من تحدثوا عن الهدي النبوي كابن تيمية وابن القيم ..

ابن تيمية ، وابن القيم ، مدرسة واحدة .. ومن رأيهما : أن من ارتكب حداً تُقبل توبته .. كان ذلك رأياً عند الشافعي في القديم ، وتركه .. وابن تيمية ، كان مع رأي الأئمة في صدر شبابه ، ثم انفرد عنهم بقبول توبة مرتكب الحد ، وأنها تسقط الحد عنه ، وهذا شرحه في : « الفتاوى » ، ولم يذكره في « السياسة الشرعية » ، بل كان ضده !

وينتيل إليّ أن ابن تيمية ، حينما كتب : « السياسة الشرعية » ، كان في صدر حياته ، لأني وجدتُ حديثاً منكراً في كتاب « السياسة الشرعية » لعله نقله عن كتاب « ذم الهوى » لابن الجوزي^(١١١) ، وكتاب « ذم الهوى » كتاب فيه اسفاف ، وابن الجوزي نفسه قال : « أنا ترخصت في هذا الكتاب .. ونزلت من البقاع إلى الحضيض » . فعجبت من رواية ابن تيمية لهذا الحديث ، صحيح أنه رواه بصورة التمريض ، لكن ما كان ينبغي أن يرويه أبداً .. والحديث هو : أن غلاماً جميل الوجه جاء في وفد ، فقال له النبي ﷺ : كن ورائي ، لأن فتنة داود كانت في النظر !



(١١١) هو عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي ، أبو الفرج ، نسبته إلى محلة الجوز بالبصرة ، كان بها أحد أجداده . قرشي يرجع نسبه إلى أبي بكر الصديق . من أهل بغداد . حنبلي . علامة عصره في الفقه والتاريخ والحديث والأدب . اشتهر بوعظه المؤثر وكان الخليفة يحضر مجالسه ، مكث من التصنيف . ولد عام ٥٠٨ هـ . وتوفي عام ٥٩٧ هـ . من تصانيفه : « تلبيس ابليس » ؛ و « الضعفاء والمتروكين » ؛ و « الموضوعات » كلاهما في الحديث .

الاكتفاء بالتراث عن الكتاب والسنة

□□ من خلال ما ذكرتم ، هل نستطيع أن نقول : بأن وقف الناس عند حدود الفقهيات ، أو التراث الفقهي ، أو الاختصار عليه ، واعتباره هو المساحة التي يجب التحرك عليها ، يُشكّل عائقاً بين المسلمين ، وبين النهل من النص الأصلي الذي هو القرآن الكريم ؛ وأن التراث بشكل عام والتراث الفقهي في عصور معينة ، بدل أن يكون مفاتيح مساعدة على فهم القرآن ، والعودة إليه ، كان حواجز في بعض المراحل أكتفَى بها ، وحالت دون الوصول إلى النبع الأصلي ، والتحقق بالرؤية القرآنية الشاملة .

• كتبتُ هذا ، تقريباً ، في كتابي « فقه السيرة » ، في « رسالة وإمام » ، عندما تحدثت عن أن القرآن هو رسالة ، وعن الإمام الذي طبّق وقاد بها .. قلت : إن الأمة الإسلامية حدث فيها ، للعجب ، أنها تركت الكتاب للسنة ، ثم تركت السنة لأقوال الأئمة .. ثم تركت أقوال الأئمة لمؤلفي المتون ، تقريباً .. لا أذكر الآن ما كتبت بالنص ، لكن هذه هي الصورة التي سارت عليها الأمة .. نحن طلاب في الأزهر ، درسنا المالكية من : متن الدرديري ، أو متن العشماوية ، ودرسنا الأحناف من : متن نور الإيضاح ، أو متن القدوري ، والشافعية من : متن الغاية والتقريب .

أما الاتصال بالقرآن نفسه والسنة نفسها كمصدر ، فأبعد هذا عن الثقافة الإسلامية .

□□ حتى في المعاهد العلمية ، نتعلم لنقرأ ، لا نقرأ لتعلم .. لذلك يبقى هم المتعلم : ضبط اللفظ ، ومراعاة أحكام التجويد ، وضبطها ، فيؤسس على الاهتمام باللفظ والشكل .. أما فلسفة الحياة في ذلك ، فقلما تُدرك .

فالقضية مفزعة : أن يكون التراث الذي يُشكل في الأصل مفتاحاً لفهم القرآن والسنة ، أو لاستجماع فهم الآخرين ، وكيف كانوا ينظرون للقرآن ، والإفادة من فهمهم لإخصاب الرؤية في العودة إلى القرآن ؛ يصبح حاجزاً يحول بين المسلمين

وبين مصادرهم الأساسية !! وكون تلك الفهوم تأخذ شيئاً من القدسية ، فهذا يعني :
أنه ضُرب بلبيل طويل بين المسلمين والقرآن من خلال عصور متطاولة .

وقد يكون الوجه المقابل — وقد يكون الأخطر في القضية — القفز من فوق
التراث ، ومحاولة الاتصال بالكتاب ، وتقرير الأحكام دون التحقق بالشروط المطلوبة
لذلك .

• هذا حق .. ولذلك ، جهد المجددين الآن ، يجب أن يكون مضاعفاً ، وأن تكون
ضرباتهم بحماس وقوة ، وأن يكون معها أيضاً العقل الذي يقرر صعوبة أو غلظ
الحجب الموجودة على بصائر الناس . أحياناً ، كنت عندما أناقش المستشرقين ،
أتكلم بكلام فيه حدة أو احتقار شديد ، وأنا أتعمد هذا .. لماذا ؟ لأني وجدتُ
بعض الناس ينظر إليهم كأنهم شيوخ في محارب العلم ، وهؤلاء أفاكون يشتغلون في
وزارات الاستعمار لمحاربة الإسلام .. فقلت : لا بد من تمزيق هذا القناع وكشف
نصوص العلم للناس على حقيقتها .

تأسيس منهج العودة إلى القرآن

□□ أتصور أن تأسيس ، أو تدوين ، منهج العودة للقرآن الكريم ، يقتضي نزع فكرة القدسية عن مفهوم البشر — كمرحلة أولى — وأن هذه الفهم ليست ديناً ، وليست شيئاً ملزماً في الفهم ، وإنما هي فهم من خلال ظروف معينة ، لتنزيل النص القرآني في عصر معين على حالة معينة .. فقد يتغير العصر ، وقد يتغير الفهم ، وقد يُدرك فهم آخر تُهيء له الكشوف العلمية .. فإذا استطعنا نحن الوصول إلى مرحلة القناعة بأن هذا التراث ليس مقدساً ، وإنما هو فهم بشري قابل للخطأ والصواب ، وأنه يُستعان به ، أو هو وسيلة للوصول إلى النبع الأصلي وأنه لا يغني عن النبع الأصلي بحال من الأحوال أو عصر من العصور ، ونبقى مشدودين للقرآن باستمرار ، مشدودين إلى محاوره كلها ، وسننه وقوانينه المطردة ، أي: الوصول إلى مرحلة الفكر القرآني ، أو الفلسفة القرآنية ، وبذلك ، يمكن أن نكون قد وضعنا الخطوة المطلوبة اليوم لمنهج العودة إلى القرآن.

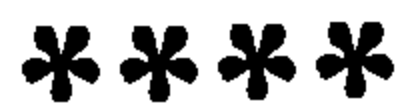
وقد أشرنا إلى محذور ، لا بد من مناقشته ، لأن عدم الحذر قد يُساهم بالخبال ، والتبعثر العقلي أيضاً ، فكثير ممن يظن أنه جاء بالحل ، وهو لا يدري أنه يؤزم المشكلة أكثر ؛ وهذا المحذور هو : الاعتراف من القرآن مباشرة ، والقفز من فوق الفهم البشرية دون امتلاك الوسائل التي تمكن من الاعتراف من القرآن مباشرة ، خاصة في القضايا الفقهية التي لم يدع الأئمة فيها زيادة لمستزيد ..

● هذا آفة النهضة العلمية الحديثة في العالم الإسلامي : أن ناساً شعروا بالضييق من المتون الفقهية والسجن الذي وقع فيه الفكر الإسلامي ، فأرادوا أن يغتربوا من الكتاب والسنة مباشرة ، وهم دون ذلك ، من ناحية القدرة العقلية ، فنشأ عن هذا الآن نوع من الخبل ، وأنا نفسي قلت : التقليد المذهبي خير من هذا الذي يقع الآن ... لأنه تجيء طفولات ليست لها ثروات علمية محترمة ، ولا مواهب فطرية محترمة ، وكل ما تملكه الجرأة ، ونوعاً من المجازفة وتدخل وتهاجم الأئمة ، وتهاجم التاريخ كله من أجل كلام فارغ تنتمي إليه .. وفعلاً ، هذا العمل مهما كانت دعاواه في التأسّي

والاقتداء ، فهو في الحقيقة ، نوع من الصبائية ، وما هكذا فعل التابعون .. إني أفهم أن السلف هو أن أرجع إلى أبي بكر وعمر رضي الله عنهما ، وأنظر للآفاق التي بلغوها من استلهاهم للقرآن .. قلت لواحد منهم : لماذا نظرت إلى جلابب عمر ولم تنظر إلى عقله ، وكلامه؟ عمر الذي قال: لو عثرت بغلة في العراق لحسبتُ عمر مسؤولاً عنها ، لِمَ لم يسو لها الطريق .. هذه سنة عمر .. هذه سنة الإسلام .. عمر قال : لو عشتُ لهم لوصل الراعي في صنعاء حقه من هذا المال .. والله ما أحد أحق بهذا المال من أحد ، لو عشت لهم .. هذه سنة عمر .. ما الذي جعلك تنسى السنن في الحكم ، والمال ، والعبادات ، والحياة العامة ، وكل ما لفت نظرك شكل ثوب عمر؟!

شيء عجيب !

هذه العقليات تنذر بها الأديب الإنجليزي « برنارد شو » (١١٢) عندما تحدث عن بعض معاصريه وسوء فهمهم . قال : امرأة تصف آخر ، تقول له : « جنتل مان » ، ما أعظم خلقه ، ألا ترين إلى حذائه اللامع! فهي حكمت بحذائه اللامع أنه إنسان رفيع .. هذه العقلية هي التي تريد أن تقود الثقافة الإسلامية الآن .. أنظر فأجد أطفالاً لا عقل لهم ، بل رأيت أناساً ممن يشتغلون بالسنة ولهم جبروت في إدراك الأسانيد والمتون ، لكن عقلهم الفقهي صفر! وعقلهم القرآني لا شيء أيضاً! هؤلاء — في مجال الفقه — أخطر .. وشرهم أكثر .. وأرى أن اتباع الأئمة القدامى وتقليدهم أفضل من اتباع هؤلاء ..



(١١٢) شو ، جورج برنارد Shaw, George Bernard كاتب مسرحي انجليزي ، أيرلندي المولد ، ولد عام ١٨٥٦ م ، اشتهرت كتاباته بالسخرية اللاذعة ، وتوفي عام ١٩٣٢ م .

فقه سيدنا عمر رضي الله عنه في تطبيق النص القرآني :

□□ بدا لي شيء الآن — قد لا يكون في صلب القضية المطروحة عند الكلام عن سيدنا عمر رضي الله عنه: في هذا الوقت نرى بعض الرؤى الحسيرة التي أتينا على شيء من ذكرها ، مثل : رؤية الثوب وعدم رؤية الأعمال العظيمة — وذلك في الداخل الإسلامي .. كذلك نرى من بعض الناس من الذين قد يكونون في الخارج الإسلامي ، إن صح التعبير — يلتقطون من اجتهادات عمر رضي الله عنه ، بعض القضايا التي يتراءى لهم أن فيها خروجاً على النص القرآني ، وما إلى ذلك .. ويروجون لها بحسب فهمهم ، ولا يعنيه من عمر إنجازاته كلها في الإطار الإسلامي ، إنما الذي يعنيه فقط من عمر ، بعض الاجتهادات التي توافق زعمهم ، ويظنون أنها تعطيهم الحق في الخروج عن النص القرآني .

هذه القضية ، تشغل البال ، وتشكل اليوم إشكالية فعلاً .. وأرى أنه لا بد من تصحيح النظر أولاً ، ومن ثم وضع هذه الاجتهادات ضمن إطارها القرآني والاجتهادي في شخصية سيدنا عمر رضي الله عنه ..

● كان عمر رضي الله عنه وقافاً عند حدود الله ، بل كان ظاهر القرآن يملكه ..

ويستحيل ما يقال أنه عطل نصاً .. هذا نوع من العبث الفكري أو الفقهي ، لأنهم نسبوا إليه أمرين : الأمر الأول أنه ألغى حد السرقة في عام الرمادة ، وألغى سهم المؤلفة قلوبهم .. وهذا كلام ذكرناه في كتابنا « دستور الوحدة الثقافية » ، قلنا : إنه كلام باطل .. فسهم المؤلفة قلوبهم هو لمن نريد أن نتألف قلبه .. وللموضوع قصة لا بد من معرفتها .. فهناك ناس كان الرسول ﷺ قد تألف قلوبهم من مشايخ البدو مثل

انعباس بن برداس (١١٣) ، والأقرع بن حابس (١١٤) ، وبقي هؤلاء يأخذون السهم .. وجاءوا لأخذه أيام عمر رضي الله عنه ، فقال : من أنتم ؟ قالوا : المؤلف قلوبهم .. قال : وهل نحن اليوم محتاجون لتأليف قلوبكم ، فتحنا فارس والروم ، والإسلام استقر وتوطد .. فعمر لم يبلغ السهم ، ولكنه ألغى استغلال بعض الناس للسهم ، أي ألغى استحقاق الناس له عندما وصلوا إلى مرحلة معينة من الغنى .. فالكلام ليس في المبدأ ، ولكن في محل تطبيقه .. وذلك مثل قولك : إني خصصت جائزة لمن يحصل على ٩٠٪ ، فعندما لا يحصل أحد على ٩٠٪ تحجب الجائزة ، لكن الجائزة موجودة ولم تلغ . فالمبدأ قائم إلى قيام الساعة ، لكن الاجتهاد في التطبيق .

كذلك من قال : إن الجائع يُقطع يده ؟ من أكل وهو جائع فلا تقطع يده أبداً ، بإجماع الأئمة .. فكيف يقال : إن عمر ألغى الحد ؟ الناس جياع فيأكلون .. فلا شيء إطلاقاً في ذلك .. عمر لم يعطل لا كتاباً ولا سنة .

□□ قد تكون المشكلة كلها ، محاولة لمحاصرة النص القرآني ، فلا يكون له امتداد في حياة المسلمين .. هؤلاء يريدونه للتبرك كما أرادهم الآخرون ، لكن من وجه آخر ، مع اختلاف في المقصد ..

(١١٣) العباس بن برداس بن أبي عامر السلمي ، من مضر ، أبو الهيثم : شاعر فارس ، من سادات قومه ، أمه الخنساء الشاعرة ، أدرك الجاهلية والإسلام ، وأسلم قبيل فتح مكة ، وكان من المؤلف قلوبهم . وكان بدوياً قحاً ، لم يسكن مكة ولا المدينة ، وكان ينزل في بادية البصرة . وقيل : قدم دمشق ، وابتنى بها داراً . وكان ممن ذم الخمر وخرمها في الجاهلية ، ومات في خلافة عمر نحو عام ١٨ هـ (٦٣٩ م) .

(١١٤) الأقرع بن حابس بن عقال المجاشعي الدارمي التميمي : صحابي ، من سادات العرب في الجاهلية . قدم على رسول الله ﷺ في وفد من بني دارم (من تميم) فأسلموا ، وشهد حنيناً وفتح مكة والطائف . وسكن المدينة . وكان من المؤلف قلوبهم ، ورحل إلى دومة الجندل في خلافة أبي بكر ، وكان مع خالد ابن الوليد في أكثر وقائعه حتى الإمامة . واستشهد بالجوزجان عام ٣١ هـ (٦٥١ م) .

كيف تتعامل مع القرآن ليكون مصدر العلوم الاجتماعية؟

كيف يمكن تأسيس ، أو الوصول إلى عصر تدوين للعلوم الاجتماعية من خلال القرآن الذي يُعتبر مصدر هذه العلوم بالدرجة الأولى ؟ وكأني أرى أن القرآن هو أكثر اهتماماً بالعلوم الاجتماعية التي تصنع الإنسان وتعيد تشكيله ، منه بالعلوم التجريبية والمجالات الأخرى .. وأن استخدام السنن النفسية والسنن الكونية معاً ، لإثبات الحقائق التي لا بد منها لبناء الإنسان وعمارة الأرض . بل لعله جعل النظر في الآيات الكونية ، وسيلة للوصول إلى بناء الإنسان المؤمن .

والمشكلة اليوم : أن يقوم ما يسمى بالإعجاز في العلوم التجريبية كمحاكاة للإنجاز العلمي غير الإسلامي ، وتبقى الدراسات ضامرة ، بل متخلفة ، في العلوم الاجتماعية ، وعدم قدرتنا على اكتشاف مواطن وآفاق وأبعاد الرؤية القرآنية في العلوم الاجتماعية لأنها تخص بناء الإنسان الذي هو محل الأحكام الشرعية .. فالأحكام الشرعية هي ثمرة لوجود الإنسان .. لقد تقدمنا في العلوم الشرعية وتوقفنا في علوم الإنسان (العلوم الاجتماعية) .

● في ظني : أنه بدأ الآن توجه إلى تكوين علم اجتماع إسلامي . وعلم الاجتماع هو في حقيقته : العلم الذي يبحث في الأسرة ، والأمة ، وما يطرأ عليها من تغيرات ، والقوانين التي تنتظمها ، وغير ذلك . وهذا كله ، أصوله في القرآن ، وله تطبيقاته في التاريخ الإسلامي . لكن ، لم تُجمع قواعده تحت عنوان معين مثل « علم النحو » و « علم الصرف » .. الخ . وللأسف ظل هذا غير محدد في الدراسات الفقهية والتفسيرية والحديثية .

عندما كنا ندرس الحديث ، كنا ندرس القانون الدولي أحياناً ، كنا ندرس الأسرة ، كنا ندرس انهيار الأمم والحضارات .. كنا ندرس أشياء كثيرة في علم السنن وتفسير القرآن ..

□ □ لكن ، المشكلة المنهجية لهذه الدراسة أنها بقيت عبارة عن إثارات هنا وهناك ، لم تنتظم لتصبح علماً ، أو يلتقط الخيط الذي ينتظمها لتصبح علماً في إطار : النفس ، والاجتماع ، والتاريخ ...

• لا تنسى أن هذه العلوم حديثة أيضاً في الحضارة المعاصرة .. فعلم النفس ، والاجتماع ، والاقتصاد ، علوم جاء تأصيلها من نتاج الحضارة الحديثة ، كان لها أصول قديمة ، هي واسعة عندنا ، لأن ديننا : دين ودولة ، دين ومجتمع ، دين وأسرة ، دين وحضارة .. فالمعالم كلها موجودة عندنا ، لكن في السديم الذي اختلط فيه كل شيء ، تستطيع في حاشية من حواشي الأزهر أن تستخرج عدة علوم من صفحة واحدة .. فمثلاً ، عندما كنا ندرس هذه العبارة : (حقائق الأشياء ثابتة ، والعلم بها متحقق خلافاً للسفسطائية) ، وجدت أن الأستاذ يدخل أولاً : الحقائق جمع حقيقة ، والحقيقة ما به الشيء هو .. يدخل من باب « ما به الشيء » ، وهل التعريف بالحد أو بالرسم ، ودرسنا المنطق كله في التعريف هنا .. هل : « هو هو » مبتدأ وخبر ؟ كيف يكون المبتدأ عين الخبر ؟ الفرق بين الهوية والماهية والحقيقة والفاعل ، فتدخل في مسألة أخرى ، في أدب البحث والمناظرة وتحديد المفاهيم .. ولا نزال نتفرع من هذه الأمور حتى نشعر بأننا درسنا نصف العلوم الإنسانية في جملة واحدة. طبعاً ، هذه الدراسة فيها خير وفيها شر.. خيرها أنها تتعمق وتجعلك تتعرض لعلوم كثيرة بهذا التعمق ، وفي الوقت نفسه ، فقدنا النظرة العامة للأمور ..

وقد قلت لبعض المسؤولين : بدل أن تدرسوا الكتاب على هذا النحو المجزأ ، فليقدم لنا واحد خلاصة مجملة للكتاب كله ، ثم نتعمق في بعض الفصول ، ثم نتعمق في بعض الجمل ، أما هذه الدراسة التجزئية التي نحيا بها فهي دراسة خطيرة ، وقد عاش الأزهر في هذا اللون من الدراسة ، وأحيا وأمات في إطار الجزئيات .. وبدل أن يبدأ بالصورة الكلية وينتهي إلى الجزئيات ، بدأ بالطريق المعاكس .. وإسقاطه جاء من هذه الناحية .. والإنسان عندما يشعر بأنه أعمى ، فقد كيانه ، بطريقة من طرق الغباء الدراسي والمنهجي ، فإنه يكفر بالإسلام ، وقد كفر به بعضهم فعلاً .

□□ أتصور ، حتى نصل إلى مرحلة تأسيس ، أو تدوين علوم اجتماعية ، مطلوب منا لون من الرحلة مع التراث الإسلامي لاستخلاص أصول هذه العلوم المنبثة هنا وهناك ، في إطار الرؤية القرآنية .. والأستاذ محمد المبارك (١١٥) — رحمه الله — عنده نظرات دقيقة في هذا الأمر ، ويمكن أن نقول : بأنه بدأ بوضع الخطوات الأولى في هذا الاتجاه.. وله خطوات طيبة في الإطار التربوي والاجتماعي بحاجة لمتابعة السير.

● هو فعلاً وضع نظرات في علم الاجتماع ، وهو رجل مسلم .. وبدأ يعمل البرنامج .. وأظن أنه مع بعض الناس وضع البرنامج ، وقد أعطاني مرة مذكرة نحو من عشرين صفحة ، فيها البرنامج .. لكن لا أدري : أين ذهبت عني ؟ ويمكن الاطلاع على هذه الورقة لنرى كيف أن القرآن والسنة أيضاً مصدر للعلوم الاجتماعية . لكن المشكلة اليوم بتوقف العقل المسلم .

□□ هل نستطيع القول : بأن تأسيس هذه العلوم ، أو صلة ما انقطع ، أو بلورة وجمع هذه النظرات المنبثة هنا وهناك ، لا بد تتبلور فتصبح علماً ..

● الأمر هام ، ويجب أن تقوم به جامعات إسلامية الآن ، ويجب أن تختار هذه الجامعات رجالاً لهم خبرة بالعلوم الأجنبية ، وفي الوقت نفسه ، لهم اطلاع على التراث الإسلامي ، ومعهم بعض الذين لهم خبرات قرآنية ودراسات قرآنية معمقة ، كفريق عمل ، ومن ثم فالكمل ، يمكن أن يطلعوا لنا بعدة علوم مرة واحدة : علم النفس ، وعلم الاجتماع ، وعلم الاقتصاد ، وعلم التاريخ ، لأن علم التاريخ أيضاً عندنا مظلوم ، حتى كإحصاءات ، لا يوجد .. ولذلك ، عندما أريد قطع الأمة عن ماضيها ، قُطعت ، لأن التاريخ غير مربوط بالحاضر والرسول ﷺ كان يُعلم المغازي كما يُعلم السورة من القرآن ، لكي يربط الأمة ..

(١١٥) د . محمد المبارك ، من علماء سوريا ، كان عميداً لكلية الشريعة بدمشق ، ثم رئيساً لشعبة الدراسات الإسلامية بجامعة أم درمان ، ثم دُرُس بالجامعات السعودية ومعهد الدراسات العليا بمصر . من مؤلفاته : «فقه اللغة» ، و «خصائص العربية» ، و «نظام الإسلام» ، و «المجتمع الإسلامي المعاصر» .

أثر الوراثة والاكتساب في حياة الأمم

□ □ المسؤولية في الإسلام فردية ، والإسلام يخاسب الإنسان عن عمله لكن الأمر اللافت للنظر عند الكلام عن اليهود وبيان فسادهم ، أن يُخاطب الأحفاد بجرائم الأجداد في القرآن ، وكأنما الجرائم جيلة فيهم ، وليست مقتصرة على جيل بعينه ، ولذلك خطبوا بجرائم آبائهم وأجدادهم ، فالجرائم تنحدر إليهم في جبلتهم وطبيعتهم .. وعلماء الوراثة الآن ، يقولون : بأن بعض الصفات المكتسبة بالمعيشة والممارسة ، تنقلب إلى صفات وراثية .. وهناك دراسات لدى بعض الماركسيين في هذا الموضوع ، حتى أنهم يقولون : إذا استطعنا أن نصل بالمجتمع لأن يصبح شيوعياً ، فيمكن — فيما بعد — أن نفرّخ — في المستقبل — شيوعيين .. فالأمر عبارة عن توفير مناخ ، ويُصنع جيل المستقبل .

● لماذا عُيِّر بنو إسرائيل ، المعاصرون للنبي ﷺ بما فعل أبائهم ؟ فكان الجواب جواباً اجتماعياً ، لأن الأمة كيان واحد ممتدة جذوره في القدم ، وفروعه في الحديث ، وما دام المحدثون ينبعثون من الأصول القديمة ، فهم يُحاسبون عليها .

عندما كان الدكتور محمد يوسف موسى يدرس لنا الأخلاق ، وهو رجل مسلم حصل على شهادة الأكاديمية من السوربون في « ابن رشد » قال : يكاد العلماء الآن يستقرون على أن البيئة تغلب الوراثة . ولذلك يشير هنا الحديث : « فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه » (١١٦) ، لكن معنى هذا أن الصفات المكتسبة تورث . ويقول لك : إذا أردت ابناً صالحاً فذلك ممكن ، ولكن لا بد أن تكون أنت تسير على طريق صارم في سلوكك وأخلاقك ونظافتك وحياتك العامة ، لأن هذه الصفات والخصائص تنقلب إلى مورثات ، وتظهر في الأولاد .. فهذا يعطي فكرة .

(١١٦) الحديث متفق عليه ، رواه البخاري في صحيحه — عن أبي هريرة رضي الله عنه — في كتاب الجنائز ، باب : ما قيل في أولاد المشركين . ورواه مسلم في صحيحه ، في كتاب القدر ، باب : معنى كل مولود يولد على الفطرة ، وحكم أطفال الكفار وأطفال المسلمين . واللفظ للبخاري .

لكنني أرى أيضاً أن الأمم قد تتغير .. وربما يحدث هذا التغيير بسبب التحدي ،
أو أية رجّات اجتماعية أخرى .. فاليهود الذين قالوا لموسى :

﴿ فَأَذْهَبَ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴾ (المائدة : ٢٤)

رأيهم الآن يقاتلون بضراوة ! والأمة القرآنية التي قالت لرسولها : (لو خضت بنا
البحر لخضناه معك) ، أمة — الآن — مسترخية ، وتكاد تموت في جلدتها .. يقع
في بلادنا ما لو وقع في أي بلد آخر ، لأرغى وأزبد ، وفعل الأفاعيل .. ومع ذلك ،
الناس نائمة .. لقد تبلدت .. أو تحجرت .

نماذج للاستبداد السياسي والظلم الاجتماعي، وثواب الصمود والمواجهة (من خلال الرؤية القرآنية)

□□ تعقياً على أثر الاستبداد السياسي في الأمم ، وباعتبارنا نحاول أن ننهل من القرآن ، وننطلق منه ، خطر بيالي أنموذجان قرآنيان قد يكون من المفيد التوقف عندهما حتى لا يكون السقوط الحضاري في مناخ الاستبداد على المستوى الفردي والجماعي :

النموذج الأول: القرآن من قوم فرعون كأنموذج متصاعد للحاكم الظالم في التاريخ البشري في صراعه مع الحق الذي تمثله النبوة .. وكان فرعون ، من بين سائر الظلمة ، هو الأنموذج المتصاعد والذي بلغ من طغيانه ما لا يمكن أن يبلغه أي حاكم في أي عصر .. ويبقى فرعون هو الأنموذج في الظلم والاستبداد السياسي : ممارساته في إطار الشعب ، من تقتيل الأبناء ، واستحياء النساء ، حتى لا يُنازع السلطة .. بل لقد وصل الأمر به إلى مرحلة ادعاء الألوهية ، وتوظيف الناس لأهوائه ، والاستخفاف بهم ، وما إلى ذلك .

أما الأنموذج الثاني: وهو المقابل والموازي للأنموذج الأول ، فهو « قارون » ، من الناحية الاقتصادية والظلم الاجتماعي ..

إن هذين الأنموذجين القرآنيين ، لهما دلالات لا بد من التوقف عندها أثناء الكلام عن الاستبداد السياسي ، وعواقبه ، وكيفية مواجهته .. لا بد من التوقف عند الكيفية التي تم بها تقويض فرعون وحكمه والتي كانت من داخل القصر ، حتى لا يقع الإنسان ، ولا يسقط على أقدام الاستبداد السياسي .. ففكرة ولادة سيدنا موسى عليه السلام ؛ وقصته ؛ وفراغ قلب أمه ؛ وقصة أخته التي قصته ؛ وأمّه التي أرضعته في القصر ؛ وكيف أنه تربى في القصر ليكون لهم عدواً وحزناً ؛ وامرأة آل فرعون ؛

ومؤمن آل فرعون الذي وقف في مواجهة السلطة والاستبداد السياسي من داخل السلطة ليعلن المثوبة إلى الله على ملأ من الناس ؛ وأن هذه الدنيا متاع ؛ وما إلى ذلك ؛ وقصة السحرة ... الخ.

حبذا لو نقدم أنموذجاً قرآنياً لحماية الإنسان المسلم من الانكسار أمام الاستبداد السياسي ومعالجة السبب الذي أوقع الدولة الإسلامية في الغياب الحضاري، وأهمية الصمود، وثواب المواجهة، ونأخذ نموذج «قارون» فيما يتبها لكم من ملاح في الاستبداد السياسي والظلم الاجتماعي..

● لاحظت في سورة القصص ، وهي السورة التي تحدثت عن فرعون وعن بني إسرائيل ، أن السورة بدأت الكلام عن الفرد المدعي للعظمة الذي يريد أن يحكم ضمائر الناس ، ويحتاج حقوقهم ، ويفعل كل ما تمليه عليه قرائن السوء في كيانه . ولاحظت أن آخر هذه السورة ، هو الحديث عن فرعون من الناحية السياسية ، وقارون من الناحية الاقتصادية .. أي فرعون كمثال للفساد السياسي ، وقارون كمثال للفساد الاقتصادي .

ولاحظت أن الخلاصة التي أرادت السورة أن تقرها ، من هذه الناحية :

﴿ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾
(القصص : ٨٣)

هذه هي الخلاصة التي ساقتها بعد مصرع قارون ومصرع فرعون . الله سبحانه وتعالى لا يقبل أن يدخل جنته مستكبر وطاغية . بل لعلي لاحظت قبل ذلك أن الطغيان الاقتصادي ذكر مع بدايات الوحي الأولى ، فأيهما نزل قبل الآخر : سورة العلق أم سورة المدثر ؟ الأغلب يرى أن سورة العلق هي التي نزلت أولاً . وفي كلتا السورتين ، تنبيه إلى الطغيان الاقتصادي ، في قوله تعالى :

﴿ كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَإِطْفَاءٌ ۖ ﴿٦﴾ أَنْ رَأَاهُ اسْتَغْنَى ۖ ﴾ (العلق : ٦، ٧)

وفي سورة المدثر :

﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ۖ ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُ مَا لَا مَمْدُودًا ۖ ﴿١٢﴾ وَبَيْنَ شُهُودًا ۖ ﴿١٣﴾ وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا ۖ ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ۖ ﴿١٥﴾ كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا ۖ ﴿١٦﴾ ﴾ (المدثر : ١١-١٦)

طغيان الاقتصاد قد يكون خادماً أو وزيراً للطغيان السياسي ، وهو يمهّد له ، ويوطّن الصدور بكل قوة .

في الطغيان السياسي وجدنا أن فرعون لا يريد أن يحكم الإنسان فقط ، ولكنه يريد أن يحكم الأرواح والضمائر .. ولذلك ، عندما آمن السحرة ، فهو يقول لهم باستكبار واستنكار :

﴿ قَالَ ءَامَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ ﴾ (طه : ٧١)

فهو ينتظر أن يكون الإيمان والكفر بإذن منه هو .. ثم وجدنا أن القرآن يحدث العرب أن فيهم من مشى وراء فرعون في ملكه ، ولذلك يقول في سورة المزمل :

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ۖ ﴿١٦﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا ۖ ﴾ (المزمل : ١٥-١٦)

ولعل هذا السر في أن بعض المؤلفين القدماء ذكر أن «أبا جهل»^(١١٧) كان فرعون هذه الأمة الإسلامية .

(١١٧) عمرو بن هشام بن المغيرة المخزومي القرشي : أشد الناس عداوة للنبي ﷺ في صدر الإسلام ، وأحد سادات قريش وأبطالها ودهاتها في الجاهلية . أدرك الإسلام ، وكان يقال له « أبو الحكم » فدعاه المسلمون « أبا جهل » واستمر على عناده ، يثير الناس على محمد رسول الله ﷺ وأصحابه ، لا يفتر عن الكيد لهم والعمل على إيذائهم ، حتى كانت وقعة بدر الكبرى ، فشاهدها مع المشركين فكان من قتلها عام ٥٢ هـ (٦٢٤ م) .

ليكن ما يكون ، لكن المهم أن تفصيل الحكم الفرعوني جاء في عدة نواح :
الذين ألفوا الانحناء لفرعون ظلوا فاسدين طيلة حياتهم . والقرآن يقول لنا : عندما بدأ
موسى بدعوته للحرية وإلى الإيمان وإلى طرح الخرافات لم يستجب له الكبار وإنما
استجاب له الشباب :

﴿ فَمَاءٌ آمِنٌ لِّمُوسَى إِذْ ذُرِّيَّتُهُ مِّن قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِّنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ وَإِنْ فِرْعَوْنُ
لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ ﴾ (يونس : ٨٣)

لقد بقيت للذين كبروا في الضلال والظلم ، خصالهم هذه ، وتحدث عنها العهد
القديم .. يقول تعالى :

﴿ فَلَمَّا تَرَأَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمَذْكُورُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾
(الشعراء : ٦١، ٦٢)

لكن العهد القديم يقول هنا : إن بني إسرائيل صرخوا في موسى وقالوا له : ألم نذكرك
من معاداة الفراعنة ، ألم ننهبك .. كان أولى بنا أن نموت في الوادي من أن نموت في
هذه الصحراء .. فالتقوم مردوا على الذل وعاشوا به . وهكذا استمر الذل في الحياة ،
في كثير من الأجيال ..! إن الذل يطوي الظهور ، ويُفسد الملكات .. وهؤلاء هم
الذين رفضوا أيضاً أن يدخلوا الأرض المقدسة .

إن أثر الذل خطير في النفس البشرية ، ولعل أحسن من كتب في هذا
الموضوع ، عبد الرحمن الكواكبي في كتابه « طبائع الاستبداد » .

يرى بعض الناس أن موسى ، لو رُبي في بيت إسرائيلي فإنه لن يكون عزيزاً أو نبياً
كما حدث له عندما قدّر له ربه أن يتربى في قصر فرعون .. فموسى في قصر فرعون
أصبح كواحد من أبناء الملوك ، في نفسه عزة الملك . وفي الوقت نفسه لم ير شيئاً من
الذل الذي أصاب قومه . كان بمنأى عن الذل ، بعيداً عن مناخ قومه .. عاش رفيع

الرأس . واستنكر الذل على قومه فيما بعد لأنه لم يألف الذل . وكان من تعبيره ،
عندما حازه فرعون في قتله لأحد أتباعه :

﴿ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىٰ أَنْ عَبَّدَتْ بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴾ (الشعراء : ٢٢)

أي ، كونك تركتني حياً لأنك استعبدت بني إسرائيل ، هل هذه منة لك عندي ، أم
أن الجريمة أنك استعبدت أناساً ما كان ينبغي لك أن تستعبدهم ؟

على كل حال ، كانت طبيعة فرعون ، كما لاحظنا في الفراعنة أو المستبدين في
انجلترا وألمانيا وكل مكان ، وجدناهم يقسمون الأمة إلى قسمين : قسم يستلحقه ،
كأتباع ويغريهم بالمال والحظوة ، وقسم يستذله ويفرغ فيه سمومه . يقول سبحانه
وتعالى :

﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَذَّخُّ أُنْيَاءَهُمْ
وَيَسْتَخِيءُ نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ (القصص : ٤)

وكما قيل : إن الفساد يجيء من أعلى ويهبط إلى أدنى ، والإصلاح يبدأ من أدنى
ويصعد إلى أعلى .. فعلى الذين استضعفوا أو الذين استعبدوا أن يتحرروا أو يبحثوا
عن خلاص .. هذا واجب عليهم .. لأن الإصلاح يأتي من هذه الناحية وذلك الذي
أشار إليه القرآن في قوله :

﴿ وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ
﴿١﴾ وَتُمْكِنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِي فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴾
(القصص : ٥-٦)

لكن يبقى سؤال : من الذي يقوم بهذه المهمة ؟.. الشعوب ليس أمرها — كما يقول
الشيوعيون — هي التي تصنعه .. الواقع أنه لا بد ممن يفجر الطاقة ويجمع القوى ،
ويحرك الشعوب .. لا بد من عدسة تجمع الأشعة وتركزها .. ولذلك التعبير القرآني

فيما بعد كان منها :

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ ﴾ (القصص : ٧)

لأنه هو الذي سيقوم بهذه المهمة .. وعُرف أن موسى أُلقي في اليم ، وتربى في بيت فرعون .. الخ القصة المعروفة .

لاحظت أيضاً أن أول ما اصطدم موسى ، كان حمية لواحد من بني جنسه ، وقتل المصري الذي كان يهدد اليهودي . فلما تاب الله عليه ، كانت دعوته موضع نظر أو موضع استغراب ...

﴿ قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَن أَكُونَ ظَهِيراً لِلْمُجْرِمِينَ ﴾ (القصص : ١٧)

كأنه سيبقى على العهد به ، يحارب المجرمين والظلمة والمتكبرين ، ويبقى مع المستضعفين . وهي حقيقة وفى بها ، ولما تكررت المحنة ، كاد يفعل ما فعله المرة الأولى لولا أن الرجل قال له :

﴿ إِن تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا ﴾ (القصص : ١٩)

ومشى خارجاً عن مصر كي يأوي إلى الظل ويقول :

﴿ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾ (القصص : ٢٤)

وهي دعوة كلها رقة وتلطف في استئزال حب الله سبحانه وتعالى .. وتزوج ..

والواقع أنا أحياناً أنظر إلى هذا الزواج وأتساءل : هل الرجل الذي زوّج موسى كان شعبياً نفسه؟ ليس في القرآن ما يدل على هذا، وليس فيه أيضاً ما يمنع هذا،

لكن أكثر المؤرخين يرون أنه رجل صالح من قوم شعيب .. وترى في هذا المسلك الفطرة البشرية العادية التي لم يفسدها تكلف البشر عندما أقاموا مجتمعاتهم على التفاوت والتكلف .. عرض ابنته .. وروي أن عمر بن الخطاب عرض ابنته .. كأن الأمور بين الناس الكرام ليس فيها هذا الوجل الذي يجعل بعضهم يخاف .. ولكن أيضاً ، عمر رضي الله عنه عرض على أبي بكر رضي الله عنه ، فهو عرض على ناس كبار لهم شرف ومكانة لأن الإنسان قد يعرض ابنته على إنسان خسيس فتكون مأساة .. العرض ليس فيه شيء ، ولكن عندما تكون النفوس طيبة وعظيمة .

وقضية الجبروت في قصة فرعون ، نلاحظ في عدة أمور من أماكن في القرآن الكريم .. الشيء الأول : أن المصريين قال بعضهم لبعض : لنذهب إلى المبارزة بين السحرة وموسى

﴿ لَعَلَّانَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِن كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ ﴾ (الشعراء : ٤٠)

وهذا شيء عجيب ! فماذا لو غلب موسى هل سيتبعونه ؟ لقد فهموا أن الغالب لن يكون إلا الفراعنة ، أما إذا كان الغالب غيرهم فالله أعلم بمدى اتباعهم له .. تلك رهبة القوة ..

الشيء الثاني : الذين جاءوا لفرعون طلبوا أمرين اثنين : الحظوة والمال .. وفعلاً ، كانت لهم الحظوة وكان لهم المال .. والغريب أن هؤلاء السحرة تحولوا بين عشية وضحاها نماذج لأصحاب الفداء والتضحية والإيمان الصادق . ويعجب الإنسان كيف أنهم انقلبوا من الضد إلى الضد ! وقالوا لفرعون عندما هُددوا بأنهم سيستأصلون :

﴿ فَأَقِضْ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ ﴿ ٧٢ ﴾ إِنَّا أَمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَنَا وَمَا
أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ ﴿ (طه : ٧٢ ، ٧٣)

وهذا مسلك لمصريين مستضعفين شرح الله بالإيمان صدورهم، فكانوا على هذا المنوال .. وهم مصريون كانوا يخدمون الفراعنة ..

المصري الآخر صاحب القصة العجيبة : بدأ متخفياً واصطنع لهجة الحياذ ، وبدأ يتحدث حديثاً فيه تعليم ، وفيه ذكاء ، وقال للناس :

﴿ وَإِنْ يَكُ كَذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴾ (غافر : ٢٨)

وعلى الرغم من أنهم منتصرون في الأرض وأقوياء ، لكنه حذرهم:

﴿ يَقُومُ لَكُمْ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا ﴾
(غافر : ٢٩)

وكان رد فرعون من نفس العينة ، وكأنه يقول لهم : إذا كان هذا يحاول بالعقل والتؤدة والبحث أن يوصلكم إلى الطريق المستقيم ، فالطريق الذي أهدىكم إليه أنا هو الطريق المستقيم :

﴿ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴾ (غافر : ٢٩)

وعاد المؤمن الذي يستر إيمانه ، يحدث مرة ثانية ويذكرهم بأن موسى جاء البلد ودعا إلى التوحيد .. لكن أبى فرعون ! يقول تعالى :

﴿ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَتْهُمْ كُفْرًا مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴾ (غافر : ٣٤ ، ٣٥)

فهو يستخدم هنا كل ما يمكن أن يخارب به كبر ، وجبروت ، وطغيان ، واستبداد سياسي .

وعاد مرة أخرى يتحدث :

﴿ وَقَالَ الَّذِي ءَامَرَ أَنْ يَقَوْمَ أَتَيْعُونَ أَهْدِيَكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴾ (غافر : ٣٨)

فكشف عن نفسه ، ووجد أن المصارحة لا بد منها ..

والغريب أن فرعون ، ألحظ فيه ما ألحظه في المستبدين ، وهو أن فيهم كبرياء ، وعنادًا ، وفسوقًا ، وجحودًا ، وقسوة قلب عجيبة .. وفيهم أيضًا إلى جانب هذا كله ، غباء يستدعي النظر ! لأنه يطارد موسى ومن معه ، وجد البحر يخضع لعملية تحول غير عادية .. الأمواج تنحدر بمنة ويسرة ، ويبدو الطريق ييسأ .. فكان ينبغي أن يفهم أن هناك حالة غير ما ألف ، وغير ما ينتظر ، وهؤلاء — بعصا موسى — عرفوا كيف يشقوا طريقهم إلى البحر ، فكيف يمضي وراءهم ؟ إنه فهم أن البحر سيظل معجزة قائمة من أجله .. هذا هو الغباء ، وهو غباء مألوف في المتكبرين .. بل لاحظت أن نهايات هؤلاء الجبابرة تكون من غبائهم الشخصي .. فهم حتى آخر لحظة تكون لهم تصرفات فيها صلف ، وعمى ينسج على بصائرهم فلا يستطيعون أن يروا إلا أهواءهم .

والغريب أن الله سبحانه وتعالى يخص فرعون بخاصية إنه بعد أن يغرق هو ومن معه ، يرمي جثته على الشاطئ

﴿ لَتَكُونَنَّ لِمَنْ خَلَقَكَ ءَايَةً ﴾ (يونس : ٩٢)

ومع ذلك ،

﴿ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ ءَايَاتِنَا لَغَافِلُونَ ﴾ (يونس : ٩٢)

الذي كان يُسجد له بالأمس ويدعي الألوهية ، ها هو الآن أمامكم : ميتاً ، مكشوف
السوءة .. ومع ذلك ، لا يزال الناس في طغيانهم وكبريائهم .
لاحظت أيضاً : أنه مجادل بطريقة المتكبرين . لأنه قال :

﴿ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ (الشعراء : ٢٣)

ويقول العلماء : إن « ما » هذه تستخدم للسؤال عن الماهية والحقيقة . ولذلك
أجاب موسى بالأوصاف والخصائص :

﴿ قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنَّ كُنُتُمْ مُوقِنِينَ ﴾ (الشعراء : ٢٤)

فيرفض فرعون المضي في الجدل على أنه هو المقصود ، ويكلم الحاشية :

﴿ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴾ (الشعراء : ٢٧)

كأنه هو أكبر من أن يكون الكلام موجهاً إليه ..

﴿ قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنَّ كُنُتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ (٢٨) قَالَ لَئِنْ أَخَذْتِ إِلَّاهَ غَيْرِي
لَأَجْعَلَ لَكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ﴾ (الشعراء : ٢٨، ٢٩)

هنا بدأ الصلف وانطلق الكبر بعد أن شعر من حوله بأن المسألة لا تعنيهم بقدر ما
تعني فرعون نفسه ...

□□ هذا النموذج الذي ورد في القرآن الكريم ، ليكون عبرة للشعوب الذليلة ،
والمؤمنين في الصمود ومواجهة الظلم ، ويكون أيضاً للمستبدين والطغاة في
نهاياتهم ومصارعهم ، وما إلى ذلك ؛ له أبعاد نفسية متعددة يمكن أن توصل لتكون

منهجاً في تربية الشخصية الاستقلالية التي يحميها الإيمان من الظلم والسقوط واليأس ..

● لعل ذلك هو الذي جعل العرب يشتقون من الكلمة مادة لغوية : تفرعن ، يتفرعن ، تفرعناً .. فالفرعنة أصبحت مادة في اللغة العربية ، وهذا معناه أن المسألة أصبحت شائعة في الأجيال .. ويدل هذا أيضاً ، أن القرآن ما كرر قصة من قصصه الأولى التي ذكرها كما كرر قصة بني إسرائيل وفرعون .
وقد رأيت هذا أيضاً في سورة البقرة :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ ﴾ (البقرة : ٢٥٨)

لماذا جادله في الله ؟ ﴿ أَنْ أَتَاهُ اللَّهُ الْمَلَكُ ﴾ فكأن الملك هو السبب في إغراء الرجل بالكبرياء وادعاء الإلهية ، وأنه نظير لله فيما يفعل في الأرض .

أعتقد أن القرآن الكريم ، إنما قص هذه القصة عن فرعون وبني إسرائيل ، ومصير المستبدين ، سواء كانوا سياسيين أو اقتصاديين ، أو مالين ، إنما فعل هذا لكي نأخذ عبرة : بأنه ما يجوز ترك حاكم يتفرعن .. يجب تقليد أظافر الذين ينزعون إلى الاستعلاء على الخلق ، وادعاء الألوهية . فإذا كانت السلطة أو الثروة من أسباب الشذوذ ، فيجب أن تقيد السلطات بحيث لا تغري أحداً بهذا الاستبداد الأعمى ، وأن تقيد الأملاك ، وأن تراقب ، فلا تكون سبباً في أن يتألف من أصحاب الأموال طبقات من المترفين الذين يُفسدون في الأرض ولا يصلحون .

تدبر القرآن: عاصم من السقوط الحضاري

يقول الشيخ رشيد رضا في المنار : إن موسى ذكر في القرآن ١٢٠ مرة .. فما ذكر اسم نبي ولا ملك كما ذكر اسم موسى .. إن قصة موسى لم تُذكر للتسلية ، وإنما حتى لا يتحول الخلفاء إلى فراعنة ، وحتى تعرف الشعوب أيضاً أن عبادة غير الله جريمة ، وأن الرضى بالذل ستكون عقابه الهوان في الدنيا والهوان في الآخرة . ولعل القرآن الكريم تحدث كثيراً عن أن الأتباع يلحقون متبوعهم في جهنم ، لكي يقطع النفوس عن هذه التبعية الدليلة ..

﴿ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ۚ بَلْ هُمْ أَلْيَوْمَ مُتَسَلِّمُونَ ﴾ (الصافات : ٢٥ ، ٢٦)

﴿ وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ ۖ أَخَذَتْهُمْ سِحْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمْ الْأَبْصَارُ ﴾ (ص : ٦٢ ، ٦٣)

﴿ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتَضَعِفُوا أَنفَحْ صَدَدُنَا عَنْهُمُ الْهَدْيَ بَعْدَ إِذْ جَاءَهُمْ ۖ ﴾ (سبأ : ٣٢)

إلى آخر الآيات التي تحدثت عن هؤلاء ومنهم الفراعنة . لأنه بعد قصة فرعون مباشرة في سورة غافر ، تجد قوله تعالى :

﴿ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ۖ ۝ وَإِذْ يَتَحَايَرُونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ ۖ ۝ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا ۖ ۝ إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ ۖ ۝ ﴾ (غافر : ٤٦ - ٤٨)

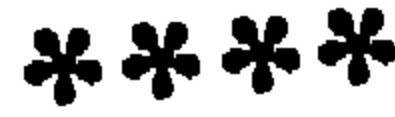
هذا المعنى ، تكرر نحو خمس مرات في القرآن الكريم ، حتى لا يكون هناك في الأمة أتباع مسحورون بقوة السلطة ، وحتى لا يكون هناك من فقد ضميره ، وإرادته ، وعقله ، وهو مخدوع بجبروت الجبارين . ويُن القرآن أن هذا الجبروت هالك في الدنيا

ولين يغني عن أصحابه أبداً .

هؤلاء الجبابرة سيتبرأون من أتباعهم يوم القيامة وعندئذ يقول الأتباع المقهورون
الأذلة :

﴿ لَوَأَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ
عَلَيْهِمْ وَمَاهُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴾ (البقرة : ١٦٧) .

ولو أننا تأملنا في القصص القرآني ، واستفدنا منه أحكاماً كما نستمد الأحكام من
آية الوضوء أو الغسل ، — واستفادة الأحكام من الواقع العملي في تاريخ البشرية أهم
وأجدر لأنها عامة ، ولأنها تتصل بسنن حضارية لا تتخلف — كانت الأمة الإسلامية
لا تقبل دنيّة أبداً .



لم ينتفع بالوحي ولم نعتبر بالتاريخ

□□ لو تدبر المسلمون القرآن تماماً، لما حلَّ بهم ما حلَّ من الاستسلام، والسقوط، والاستبداد السياسي والظلم الاجتماعي.. لكانوا في مستوى قرآنهم، وما قصَّ عليهم من قصص ليأخذوا العبرة، فتحول دون وقوعهم في ما وقع به الأتواء السابقون.. لكن، المشكلة: أن القرآن بقي معزولاً عن حياة المسلمين، فلم ينتبهوا إلى مثل هذه القضايا..

• يمكن أن نطبق على هذا، مغزى حديث رسول الله ﷺ: «لتبعن سنن من قبلكم شبراً بشبر، وذراعاً بذراع حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه» (١١٨).. قالوا: اليهود والنصارى.. قال فَمَنْ؟ فنحن مضينا على سنة من لم ينتفع بالوحي، ولم يعتبر بالتاريخ!

وقبل قصة فرعون، في سورة غافر، تجد هذا المعنى:

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَانَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ يُدْثِرُ بِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ ۖ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ۖ﴾
(غافر : ٢١، ٢٢)

ما كان ينبغي أن نخشع للجبابرة أو الفراعنة، لأن الله أقوى وأشد..

(١١٨) انظر تخریج الحديث بالهامش (١٠٩).

اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ..

هل تنطبق على الأمة كما تنطبق على الفرد؟

□ □ نزل القرآن الكريم بلسان عربي مبين . فلقد أسماه الله قرآناً عربياً . ولا شك أن العروبة المقصودة هنا هي : عروبة اللسان ، وليست عروبة الجنس والقوم ، وإن كان العرب هم مادة الإسلام وحملة رسالته إلى العالم ، حتى أن الله سبحانه وتعالى قال :

﴿ وَإِنَّهُمْ لَذِكْرُكَ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴾ (الزخرف : ٤٤)

فذكر القوم هنا ملفت للنظر ، كما أن الله سبحانه وتعالى عندما تكلم عن هجر القرآن ، جاء ذلك بلفظ :

﴿ وَقَالَ الرَّسُولُ يَرَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا ﴾ (الفرقان : ٣٠)

ووصف القرآن العرب بالضلال ، وهذا لا يعني بحال من الأحوال — في نظري على الأقل — عدم الأهلية لحمل الرسالة .. بل قد يعني الأهلية ، لأن الضال هو الذي يفتش عن شيء فلا يجده .. إنه ليس إنساناً سكونياً ، ولكنه يبحث عن مثل أعلى ، ويحاول أن يجده .. فإذا لم يجده ويصل إليه ، يُسمى : ضالاً .. فهل يمكن أن نقول : بأنه كان بين العرب . بخصائصهم وصفاتهم — وبين الإسلام ، تواجد ولقاء ؟ وإلى أي مدى يمكن أن ينطبق قوله تعالى :

﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾ (الأنعام : ١٢٤)

على الأمم كما ينطبق على الأفراد ؟

• الأستاذ موسى سالم ، يرى أن العرب كأن القدر صنعهم كي يكونوا حملة الإسلام وغرس في كيانه المعنوي مواهب نفسية وفكرية ، بل جعل حياتهم كأنها استعداد لتكون أواني يصب فيها الوحي .

على كل حال ، الذي لا شك فيه أنه كان لا بد أن تكون الرسالة في هذا الجنس ، لأنه ما كان يمكن أن تكون في الفرس ولا في الروم . لأن السلطة المركزية الموجودة في فارس أو الروم ، كانت ستلقي القبض فعلاً على مدّعي الرسالة وتنتهي منه في يوم . لكن ، الحياة العربية التي كان يعيش فيها المجتمع العربي ، حياة من لون خاص . فقد وفرت لأصحابها من الحرية ، ما تعرفه الآن الولايات المتحدة وإنجلترا وفرنسا . أمكن أن ينتعش الفرد في هذه الأيام انتعاشاً يحس بشخصيته ، ويقدرته ، وبامتداده المادي والأدبي دون أن يكون هناك حد لهذا . فالقبائل العربية كفلت لأبنائها ، بهذا التعصب أو التجمع ، ما جعل كل واحد منهم يفعل ما يريد . وهذا هو السر فيما أعتقد — وهو ما كتبه في كتابي « حديث إلى الأمة العربية » — أن الله اختار العرب بمثل هذا ابتداءً . وهناك صفات أخرى منها:

إن الحكم الذي يشيع بينهم ، وفر حريات لا نظير لها في للأرض . حتى أن المعارض يقاتل دون صاحبه حتى ييدي رأيه :

﴿ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْتَوْنَ عَنْهُ ﴾ (الأنعام : ٢٦)

فأبو طالب (١١٩) وغيره من بني هاشم يرون أن ابن القبيلة لا بد وأن يقول ما

(١١٩) عبد مناف بن عبد المطلب بن هاشم ، من قريش ، أبو طالب ، والد علي (رضي الله عنه) وعم النبي ﷺ وكافله ومربي وناصره ، ولد عام ٨٥ قبل الهجرة (٥٤٠ م) . وكان من أبطال بني هاشم ، ورؤسائهم ، ومن الخطباء العقلاء الأبهة . وله تجارة كسائر قريش . نشأ النبي ﷺ في بيته ، وسافر معه إلى الشام في صباه . ولما أظهر الدعوة إلى الإسلام هم أقرباؤه (بنو قريش) بقتله ، فحماه أبو طالب وصدهم عنه ، فدعاه النبي ﷺ إلى الإسلام ، فامتنع خوفاً من أن تعير العرب بتركه دين آبائه ، ووعد بنصرته وحمايته ، وفيه الآية : ﴿ إِنْكَ لَا تَهْدِي مِنْ أَحِبِّت ﴾ واستمر على ذلك إلى أن توفي عام ٣ قبل الهجرة (٦٢٠ م) .

عنده .. ونحن لا نتبعه ، لكن من حقه أن يقول رأييه .. هذا نموذج من الحرية لم يعرف في الأرض يومئذٍ ، جعلهم موهلين لأهلية الرسالة .

الشيء الآخر : أن العربي في هذه الصحراء ، أمكن أن تكون له خصائص ، تحتاج الرسائل العظيمة إليها ، مثل : اعتداده بنفسه ، اكتفاؤه الذاتي بالقليل ، أهم ما تنتظره من الخلق ، من الناحية الأدبية والمعنوية ، وجدناه عندهم .. حتى ، أن قاطع طريق مثل عروة بن الورد يرى أنه :

أليس عظيماً أن تلم ملمة

وليس علينا في الحقوق معول

وكما يقول طرفة (١٢٠) :

لو كان في الألف منا واحد فدعوا

من فارس ؟ خالهم إياه يعنونا

إن الشعور بالذات .. الشعور بأن العربي ، كان في شخصيته قوة ، ولا تزال في البداوة إلى الآن ، بقايا من هذه النفسية التي تعدد أكثر من اللازم بما تملك من خصائص مادية وأدبية .

يقول التاريخ : إن الجيش الفارسي ، وكذلك الرومي كانت وراءه عربات الأطعمة .. أما العربي ، فيكفيه أن يضع في جيبه تمرات ويقاقل .. لم يألفوا ذل الخضوع لسلطة مطلقة .. الانحناء للملوك ، والفساد الناشئ عن ترف ، والانحلال والرخاوة ، كل ذلك لم يكن موجوداً عند العرب . كانوا بعيدين عن ذلك .

(١٢٠) طرفة بن العبد بن سفيان بن سعد ، البكري الوائلي ، أبو عمرو : شاعر ، جاهلي ، من الطبقة الأولى . ولد في بادية البحرين نحو عام ٥٨٦ م (٥٣٨ م) ، وتنقل في بقاع نجد . واتصل بالملك عمرو بن هند فجعله في ندمائه . ثم أرسله بكتاب إلى المكعب (عامله على البحرين وعمان) يأمره فيه بقتله ، لأبيات بلغ الملك أن طرفة هجاه بها ، فقتله المكعب عام ٦٠ قبل الهجرة (٥٦٤ م) . أشهر شعره معلقته ، ومطلعها : «لخولة أطلال بركة نهمد»

□ □ يبدو لي: أنه كانت هناك بعض التوجهات للأفكار المثالية أيضاً، وهو ما يمكن أن نلمحه في نقطتين:

الأولى: وجود الحنفاء في المجتمع نفسه، وتأبيهم عن عبادة الأصنام، ومواقفهم منها.. فعبادة الأصنام لم تكن متعمقة في نفوسهم.. نجد شاعرهم يقول:

أربُّ يول الثعلبان برأسه؟

لقد هان من بالت عليه الثعالب

ويعدل عن عبادة الصنم عندما يراه بهذه الحالة المخزية.

الثانية: كان هناك توجه نحو فضائل اجتماعية، مثل: تفكيرهم في حلف الفضول الذي اتفقوا فيه على أن لا يبقى في مكة مظلوم إلا وترد له مظلمته، واجتمعوا على ذلك.. وعرفوا، أيضاً، نوعاً من الشورى، وكانت عندهم دار الندوة..

● إلى جانب ما تقول: إباء «أبو سفيان» (١٢١) — وهو مشرك —، أن يكذب! ومن كلمة هند بنت عتبة (١٢٢): أو تزني الحرّة يا رسول الله! رفض الكذب،

(١٢١) صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف: صحابي، من سادات قريش في الجاهلية. وهو والد معاوية رأس الدولة الأموية. ولد عام ٥٧ قبل الهجرة (٥٦٧ م)، وكان من رؤساء المشركين في حرب الإسلام عند ظهوره: قاد قريشاً وكنانة يوم أحد ويوم الخندق لقتال رسول الله ﷺ وأسلم يوم فتح مكة (سنة ٨ هـ) وأبلى بعد إسلامه البلاء الحسن. وشهد حنيناً والطائف، ففقت عينه يوم الطائف، ثم فقت الأخرى يوم اليرموك. فعمي. وكان من الشجعان الأبطال. ولما توفي رسول الله ﷺ كان أبو سفيان عاملاً على نجران. ثم أقي الشام، وتوفي بالمدينة. وقيل بالشام عام ٨٣١ (٦٥٢ م).

(١٢٢) هند بنت عتبة بن ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف: صحابية، قرشية، عالية الشهرة. وهي أم الخليفة الأموي «معاوية» بن أبي سفيان. تزوجت أباه بعد مفارقتها لزوجها الأول «الفاكه بن المغيرة» المخزومي، في خبر طويل من طرائف أخبار الجاهلية. وكانت فصيحة جريئة، صاحبة رأي وحزم ونفس وأنفة، تقول الشعر الجيد، وأكثر ما عرف من شعرها مرثيتها لقتلى «بدر» من مشركي قريش، قبل أن تسلم. ووقفت بعد وقعة بدر (في وقعة أحد) ومعها بعض النسوة، يمثلن بقتلى المسلمين، وينجعلن آذانهم وأنوفهم، وتجعلها هند قلائد وخلاخيل. وترتجز في تحريض المشركين، ثم كانت ممن أهدر النبي ﷺ دماءهم، يوم فتح مكة، وأمر بقتلهم ولو وجدوا تحت أستار الكعبة، فجاءته مع بعض النسوة في الأبطح، فأعلنت إسلامها، ورحب بها. وأخذ البيعة عليهن، وكانت لها تجارة في خلافة عمر. وشهدت اليرموك وحرضت على قتال الروم. وتوفيت عام ٨٢٤ (٦٣٥ م).

رفض الزنا .. كانوا يشعرون بأن التنزه عن الدنيا مطلوب ، حتى الذي كان يسرق ،
كان يسرق لأنه يريد أن يوزع بعض المال !

□ □ لكن ، قد تكون المشكلة هنا : أن بعض من يعملون على إلغاء النبوة ، يعتبر
الإسلام لوناً من العطاء العربي ، وعبقورية العقلية العربية ، وما إلى ذلك .. فهناك من
اعتبر الإسلام تطوراً ، أو امتداداً طبيعياً لواقع العرب في مرحلة معينة ، وأن العرب
كانوا سيبلغون هذه المرحلة الحضارية بشكل طبيعي ، لكن نزول القرآن سرّع ذلك !

نجد هذا الكلام في طروحات بعض أصحاب الدعوة القومية ، الذين يجهدون
أنفسهم في أن تكون القومية فلسفة علمانية بديلة للإسلام.

● هذا الكلام نرفضه .. لأن العرب — لولا الإسلام — كان يمكن أن يبقوا على ما
كانوا عليه طوال حياتهم .

□ □ وأيضاً بدليل أن بعض العرب الذين لم يقتنعوا بالإسلام ممن كانوا كباراً ،
ومؤثرين في الحياة العربية ، انقطعت صورتهم ، ولم يستطيعوا أن يُحدثوا أثراً ، وواجهوا
الإسلام أيضاً .. ولو كان الإسلام تطوراً طبيعياً لما واجهوه ، وبدا فيهم غريباً !

من مستلزمات الناقي القرآني والتعامل مع النص: معرفة معهود العرب في الخطاب

□□ نعود إلى قضية اللغة ، ونزول القرآن بلسان عربي ، وفهمه من خلال معهود العرب في الخطاب ، وإعجازه البياني ، ومسؤولية العرب في حمل رسالة الإسلام ..

● لم تكن اللغات الحديثة (الانجليزية ، الألمانية ، الفرنسية) موجودة عندما وجدت اللغة العربية .. فالإنجليز كانوا في الأصل قبائل الساكسون .. والألمان ينحدرون من أصول جيرمانية .. والفرنسيون من قبائل الوندال .. وكانت لغات هذه القبائل أشبه برطانات الحيوانات .. وكانت توجد اللغة اليونانية .. وهذه اللغة ، إذا قيست ، إلى الآن باللغة العربية ، يخيل إليّ أن اللغة العربية تتميز بخصائص ليست موجودة في هذه اللغات جميعاً .

□□ وتأسيساً على ما قلنا من اختيار العرب ليكونوا مادة الإسلام الأولى ، لما يحملون من مؤهلات ، فإن اللغة العربية ، بما تمتلك من خصائص ، كانت مؤهلة لأن تكون لغة الوحي ..

● كانت اللغة العربية في الحجاز ، حيث نزل الوحي ، أصفى اللهجات .. وكان بعض الناس يشبهون الجزيرة العربية بالأبريق الذي يجعل العكار تحت والصفو فوق . فاللغة العربية ، في الحجاز وشمال جزيرة العرب ، كانت بلغت مستواها الكامل .. أما في أماكن أخرى فلم تكن قد بلغت هذا المستوى . فنزل القرآن بلغة قریش .. وقد حاول المستشرقون أن يطعنوا في هذا الأمر . وتكلم طه حسين (١٢٣) حول انتحال

(١٢٣) طه بن حسين بن علي بن سلامة ، الدكتور في الأدب ، وعميد الأدب العربي . أحدث ضجة في عالم الأدب العربي . ولد في قرية «الكيلو» بمغاغة من محافظة المنيا (بالصعيد المصري) عام ١٣٠٧ هـ (١٨٨٩ م) ، وأصيب بالجدري في الثالثة من عمره ، فكف بصره ، وبدأ حياته في الأزهر ثم بالجامعة المصرية القديمة . وهو أول من نال شهادة «الدكتوراة» منها (١٩١٤) بكتاب «ذكرى أبي العلاء» وسافر في بعثة إلى باريس فتخرج بالسوربون وعاد إلى مصر ، فاتصل بالصحافة . وعين محاضراً في

الشعر ، لكي يرد على هذا المعنى . لكن الحقيقة ، أن اللغة العربية صُفيت وأخذت مداها الأحسن والأجمل في لغة قريش ، وهذا ما جعل كتاب الوحي كلهم يكتبونه بلغة قريش ، أو بلهجة قريش .

لاحظت ، في اللغات الأخرى ، مثل : الإنجليزية ، والفرنسية : أنه في كلتا اللغتين ، لا بد أن تأتي مع المبتدأ أو الخبر ، بفعل «يكون» .. واللغة العربية تخلو من هذا .. ويَحْتَلِإِلَيَّ أن فعل « يكون » أو « الكينونة » هنا أقرب إلى الطفولة العقلية .. فمثلاً يقولون : محمد يكون واقفاً !! فما معنى « يكون واقفاً » ؟ حذف هذا الفعل الوسيط «يكون» وجعل النسبة عقلية فقط ونقول : « محمد واقف » ، يفهم مباشرة وقوف محمد من التركيب ، يدل على أن اللغة العربية أنضج وأرقى ، وأبعد عن الطفولة في التعبير .. لقد أمكن ، من خلال الشعر العربي ، والبيان العربي ، معرفة ضوابط اللغة بدقة ..

□ □ قد يعيننا من هنا نقطتين :

كون القرآن عربياً ، بمعنى أنه يُفهم من خلال معهود العرب في الخطاب .. لكن ، هذا يقتضينا العودة إلى قوله تعالى :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِتُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾ (إبراهيم : ٤)

والرسالة جاءت عامة للناس جميعاً .. والأقوام الأخرى لا تعرف العربية .. ولا بد من قراءة القرآن بالعربية ، وفهمه من خلال معهود العرب في الخطاب — كما أسلفنا ..

فكيف يمكن أن نوفق بين الآية : ﴿ بِلِسَانٍ قَوْمِهِ ﴾ ، وعموم الرسالة ؟

كلية الآداب بجامعة القاهرة . ثم كان عميداً لتلك الكلية فوزيراً للمعارف . وفي هذه البرهة تمكن من جعل التعليم الفني والثانوي مجانياً . وكان من أعضاء المجمع العلمي العربي المراسلين بدمشق ثم رئيساً لمجمع اللغة بمصر . وأهم كتبه : « في الأدب الجاهلي » و « في الشعر الجاهلي » و « حديث الأربعاء » و « قادة الفكر » و « على هامش السيرة » و « مع أبي العلاء في سجنه » و « مع المتنبي » و « أحاديث » و « مع الأيام » و « مستقبل الثقافة في مصر » و « علي وبنوه » . توفي بالقاهرة عام ١٣٩٣ هـ .

(١٩٧٣ م) .

ترجمة معاني القرآن

ونقطة أخرى في التلقي ، والبيان ، والفهم والتعامل مع النص القرآني : ماذا عن ترجمة القرآن ؟ وما علاقة التفكير بالتعبير ؟ وكيف يمكن أن يكون التفكير إسلامياً ، وأن يكون التعبير بأي لغة غير العربية ؟ وهل يمكن إدراك أبعاد الفكر القرآني وتمثله فعلاً من غير اللغة العربية ؟

□□ هناك الآن دعوة خطيرة وهي : التفريق بين لغة العلم ولغة الدين .. هناك لون من التآمر على القرآن لإزاحة اللغة العربية ، وذلك باعتمادها لغة الدين .. أما العلم ، فلا بد أن يكون بلغة أخرى ! بمعنى : أن تكون هناك لغة للمعبد وهي العربية ، ولغة للمعهد العلمي وهي الإنجليزية أو الفرنسية ، أو ما إلى ذلك .. وهذه قضية خطيرة جداً .. شيئاً فشيئاً ، سوف تنفصل العربية عن الحياة ، ويحاصر عالم الدين نفسه في المسجد ليكون بعيداً عن أي استعداد لاستيعاب العصر .. وسوف يكون انقطاع عن التواصل اللغوي ، وإدراك الميراث الثقافي ، والتفاهم مع القرآن بالنسبة للأجيال القادمة .. فالقضية ذات أبعاد متعددة وخطيرة ..

● اتفق علماؤنا على أن النظم العربي ، جزء من النص القرآني .. جزء من الوحي .. ولا يمكن أن يسمى وحياً أبداً لو تُرجم القرآن إلى لغة أخرى ، مهما كانت الترجمة دقيقة ، ومهما كان وفاؤها بالمعاني .. يستحيل أن يُسمى هذا المنظوم قرآناً .. يُسمى : معاني القرآن ، يُسمى تفسير القرآن باللغة الإنجليزية أو الفرنسية .. الخ ، لكن القرآن لا يكون إلا عربياً .

عالمية القرآن ، تأتي بطريق ترجمة المعاني والأهداف للناس .. وما حاجة الناس إلى أن يُترجم لهم القرآن كله ، ناقصاً المعاني التي لا يمكن أن تُلاحظ إلا في الأصل العربي ؟

بمعنى : أن العلماء قالوا : هناك معان ثانوية غير المعاني التي تعطيها الكلمة .. عندي

في اللغة العربية : تعريف الطرفين يفيد القصر .. أي « أنا الكاتب » تعني : أن
غيري ليس بكاتب ..

﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ (الفاتحة : ٥)

تقديم المفعول أعطى قصراً .. فهذه المعاني الثانوية لا يمكن أن تُترجم أبداً مع ترجمة
القرآن الكريم إلى لغات أخرى .

□□ الذين يشتغلون بالترجمة الآن ، يقولون : مهما رقيت الترجمة ، وتقدمت ، لا
يمكن أن تغني عن الأصل ، وتنقل المعاني كاملة ، لأن جزءاً من الحقيقة يضيع أثناء
النقل من لغة إلى أخرى .. لذلك ، نرى كثيراً من الذين يحرصون على المعاني
الدقيقة والأهداف المطلوبة ، لا مندوحة لهم عن تعلم لغتها .. والتعامل السليم مع
النص القرآني يقتضي فهم النص وإدراك مقاصده ومراميه ..

● شعر شكسبير^(١٢٤) إذا تُرجم إلى اللغة العربية يفقد نصف قيمته الأدبية . لأن
قيمته في أصله ، وليست القيمة عندنا نحن .. وفي جميع اللغات للأصل قيمة
خاصة ، والترجمات تخضع لتحريفات كثيرة .

□□ نعود إلى القول : بأن القرآن نزل عربياً ، بلغة العرب .. ورسالة القرآن ،
رسالة شاملة وعالمية .. فكيف يمكن أن يكون الخطاب القرآني عالمياً ، وهو باللغة
العربية ، مع أن الأقوام الآخرين لا يعرفون العربية ؟

● أثار الزمخشري السؤال نفسه وأجاب عنه ، قال فيما أذكر : إن التراجم تغني في
هذه الحالة . لكن في البلاغ ، لا بد أن ينزل بلغة من اللغات .. وكونه ينزل بجميع

(١٢٤) شكسبير ، وليم Shakespeare William شاعر انجليزي ، ولد عام ١٥٦٤ م ، ويعتبر أشهر
الشعراء الإنجليز بلا استثناء ، وضع عدداً من المسرحيات الشعرية التي تمثل على معظم مسارح العالم
حتى الآن ، وتولي عام ١٦١٦ م .

لغات الأرض دفعة واحدة ، فهذا يعني أنه يحتاج إلى مائة نبي مثلاً لكي ينزلوا ويتكلموا بلغات أقوامهم .

لا بد أن ينزل القرآن بلغة وحيدة ، وعن طريق هذه اللغة الوحيدة ، واستيعابها للمعاني ، وقيام أهلها بالفهم ، يصدر ، عن طريق الترجمة والبيان لجميع اللغات الأخرى . وبهذا يمكن أن أنقل للناس معاني القرآن ..

القرآن فيه أمران : أهداف رئيسية ، ومحاور ، أو أحكام يمكن نقلها بدون حرج .. أما ما يصنع هذه الأحكام من الأسلوب القرآني كله ، يبقى في الأصل .. فلا تحتاج الأمم الأخرى إليه .. فأترجم مثلاً : الموارث ، الحدود ، خلاصة للقصة القرآنية .. أترجم خلاصات لأشياء كثيرة .. لكن ، الأساس يبقى : أنه كيف ينزل للعالمين بلغات كثيرة عالمية ؟ هذا مستحيل .. ينزل بلغة واحدة ، يقوم معينين ، ثم يُنقل عنهم ، ويُترجم ، أو يفسر .. فلا أقدم للناس قرآناً مترجماً ، ولكن ، أقدم لهم ، وأصدّر أحكاماً وقيماً ، وبعض السلوكيات المطلوبة فقط.

● لم تنفصل اللغة العربية عن الإسلام منذ طلعت على العالمين شمسها، فقد أصبحت جزءاً منه يقوى بقوتها ويضعف بضعفها ! بل إن القضاء على العربية هو حكم على الإسلام نفسه بالموت ..

وقد عمل الاستعمار العالمي على ذلك بدحرجة اللغة العربية إلى أسفل السلم التعليمي ، وإبعادها عن آفاق الحضارة الحديثة ، وتشجيع ساسة أو أساتذة استعجمت ألسنتهم وأخلاقهم ، وأمسى حديثهم بالعربية مثار استهزاء ..

والمعروف في تاريخنا من بدايته الأولى ، التسوية بين علوم الدين وعلوم اللغة ، وتدريس هذه إلى جانب تلك ، وتيسير التعريب لكل راغب فيه ورفع مكانته المادية والأدبية ..

ومع أن الفرس بقوا في بلادهم محافظين على لغتهم القديمة ، فإن من أراد منهم السيادة بين جماهير المسلمين تعرب ، وتبوا ما شاء من مناصب القيادة على أساس أن العربية لسان لا عرق 1..

وشيء وحيد مؤسف وقع في تاريخنا — في ثلثة الأخير — فإن الأتراك وضعوا أيديهم على الخلافة الإسلامية الكبرى ، وأبوا إلا أن يبقوا تركاً بلغتهم الأولى ، ولما كان الإسلام عربي اللسان والثقافة فإن فجوة وقعت بين السلطات الحاكمة والشعوب المحكومة ، كانت سبباً خطيراً في انهيار المسلمين جميعاً ديناً ودولة ..

ثم إن العبادة في الإسلام تشمل العلم والعمل جميعاً ، فليس هناك لغة للعلم وأخرى للعبادة .

كل فجّ للمعرفة في أرجاء السماء والأرض هو عبادة ، وعلم الفقه ليس أقرب إلى الدين من علم الحديد ، فالحقيقة وسياجها شيء واحد .. ومحاولة المستشرقين والمبشرين وأعوانهم من جلدتنا أن يجعلوا الطب إنجليزياً ، والهندسة إنجليزية ، هي ذريعة للقضاء على علوم التفسير والحديث يقيناً ، إن لم يتم اليوم فغداً ..

واللغة العربية تستطيع استيعاب جميع علوم الحياة ، وقد ظلت ألف سنة محيطة

بكل ثقافة في العالم ، على حين كانت الألسنة الأخرى تخطو بخطى الأطفال على
ظهر الأرض ..

ومعلوم أن الاشتقاق والنحت كفيلا باستقبال كل جديد مما يخترعه البشر هنا
وهناك ..

إن الهزائم النفسية والدينية التي محقت الشخصية العربية عند بعض الناس ؛ هي
التي أهانت اللغة العربية ، وحطّت من قدرها ، ويوجد الآن ساسة يجيدون كل رطانة
ويلوون ألسنتهم بشتى اللغات ، فإذا تكلموا بالعربية وجدت أطفالاً يتعثرون ،
ويجثمون ويلحنون ، ولا يحسّون أدنى حياء ، لأنهم فقدوا عزة الإيمان ، بل فقدوا
كرامة الإنسان .

من يهن يسهل الهوان عليه ما لجرح بميت إيلام

دور اللغة في إدراك مقاصد النص القرآني وصياغة وحدة الأمة

□ □ هناك قضية، أرى من المفيد إثارتها، وهي: أن اللغة كسبية أصلاً، وليست قصرية .. وبمقدور أي إنسان أن يتعلم اللغة .. وقد تعلم كثير من غير العرب اللغة العربية، من أجل فهم القرآن، وإدراكه، ولهم في ذلك كسب رفيع .. لأنهم اعتقدوا أنه لا يمكن الوصول إلى فهم القرآن إلا بلغته الأصلية .. والآن، أي إنسان يريد فهم أي كتاب، لا بد له من تعلم لغته .. ولذلك أرى أن من مستلزمات فهم الإسلام أن يتعلم الناس العربية .. وقد تُقبل الترجمة في المراحل الأولى، لأنها يمكن أن تؤدي دورها لإفهام الناس أبعاد العقيدة، وأنماط الحياة، والسلوك، والعبادة، وما إلى ذلك .. لكن، بعد ذلك، لا بد أن يقود الإسلام إلى تعلم العربية لإدراك مدلول الخطاب الإلهي الذي نزل بلغة العرب ..

ولا شك بأن الأمة الإسلامية، أمة واحدة، وأن اللغة المشتركة هي وعاء لشعور الأمة، وصياغة له، وهي أوعية تفكير الأمة .. فإذا تعددت اللغات، يُخشى أن تتعدد الأوعية، وتتمزق وحدة الشعور، وبالتالي نفتقد بعض خصائص وميزات الأمة الواحدة نظراً لتشعب اللغات..

ونقطة أخرى أراها في هذه القضية الهامة :

إن علماء النفس يتكلمون طويلاً عن علاقة التفكير بالتعبير، وأن اللغة ليست مجرد قوالب تُصب فيها المعاني، وإنما تتأثر المعاني أيضاً بالألفاظ.. والألفاظ تتأثر بالمعاني .. فهناك علاقة جدلية بين التفكير والتعبير .. فالتعبير قوالب التفكير .. إن كلاهما يتأثر بالآخر.. فإذا قبلنا الانتقال بالقرآن من اللغة العربية إلى لغات أخرى، فسوف يصاب التفكير، أي : يوتئ التفكير من خلال التعبير ..

ونقطة أخرى أيضاً :

نرى أن كثيراً من المسلمين، ومن بعض الذين يقومون على أمر العمل الإسلامي

اليوم ، بردت الهمم عندهم في تعلم العربية ؟ واقتصروا على آيات يؤدون بها الصلاة فقط تحت شعار : (نحن نفهم القرآن من خلال الترجمات) ، ويقولون — باللفظ نفسه تقريباً — : ليس المهم إسلامية التعبير ، أو عربية التعبير ، وإنما المهم إسلامية التفكير ، وليكن التعبير بأي لغة !

فأنا أرى: بإطار نشر الدعوة ، وإبلاغ الإسلام للناس ، والتكاليف الشرعية ، ونظريات الإسلام ، ومقاصد الشريعة في المحاور المتعددة ؛ أن نأخذ بالترجمة .. وتشكل هذه ابتداءً ، مرحلة تعريف الشعوب بالإسلام .. لكن ، انتهاءً ، لا بد من تعلم اللغة العربية ، لغة الأصل ، لوحدة الفكر ، ووحدة التذوق والتعبير ، والتفكير ، وصياغة الأمة .. وإلاّ ، إذا سلمنا بالترجمة ، وبأن الترجمات تغني عن المعاني ، فسوف تقع المشكلة ، بل الكارثة !

• الترجمات لا تغني أبداً .. وأنا أوافق على ما تقوله كله ..

قضايا مطروحة للنظر والرأي

□ □ هناك بعض التعقيبات خطرت ببالي ، أرجو أن أسمع رأيكم فيها :

أولاً : ما جاء في القرآن الكريم من قصص ، إنما حققت الشهود التاريخي لرحلة النبوة .. ونرى أن المقصد منها : تحقيق العبرة ، والدرس للشهود الحضاري ، وممارسته وبناء الفرد .

وعملية التغير ، من الكفر إلى الإيمان ، ذات أبعاد متعددة : تربوية ، ونفسية ، وعقلية ، وهي عملية شاملة لجميع جوانب الحياة .. فلا يمكن أن يتم التعبير بالاعتماد على الجانب الفقهي ، أو التشريعي فقط .. فلا بد لنا من رؤية قرآنية شاملة .

ثانياً : أهمية إعادة التصنيف الموضوعي للقرآن الكريم ، بمعنى : إعادة تصنيف الآيات بحسب موضوعها من العلوم الاجتماعية (غير المحاور التي يتكلمون عنها منذ فترة طويلة وهي : العقيدة ، والأخلاق ، والتشريع ، والمعاملات) ؛ ألا يمكن إعادة تصنيف الآيات على ضوء التفسير الموضوعي ، أي : بحسب موضوعها من العلوم الاجتماعية ؟

كيف يمكن جمع الآيات التي تتناول « القضية » لإلقاء مزيد من الأضواء عليها في مجالات متعددة ليكون القرآن هو المورد الثقافي ، أو تكون له صفة مرجعية للعلوم الإنسانية ، لأن موضوع القرآن هو الإنسان ، وليست الأحكام التشريعية والصفات والتعاليم الأخلاقية جزءاً من الصورة ؟

● لاحظت في القصص القرآني ، أن أول عرض لقصة آدم عليه السلام في سورة البقرة ، أن ما ذكر عن آدم في السورة هو آخر ما ذكر في القرآن الكريم كله ، لأن قصة آدم ذكرت في السور المكية : الأعراف ، الكهف ، الإسراء ، ص ، طه ، وفي أماكن كثيرة .. لكن آخر ما ذكر عن آدم كان في سورة البقرة ، وهو أول ما يبدأ به الإنسان عندما يتلو القرآن من المصحف الشريف .. آخر ما نزل ، أول ما يقرأ .. وهذا من غير شك ، ترتيب إلهي ، لحكمة قد نعرفها الآن وقد لا نعرفها .. لكن ،

المهم أنه عندما يتحدث بعض الناس عن قصة موسى في القرآن ، أو عن المرأة في القرآن ، عن الجزاء في القرآن ، عن العمل الصالح في القرآن ، ... هي قضايا .. هذه القضايا ، يمكن النظر إليها من خلال دراسة الآيات التي نزلت بها ، تجمع أولاً .

□□ هذا ما أقصده : الجمع .. ففي علم الاجتماع ، بعدما تبلور العلم وأصبح له أبعادٌ معينة ، يمكن — من خلال فهمنا لهذا العلم ونظرنا في القرآن — أن نلمح آيات لها علاقة بالمسألة الاجتماعية فنجمعها .. ثم تدرس هذه الآيات متجاوزة ، مستفيدين أثناء الدراسة مما وصل إليه العلم الحديث من وسائل ومناهج وفهم ، وأبعاد في الشخصية الإنسانية ، لنكوّن من خلالها مرجعية معينة لعلم الاجتماع في القرآن .. وكذلك المسألة التاريخية .. وغيرها من المسائل .. لقد قدم لنا الكسب العلمي ، قدرات إضافية على إدراك أبعاد الآيات القرآنية ، كما أن الآيات تربط مسيرة العلم بأهداف إنسانية ، وهو ما يُسمى اليوم بفلسفة العلوم .

● التفسير: نقل بدايات القرآن إلى ما يشغل الإنسان على ظهر الأرض حتى لا تكون آيات القرآن بمعزل عن واقع الناس وحياتهم..

□□ نريد خطوة أكثر : إلى أي مدى يمكن أن تشكل هذه الآيات مرجعية للإنسان ، ومصدر للمعرفة ، ينطلق منها إلى هذه المجالات ؟

● يخيل إليّ أن الذي يجمع ويُفسر ، هو الذي يكون جسراً لعبور البدايات إلى الناس ، بقدر ما أوتي من إدراك . لأن الناس يتفاوتون في فهم القرآن تفاوتاً عجيباً . ولذلك ، فسّر بعض الناس ، آية :

﴿ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا ﴾ (الرعد : ١٧)

بأن هذه أوّانٍ ، دقتها وسعتها من عند الله ، ينزل المطر فيملاً الآنية الصغيرة ، والآنية الكبيرة .. وهذا سر ما جعل علي بن أبي طالب كرم الله وجهه يقول : إلّا فهماً يؤتاه رجل في كتاب الله.. فهناك من يستطيع أن يفهم في الكتاب أو في السنّة أفهاماً يُهدى إليها ، ما يراها غيره ، بل يستغربها عندما تُساق إليه ، وهو إنّما أخذها من الكتاب .. فالتطبيق الحسن يجيء من فهم جيّد ، ثم تنزيل هذا الفهم على واقع الحياة ..

التفسير بالمأثور.. والتفسير بالرأي

□□ هناك مشكلة قديمة جديدة ، وهي : مشكلة النهي عن التفسير بالرأي .. وهذا النهي أورث لونا من التخوف ، وأوجد حاجزاً نفسياً يحول دون النظر في القرآن ، ومحاولة ارتياد آفاق حضارية تؤكد معنى الخلود للقرآن الكريم من خلال استمرار القراءة القرآنية لقضايا العصر.. وحرص بعضهم في ضوء ذلك، على التوقف عند حدود التفسير بالمأثور ، وعدم إتاحة الفرصة للعقل في التدبر والنظر .. كما أدى هذا إلى لون من التجمد عند حدود الرؤية في عصر التنزيل .. وهذا ، إن صحَّ في العبادات التوقيفية ، التي لا تتطور ، فلا يمكن أن يُقبل في شؤون الحياة الأخرى المتطورة والتي لا بد لها من الإنطلاق والامتداد على هدي القرآن الكريم ، والاعتراف منه على مدى الزمن ، بكل إنجازاته ، لأن ذلك من مقتضى الخلود .. فقد تكون عملية تحريم الرأي بإطلاق الناتجة عن النظر والتفكير في القرآن، لونا من المحاصرة لامتداد القرآن وخلوده! فالناس أصبحوا يتلون القرآن للتبرك، وأصبحت هناك حواجز بينهم وبين التدبر، كلون من الألوان السلبية للنهي عن التفسير بالرأي، وعدم القدرة على استبانة الرأي الصحيح.. ويبقى التفسير بالمأثور مطلوباً ليكون من عواصم الزلل التي يمكن أن يقع بها التفسير بالرأي، من وجه آخر.

● أعتقد أن الرأي الذي نُهينا عن تفسير القرآن به هو الهوى .. وهو أن يكون الإنسان سيء النية أو متجهاً إلى مأرب من المأرب فيتلو القرآن ، ويلوي عنقه كي يخدم هذا المأرب وهذا الرأي.. وهذا هو المحرم شرعاً.. لا أن يكون للإنسان رأي في تفسير القرآن ، مع ضوابط اللغة التي لا يمكن اختراقها ، لأننا لا نحب أن ندخل في شطحات المتصوفين التي ليس لها ضابط ، بل هي خطرات قلوب ، أدت بهم إلى أن يجعلوا للكلمات معاني أخرى لا ضوابط لها ، فمثلاً ، فسروا قوله تعالى :

﴿ أَذْهَبَ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴾ (النازعات : ١٧)

ب: اذهب إلى القلب (!) وهذا كلام لا يُقال ...

لكن المهم : أنه يُمكن أن نفهم القرآن فهماً اجتماعياً وسياسياً في حدود ضوابط اللغة ..

□□ قد يكون من المفيد أن نتحدث أولاً عن : أهمية التفسير بالرأي .. وثانياً عن : ضوابط التفسير بالرأي ؟

● التفسير بالرأي ، نوع من التفاسير ، كالتفسير الأثري ، والفقهي ، والكلامي ، والبياني ، والصوفي ، والعلمي ... ولعل التفسير الذي بدأ به الشيخ رشيد رضا ، نوع من التفسير الذي يجمع أنواعاً من الآراء .. فهو مدرسة متعددة المناهج في فهم القرآن ... فأنا أرى أن التفسير بالرأي لم يتوقف ، بل بالعكس ، فقد طغى التفسير بالرأي على التفسير الأثري ، وهناك عدد كبير من الناس يرى أن الاختصار على التفسير الأثري ، يقيد الآيات ..

التفسير الأثري لا يعرض للمشكلات البلاغية ، والمشاكل الكلامية ، وهناك أمور كثيرة ، لا يتوقف عندها .. بينما التفاسير الأخرى هي التي دخلت بالقرآن إلى الحياة ومشكلاتها .. وأكاد أقول : إن التفسير الأثري أخضع الآيات للأحاديث □□ وهذا قد يكون طبيعياً في الأسانيد الصحيحة لأن الرسول ﷺ هو الميّن عن ربه.

● لكن المشكلة: أن بعض الأحاديث التي جاءت في التفسير بالمأثور ، تكون ضعيفة السند.. وهذا، أيضاً، في تفسير ابن كثير الذي نجد فيه بعضاً من المتضادات.. فعندما يفسر قوله تعالى:

﴿ قُلِ الْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ﴾

يأتي بمتناقضات ! يأتي بحديث ضعيف وخفيف الوزن .. ويأتي بأحاديث أخرى تدل

على أن الكحل في العين والحمرة في الخد، لا بأس بهما ولا مانع منهما.. فهو تفسير غير محقق، أو تفسير يحتاج إلى ضوابط وإلى تحقيق في صحة الآثار وتفنيدها. ويؤسفني أن أقول: إن بعض التفاسير بالآثر، بلغ أحياناً درجة من الإسفاف، فمثلاً ذكر قصة الغرائق، وذكر قصة زينب بنت جحش على النحو الذي ذكر.. التفسير الأثري يحتاج رقابة دقيقة عليه.. أما التفسير بالرأي، حيث يكون الرأي بيانياً، أو علمياً، أو لغوياً، أو ما إلى ذلك، فإنه يأتي ثمرة للنظر، والتدبر في القرآن.. والتدبر يعني: رأي، ويعني: فكر، واستنتاج.

والقرآن، كتاب عربي، يخضع للأساليب العربية في الفهم، ولا نسمح أبداً بالشطحات.. لا بد أن تبقى الكلمة هي الكلمة.. لا بد أن يفهم القرآن من خلال معهود العرب في الخطاب، ومن دلالات الألفاظ كما كانت عند العرب. فكما تشرح أي قصيدة شعرية: الكلمات، والمجاز، الاستعارة، التشبيه، الكناية، كل هذا يبقى في نطاق الاصطلاحات العربية لا نخرج عليها، فمعنى أن القرآن عربي: هو أنه يخضع للفهم بالأسلوب العربي..

من ضوابط التفسير بالرأي

□□ هنا مجموعة من الضوابط التي رأيتها للتفسير بالرأي :

الضابط الأول : الالتزام بفهم القرآن من خلال معهود العرب في الخطاب .

الضابط الثاني : استصحاب الصحيح من المأثور ليكون وسيلة معينة على الفهم ، وضابطاً من خطرات القلوب ومجازفات الهوى .

الضابط الثالث : التعرف على أسباب النزول لتكون وسائل إيضاح معينة لتعدد الرؤية وتنزيل النص على الواقع المعاش .

الضابط الرابع : عدم الخروج على قواعد المنطق ، والعقل السليم ، أو ما تقتضيه الفطر الصحيحة ، ودلالة الألفاظ ، والصيغ .

الضابط الخامس : عدم الخروج بالتفكير أو بالرأي عن المقاصد العامة التي حددت في القرآن على أنها مسلّمات .

الضابط السادس : الاستفادة من الكسب العلمي ، والحقائق المعرفية في ميادين الحياة الاجتماعية وغيرها — والتي أصبحت حقائق — أثناء النظر للآيات ؛ وفي الوقت نفسه جعل الآية قيمة عامة موجهة لحركة النظر والفكر .. فالعملية هنا مزدوجة ، إذ ليس الكسب البشري والمعارف هي التي تتحكم بالآية .. إنها تساعد على فهم الآية ، في الوقت الذي تبقى فيه للآية قيمة التوجيه ، وتحديد الهدف والمقصد من العلم .

أمية الأمة .. وأمية الشريعة

● هناك قضية هامة وردت فيما سبق ، وهي : قضية أمية الأمة ، وأمية الشريعة ، التي أتى الشاطبي على ذكرها .. وهي قضية خطيرة إذا أخذناها على إطلاقها ،

تؤدي إلى محاصرة العقل .. فهل يُعقل أن تكون هذه « الأمية » خالدة ؟ أم أنها مرحلة مؤقتة ، كان العرب عليها ، ومن ثم انتهت وأصبحت الأمة تكتب وتحسب ؟ وأرى أن الأمة ، في مرحلة من حياتها ، قد تكون أمية لا تقرأ ، ولا تكتب ولا تحسب ، ثم يتغير حالها إلى مرحلة أخرى ، فتصبح أمة عالمة قارئة .. فهل يمكن أن تبقى الأمة متوقفة على الوسائل الأمية في النظر والحكم والعلم ؟ الأمة اليوم أصبحت تقرأ ، وتكتب ، وتحسب .. فالتقرير على أن الأمية صفة قسرية ، أو ملازمة للأمة ، وأن الأحكام يجب أن تبقى مناسبة لمرحلة الأمية ؛ أظن أنه أمر يتعارض مع طبيعة الحياة ، وسيورتها ، كما يتعارض مع خلود الرسالة وقدرتها على الاستجابة لدواعي العصر .

وأمر الإصرار من بعض العلماء على « الأمية » عجيب ! وهو ما أدّى إلى التعسف والتوقف عند بعض المفهومات وعدم تجاوزها .. « إنّا أمة أميّة لا تكتب ولا تحسب » (١٢٥) لكن ، هل هذا يعني أن تبقى الأمة أبداً لا تقرأ ، ولا تكتب ، ولا تحسب ؟ وهل هذا يعني أيضاً أن نبقي بعيدين عن الكسب العلمي ، وكانت أول آية نزلت ، تفرض التعلم والتحول إلى القراءة والكتابة ؟

والسؤال أيضاً : بعد نزول القرآن ، هل تبقى الأمة أميّة ؟ لقد كانت أمة أميّة ، ثم جاء هذا العلم المزدوج المضاعف الكثير في كتاب الله ، فكيف تبقى أميّة بعده ؟ هذا مستحيل ..

والسؤال هو : هل كلمة « أميّة » التي وردت في الحديث نسبة للجهل أو الأمّة ؟ فاليهود يرون أن « النبي الأمي » تعني : النبي المبعوث من غيرهم ، أو من بقية العالم ..

● ويحتمل إلّا أن المقصود « بالنبي الأمي » النبي الذي خرج بعيداً عن الدائرة التي كان يؤخذ منها الأنبياء ، وهي إسرائيل ، وإن كان هناك أنبياء عرب .

(١٢٥) الحديث متفق عليه ، رواه البخاري في صحيحه — عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه — في كتاب الصيام ، باب : قول النبي ﷺ : لا نكتب ولا نحسب . ورواه مسلم في صحيحه ، في كتاب الصيام ، باب : وجوب صوم رمضان لرؤية الهلال والفطر لرؤية الهلال ، وأنه إذا غم في أوله أو آخره أكملت عدة الشهر ثلاثين يوماً .

والمعروف أن القرآن علم ، بل هو العلم .. والتعبير عن أنه العلم موجود في آيات كثيرة ..

﴿ وَلَئِنْ أَتَبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ﴾ (البقرة : ١٢٠)
ولما سأل الرسول ﷺ أبي بن كعب (١٢٦) عن أفضل آية عنده ، قال : آية الكرسي . قال له : « والله ، لِيَهْنِكَ الْعِلْمُ أبا المنذر » (١٢٧) .
ويقول تعالى :

﴿ وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ ﴾ (النساء : ٨٣)
فالعلم هو صفة القرآن .. وصفة المشتغلين به . فكيف يقال : إن الأمة أمية مع القرآن؟ هذا مستحيل . والقرآن نفسه وجه لاقتحام أسوار الحياة والتغلغل في أسرارها ، ومجال العلم الإلهي فيها والحكمة الإلهية فيها . فكيف يُقال : إن الرسالة أمية ؟

□ □ ألا يمكن أن يكون هناك أفق آخر للقضية، وهو: أن التكاليف والعبادات وما إلى ذلك، يمكن أن تكون لها صفة العموم، وتشمل الناس جميعاً بمختلف مستوياتهم الفكرية والعلمية، والرسالة ميسرة لكل بحسب كسبه.
كأنني أُلح من بعض الوجوه أن التعاليم الإسلامية كالأمر بالصلاة والصوم .. الخ لا تستدعي سوية معينة من الكسب العلمي حتى يستطيع الإنسان أن يدركها وإلا كيف يمكن أن نخرج ذلك من الأمة الأمية.

(١٢٦) أبي بن كعب بن قيس بن عبيد ، من بني النجار ، من الخزرج ، أبو المنذر : صحابي أنصاري . كان قبل الإسلام حبراً من أحبار اليهود ، مطلعاً على الكتب القديمة ، يكتب ويقرأ — على قلة العارفين بالكتابة في عصره — ولما أسلم كان من كتّاب الوحي ، وشهد بدرأً وأحداً والخندق والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ وكان يفتي على عهده ، وكتب كتاب الصلح لأهل بيت المقدس . وأمره عثمان بجمع القرآن ، فاشترك في جمعه ، وله في الصحيحين وغيرهما ١٦٤ حديثاً . مات بالمدينة عام ٥٢١ هـ (٦٤٢ م) .

(١٢٧) الحديث رواه مسلم في صحيحه — عن أبي بن كعب رضي الله عنه — في كتاب : صلاة المسافرين وقصرها ، باب : فضل سورة الكهف وآية الكرسي .

● المدرسة التي تعلم المسلمون فيها هي الصلاة.

□ □ وتعقياً على ما ذهب إليه الشاطبي، أقول: إن العرب إذا كانوا في ذلك العصر، أمة أمية، فالأمية لا يمكن استمرارها.. هذا شيء..

والشيء الآخر: أن الخطاب ليس للعرب ولكنه للناس جميعاً — المتعلم وغيره — كما أنه ليس لزمان واحد فقط ..

● كان العرب أمة أمية .. وكان الفرس والرومان هم المثقفون .. وعندما أنظر إلى الفرس والرومان أجد أنه كانت لديهم جهالات ربما لم تكن موجودة عند العرب .. وربما كان العرب أحسن أخلاقاً من الروم والفرس ، في جاهليتهم تلك

﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾ (الأنعام : ١٢٤)

□ □ قول الرسول ﷺ : « إِنَّا أُمَّةٌ أُمِّيَّةٌ » ، أي تجهل الكتابة والحساب في عصر معين — لا يقتضي أن تبقى أمية دائماً ، والقرآن خطاب خالد مجرد عن حدود الزمان والمكان .

لا أدري : ما مدى صحة حديث : « نحن أمة أمية لانقرأ ولا نحسب » ؟

● الحديث موجود في كتب الحديث .. لكن ، لست خبيراً بالرجال ، ولا بد من التحقيق في الموضوع ، والجمع بين الآثار .. لكن ، هناك أمر لا بد أن أذكره من باب الأمانة، وهو: كان عندنا محمد أحمد عثمان ، رئيس جمعية مكارم الأخلاق، ووكيل الجمعية الشرعية في مصر ، ذكر حديث السحر ، وقال : الحديث ، سنده فيه كلام .. ووضّح أن فلان عن أبيه ضعيف .. أي أنه ضعف السند الذي روى به البخاري حديث السحر .. فأنا ارتبت فيما يقوله الرجل من ناحية الإسناد ، حتى وقع هذه السنة كتاب في يدي لجماعة من المغاربة يكتبون في السنة ومتخصصون في الكتاب والسنة، وهم جماعة الغماري (أحمد وصديق الغماري..) فوجدت بحثاً في الأسانيد استوقفني:

الحابس الأعور متهم عندنا بالتشيع ، ونعتبره ضعيفاً ، لا نقبل حديثه .. هو كان

من بعض من طعن فيهم ، الأعمش (١٢٨) .. والأعمش كذاب .. وطعن فيه ، لأن الأعمش كان يعمل لحساب بني أمية ، وكان الحابس ممن يفضلون علياً ، لكنه لم يكن متشيعاً ، وكان من الصدق حتى أنه لم يتحدث أحد بأنه كان كذاباً .. وتكلم الكتاب عن الحابس وقال : إنه أفضل من عدد من رواة البخاري .. الأعور ما اتهم بوضع ، ولا اتهم بكذا وكذا .. وجاء بأسماء : فلان عن فلان ، وفلان متهم بأنه كذب ووضع ، وفلان كذا .. الخ

أنا اندهشت مما جاء في هذا الكتاب .. واستبقيت الأمر في نفسي إلى أن قابلت الشيخ عبد الفتاح أبو غدة وهو من علماء الحديث . قلت له : أريد أن أعرف منك حكاية قرأتها ، وبحاجة لأن أعرفها .. الذهبي (١٢٩) عندما مرَّ بحديث : « من عَادَى لي ولياً فقد آذنته بالحرب » (١٣٠) قال : لولا جلالة الحافظ أبي عبد الله البخاري (١٣١) ، النفس فيها شيء من هذا الحديث ، لكني لا أكذبه .. فالذهبي لا يريد أن يقول إن في الحديث كلاماً ، لكن هناك من قال : إن في رواية البخاري كلاماً .. وذكرت له فلان وفلان .. نفس الأسماء التي وردت في كتاب المغاربة ..

(١٢٨) سليمان بن مهران الأسدي بالولاء ، أبو محمد ، الملقب بالأعمش ، تابعي ، مشهور . أصله من بلاد الري ، ومنشأه ووفاته في الكوفة . كان عالماً بالكوفة . كان عالماً بالقرآن والحديث والفرائض ، روى نحو ١٣٠٠ حديث . ولد عام ٦١١ هـ (٦٨١ م) ، وتوفي عام ١٤٨ هـ (٦٧٥ م) .

(١٢٩) هو محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز أبو عبد الله ، شمس الدين الذهبي . تركاني الأصل من أهل دمشق . شافعي . إمام حافظ مؤرخ ، كان محدث عصره . سمع عن كثيرين بدمشق وبعليك ومكة ونابلس . برع في الحديث وعلومه . وكان يرحل إليه من سائر البلاد . وكان فيه ميل إلى آراء الحنابلة ، ويمتاز بأنه كان لا يتعدى حديثاً يورده حتى يبين ما فيه من ضعف متن ، أو ظلام إسناد ، أو طعن في روايته . من تصانيفه : «الكبائر» ، و «تاريخ الإسلام» في واحد وعشرين مجلداً ، و «تجريد الأصول في أحاديث الرسول» . ولد عام ٦٧٣ هـ ، وتوفي عام ٧٤٨ هـ

(١٣٠) الحديث رواه البخاري في صحيحه ، عن أبي هريرة رضي الله عنه ، في كتاب الرقاق ، باب : التواضع

(١٣١) محمد بن إسماعيل بن إبراهيم ، أبو عبد الله ، البخاري . حبر الإسلام ، والحافظ لحديث رسول الله ﷺ . ولد في بخارى ، ونشأ يتيماً ، وكان حاد الذكاء مبرزاً في الحفظ . رحل في طلب الحديث ، وسمع من نحو ألف شيخ بخراسان والشام ومصر والحجاز وغيرها . جمع نحو ٦٠٠ ألف حديث اختار مما صح منها كتابه «الجامع الصحيح» الذي هو من أوثق كتب الحديث . وله أيضاً «التاريخ» ؛ و «الضعفاء» ؛ و «الأدب المفرد» وغيرها . ولد عام ١٩٤ هـ ، وتوفي عام ٢٥٦ هـ .

فسكت قليلاً ثم قال : هذه الأسماء أثرت حولها شكوك لكن تجاوزوها وليس لها قيمة .. قلت له : لماذا ؟ إذا كان هناك شخص متهم بالوضع ؟

وفي رأيي أن الكلام في بعض رجال الصحيحين ، له أصل . والذين رفضوا بعض أحاديث في البخاري أو مسلم (١٣٢) لهم عذرهم .. كل القراء تقريباً وكل المصاحف تقول : إن المعوذتين سورتان مكيتان ، وكلام البخاري يفيد إن المعوذتين مدنيتان ، ومن آخر ما نزل !

ففكرة أمية الأمة ، وأمية الشريعة ، والإصرار على بقاء المرحلة البدوية واستمرارها ، مرفوض ..

فأمة تستقبل القرآن لا بد أن تكون أميتها قد زالت بهذا القرآن نفسه .. فإذا كان القرآن يدل على مصادر معرفة في أساس المنطق الحديث ، وأساس حضارة أوروبا ، فكيف تكون الأمة أمية ، هذا أمر مستبعد .

□ □ القرآن ، لم ينزل على العرب وحدهم ، ولم ينزل لفترة معينة ، وإنما هو خالد عبر الزمن .. فكيف يمكن أن ينفع أصحاب الكسب العلمي والمعارف العلمية ، في المستقبل ، إذا اعتُبر خطاباً أمياً للأميين ؟ والأمر العجيب ، أن الشاطبي ، على الرغم من قدراته العقلية في تحديد مقاصد الشريعة ، قال بهذا !

● ربما كان الشاطبي بقوله ذلك ، يكابر ناساً من جماعة الإعجاز العلمي الذين يحبون إدخال القرآن في كل شيء .. فالرجل ربما قالها من باب توقيف هؤلاء ، مثل

(١٣٢) هو مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري . من أئمة المحدثين . ولد بنيسابور ، ورحل إلى الشام ومصر والعراق في طلب الحديث . أخذ عن الإمام أحمد بن حنبل وطبقته . لازم البخاري وحذا حذوه . أشهر كتبه «صحيح مسلم» جمع فيه ١٢٠٠٠ حديث انتخبها من ٣٠٠٠٠٠ حديث مسموعة . وصحيحه يلي صحيح البخاري من حيث الصحة . من تصانيفه أيضاً «المسند الكبير» مرتب على الرجال ؛ وكتاب «العلل» ؛ وكتاب «سؤالات أحمد» ؛ وكتاب «أوهام المحدثين» . ولد عام ٢٠٤ هـ ، وتوفي عام ٢٦١ هـ .

عبد الرزاق نوفل الذي جاء بمئات الآيات في إعجاز القرآن العلمي ، ولا صلة لها به .

□□ يبدو لي والله أعلم ، لو أسميناه : « التفسير العلمي » ، لأنه ، من خلال الكسب العلمي ، يمكن للحقائق العلمية أن تعطي لنا بعض الإشارات التي تجعل الآية أكثر إدراكاً ، وأكثر فهماً ، من خلال قوله تعالى :

﴿ سَتُرِيهِمْ عَيْنِنَا فِي الْأَفَاقِ ﴾ (فصلت : ٥٣)

فاتصور : القول : بالتفسير العلمي ، أفضل من القول : بالإعجاز العلمي ..

● عندما تكلم عبد الرزاق نوفل عن أن أساس الفحم النباتي والبترو ، أعضاء عضوية وحيوية ، وجاء بالآية :

﴿ وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى ﴿١٤﴾ فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى ﴾ (الأعلى : ٥،٤)

جعل من هذه الآية دليلاً على أن البترول والفحم النباتي ، أساسه النباتات والحيوانات ، وهذا كلام غير مفهوم وفيه تعسف ..

ويستدل على كروية الأرض بقوله تعالى :

﴿ أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيِّنًا وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿١٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يُلْعَبُونَ ﴾

(الأعراف : ٩٧، ٩٨)

ويقول : إن الضحى هنا هو الليل هناك .. وبالتالي فالأرض كروية ! وهذا نوع من التكلف .

(١٣٣) عبد الرزاق نوفل ، عالم مصري ، مكث في التأليف ، من مؤلفاته : بين الدين والعلم ، والله والعلم الحديث ، والإسلام والعلم الحديث ، والإسلام دين ودنيا ، وأسئلة حرجة ، وأسرار وعجب ، وغيرها .

□ □ بعض الآثار وردت في النهي عن الرأي في القرآن، كقول أبي بكر رضي الله عنه : أيُّ أرض تقلني ، وأي سماء تظلني إذا قلت في القرآن برأيي ؟.. وحديث آخر : « من قال في القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ » (١٣٤) ، « ومن قال في القرآن برأيه ، فليتبوأ مقعده من النار » (١٣٥) .. هذه الآثار ، ألا تلغي النظر في القرآن وتدبره إذا أخذت على ظاهرها ؟

● الرأي هنا : النية السيئة ، والرغبة في سوق القرآن إلى هدف غير سليم .. هذا ما أعتقد ..



(١٣٤) الحديث رواه أبو داود في سننه — عن جندب رضي الله عنه — في كتاب العلم ، باب : الكلام في كتاب الله بغير علم ، ولفظ : « من قال في كتاب الله عز وجل برأيه فأصاب فقد أخطأ » ، ورواه الترمذي في سننه في كتاب تفسير القرآن ، باب : ما جاء في الذي يفسر القرآن برأيه . وقال الترمذي هذا حديث غريب ، وقد تكلم بعض أهل الحديث في أحد رواته وهو سهيل بن أبي حزم . قال المنذري : وقد تكلم فيه — أي في سهيل بن أبي حزم — الإمام أحمد والبخاري والنسائي وغيرهم [تحفة الأحوذى ٦٦/٤] .

(١٣٥) الحديث أخرجه الترمذي في سننه — من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما — في كتاب تفسير القرآن ، باب : ما جاء في الذي يفسر القرآن برأيه . وقال : هذا حديث حسن . وقد أخرجه أحمد من وجه آخر . [تحفة الأحوذى ٦٥/٤] .

القرآن والزمن

□□ لو تتبعنا رحلة المفسرين حسب العصور ، نرى أن علماء كل عصر ، من خلال معارفهم وكسبهم العلمي ، عندما ينظرون في القرآن ، يعودون بمردود إضافي متوافق مع آفاقهم العلمية والحضارية .. ولو أخذنا نماذج من المفسرين من كل عصر ، لوجدنا أنه أضيفت معانٍ للرأي من خلال كسب البشر ، والتقدم العلمي ، وما إلى ذلك .. فقدرة القرآن على عطاء الزمن ، دليل خلوده .. فالقرآن لا تنقضي عجائبه .. وكلما اكتشفت آية من آيات الآفاق والأنفس ، دلت على خلود القرآن وحقيقته :

﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾

(فصلت : ٥٣)

بل ، لعل المزيد من الاستدلال على أحقية الرؤية القرآنية ، إنما تحقق في المكتشفات في مجال العلوم والنواميس الكونية والسنن والعلوم الإنسانية ..

● أقسم الله سبحانه ثلاث مرات بالكون ، على عظمة القرآن .. أقسم أولاً : بمواقع النجوم ، وأقسم ثانياً : بما نبصر وما لا نبصر ، وأقسم ثالثاً : بالمجرات ودورانها ..

□□ كل جيل ، استطاع من خلال كسبه العلمي ، أن يقرأ هذه الآيات ، فيدرك فيها أبعاداً لم يدركها من سبقه .. ونخشى إذا قلنا مع من يقول : بأن القرآن أدرك كله في جيل معين فقط ، أن نحاصر القرآن ، ونلغي خلوده !

فإمكانية العطاء متوفرة في كل عصر ، على ضوء الموقع ، والكسب العلمي الذي يصل إليه الناس ، وما يظهر من علوم ، وقد يكون الكسب العلمي والمعرفي المتجدد ، مفاتيح لفهم أدق ، وإدراك لأبعاد الآيات ومراميها بشكل أفضل .. وأذكر : كيف تلقى الصحابة القرآن ، وكيف تلقاه التابعون ومن جاء بعدهم ،

وكيف أنه في كل عصر يغترف الناظر في القرآن ما يمكن أن يُسمى معالجة للمشكلات التي يعانها ..

• هناك إجماع بين المسلمين على أن القرآن ، من ناحية الطول ، يستغرق الزمن كله ، بل يتعدى الزمن ، يقول الرسول عليه الصلاة والسلام : « يقال لصاحب القرآن اقرأ وارتق ، ورتل كما كنت ترتل في الدنيا ، فإن منزلتك عند آخر آية تقرأ بها » (١٣٦) فكان القرآن ، امتداد للزمن تجاوز هذه الحياة ، إلى أنه سيقراً في الجنة .

وامتداده العرضي يشمل الأجناس كلها .. نحن الآن في القرن الخامس عشر للهجرة ، لكن الأجناس متفاوتة في ذكائها ، ومستواها العلمي . ويمكن لكل من هذه الأجناس أن يصل إليه القرآن ، ويتجاوب معه ، ويفهم منه .

العبارة القرآنية فيها مرونة تجعل معان كثيرة تخرج منها أو تتحملها الآية .. وهذا ما أشار إليه الإمام علي كرم الله وجهه عندما قام ابن عباس وجادل الخوارج : « لا نخاجهم بالقرآن ، فإن القرآن حمال أوجه .. » فكلمة « حمال أوجه » هي في الحقيقة تشير إلى طبيعة الصياغة القرآنية .. وكان لابد أن تكون في الصياغة ، هذه المرونة لكي تبقى وتكون ممتدة مع الزمن .. ففيها مرونة ظاهرة بحيث أنه إذا تكلم في التاريخ أو تكلم في وصف أرض ، أو تكلم في شيء ، تنزل عبارة لها نسيج معين بحيث يمكن أن يستقبلها العبقرى ويغوص فيها ، ويمكن أن يصل إليها العامي ويستقر عند حدودها الأولى . فهذا من خصائص القرآن الكريم . وقد لاحظ هذه الخصائص كل متذوق للقرآن . وأظن الشيخ دراز (١٣٧) كتب عن هذا في كتابه « النبأ

(١٣٦) الحديث رواه الترمذي في سننه — عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما — في كتاب فضائل القرآن ، باب : ما جاء فيمن قرأ حرفاً من القرآن ما له من الأجر . وقال الترمذي حديث حسن صحيح .

(١٣٧) د . محمد عبد الله دراز ، عالم مصري تخرج في الأزهر الشريف ، وحصل على الدكتوراة من السوربون في (La Marale du Koran) وقد طبعت النسخة الفرنسية على حساب مشيخة الأزهر الشريف عام ١٩٥٠ م وقد بدأ في الرسالة عام ١٩٤١ م ونمت مناقشتها عام ١٩٤٧ م تحت عنوان : « دستور =

العظيم » .

فالكتاب لكي يكون للزمن كله ، وللعقول كلها ، وللقلوب كلها ، كانت صياغته فيها هذه المرونة العجيبة التي تجعل كل الناس مهما تفاوتوا يستريحون إليه ، وينبعثون عنه وهم راضون .. ولذلك ، نرى قفزة العلم في عصرنا هذا ، وبالذات في الخمسين سنة الأخيرة ، فقد تضاعف العلم البشري أكثر مما تضاعف خلال الزمن كله . ومع هذا يبقى القرآن ، ولو أن أينشتاين (١٣٨) قرأه لما وجد فيه ما يناقض العلم الذي اكتشفه في الكون بل لوجد أن خالق الكون كما رآه هو في ثنايا البحث المادي ، هو منزل هذا القرآن الذي يشعر قارئه بأنه حكيم وعليم وعظيم ، بقدر ما فهم هو من دراسته الكونية .

فأجد أن أي عبقرى من علماء الحياة والكون ، يقرأ القرآن يشعر بأن خلق الكون وإنزال القرآن من مصدر واحد .. هذه من خصائص القرآن .. بينما أنت تقرأ القرآن كأنك تتلقى من مشرف عليك ، وتسمع صوتاً كأنه صوت الملك .. بينما تشعر بهذا وأنت تقرأ القرآن ، تقرأ الكتب الأخرى التي تُنسب إلى السماء ، وتشعر بأنها دونك أحياناً ، وأنت تُشرف عليها بقلمك الأحمر تمحو وتثبت .. لتصحح تاريخاً أو واقعة أو قد تحذف أموراً يندى لها الجبين .. مثلاً عندما أقرأ لسيدنا سليمان : أدهش ! أنا لي أصدقاء من كتاب الأدب المكشوف ، ما لديهم الجرأة على أن يقولوا الكلام المكتوب في بعض الكتب السماوية المعمول بها اليوم .. وهذا ليس كلاماً بشرياً عادياً فقط ، لكنه دون كلام البشر العادي ..

أضف إلى ذلك : الجملة .. فمثلاً ، أقرأ في أول جملة في القرآن :

= الأخلاق في القرآن : دراسة مقارنة للأخلاق النظرية في القرآن» . ونشرت في الكويت ثم في لبنان . ومن مؤلفاته أيضاً : «نظرات في الإسلام» ، و «النبا العظيم» ، و «مدخل إلى القرآن الكريم» ، وغيرها ، توفي ١٩٥٨ م .

(١٣٨) أينشتاين ، ألبرت Einstein, Albert فيزيائي أمريكي ، ألماني المولد ، ولد عام ١٨٧٩ م ، وهو صاحب نظرية النسبية ، ومنح جائزة نوبل في الفيزياء عام ١٩٢١ م ، وتوفي عام ١٩٥٥ م .

﴿ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ (البقرة : ١)

فأفهم في أول حياتي أن الكتاب ليست فيه ريبة .. لكن بعد أن أدرس قصة التواتر ، وبعد أن عرفت كيف سطا الزمن على كتب أخرى، وكيف نال منها، وكيف بقي هذا القرآن مصوناً ، لم يتغير منه حرف ، اطمأنت اطمئنان الموقن : أنه ليس لله وحي في هذه الأرض غير القرآن .

فكلمة ﴿ لا ريب فيه ﴾ وسعتني وأنا صغير : أفهم أن الريبة : الشك وعدم الصحة . لكن وسعتني وأنا كبير أعرف الأصول التي يستند إليها الكلام لكي يكون مقبولاً ، إن كانت في السند ، أو كانت في المتن .. أنا مع المتن ، أشعر بأن القرآن ، لا تناقض فيه أبداً . بينما أشعر في السند بأنه تواتر القرون ، فما أستطيع أن أجد مطعناً لا في ثبوته ، ولا في دلالة ومعناه :

﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾ (النساء : ٨٢)

فهم القرون الأولى

□□ تبدو لي هنا أن مقولة : بأنه لا يمكن أن يتأتى للفهم القادمة ما تأتى لفهم القرون الأولى الذين عاصروا التنزيل ، وأدركوا اللغة ، وعاشوا الوحي ، وجلسوا بصحبة الرسول عليه الصلاة والسلام ، لا يمكن أن تقبل بإطلاقها .. ومن كل وجه ، لا شك أن جيل الصحابة الذي اختير ليكون محل الرسالة ، والقاعدة البشرية الأولى ، وعاصر التنزيل ، وعاش الوحي ، وصاحب الرسول ﷺ ، وامتاز بسلامة اللغة ، وصفاء السليقة ، يتميز على القرون اللاحقة بإدراك مدلولات النص القرآني (الوحي) .. وأن السلامة في فهم الوحي تتحصل ، كلما اقتربنا من عصره واتجهنا صوب الماضي واتصلنا بالينابيع الأصلية ، عكس المعارف العلمية الأخرى ، فقد تكون الصحة أكثر كلما اقتربنا من المستقبل حيث يصوب العلم رلته التاريخية.

لكن ، هذا لا يجوز أن يمنع من النظر ، والامتداد بالرؤية القرآنية ، وتعديتها على ضوء الكسب المعرفي ، وألا يفتقد النص القرآني خلوده وقدرته على مخاطبة الزمن ومشكلاته .. ويبقى فهم القرون الأولى للقيم الضابطة للوحي هو الأصل الذي لا يجوز القفز من فوقه .. لكن ، هل هو نهاية المطاف الذي لم يدع استزادة لمستزيد في مجال المعاملات ، وامتداد الحضارات ، وطوارئ المشكلات ؟

القرآن ، مطلوب النظر فيه .. والعلم يتقدم .. والفهم تتقدم . ونحن نستصحب الفهم الأول ولا نخرج عليه .. لكن ، هناك أبعاد أخرى : نخشى أن يفهم بعض الناس أن التوقف عند حدود الفهم الأول ، وعدم الامتداد ، وتعدي الرؤية ، لون من التجمد للقضية الإسلامية ، وللقرآن أيضاً ؟!

• أظن أن النبي عليه الصلاة والسلام ، حسم هذه القضية عندما قال : « فربّ حامل فقه إلى من هو أفقه منه » .. وحامل الفقه من عصره ، هو الذي كان يقول لهم : « بلغوا عني » ، فقد تبلغون إلى من هو أكثر منكم فقهاً .. « فربّ مبلغ أوعى من سامع » ..

انقرن الأول يتميز بشيء ، وهو : كثرة الذين صلحوا فيه ، وكثرة الذين انتفعوا بأنوار النبوة . لكن ، العصور الممتدة التي جاءت بعد ، فيها من غير شك ، عمالقة في فهمهم لا يقلون عن العصر الأول .. لكن ، هل المستوى العام لهذه القرون ، كان كالمستوى الأول ، أو كالعصر الأول ؟ هنا يأتي التفاوت .. وهذا هو المعنى الذي تحدث عنه القرآن عندما قال :

﴿ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ﴾ (الواقعة : ١٣ ، ١٤)

فالثلة من الأولين واضحة : صاحب الرسالة ومن معه ، الذين غيروا الدنيا تغييراً حاسماً .. وهناك قلة من الآخرين . لكن هذه القلة تشعر بالغرابة بالنسبة للمحيط الذي تعيش فيه .. وقد يكون المحيط من الناحية العلمية ، متميزاً ، لكن ، الإنسان ليس عقلاً فقط ، الإنسان قلب . وربما كان هناك علماء تغلب عليهم السجية ، وربما كان هناك من دونهم ذكاء ولكن تغلب عليه الفدائية ..

الكمال البشري يُنظر فيه إلى جوانب متعددة .. ولهذا فإن عظمة القرآن تبقى ، يكتشفها إلى آخر الدهر من يبقى صاحب عقل مشرق ملهم مستنير ، وكما جاء في الحديث : « أمتي كالغيث ، لا يُدرى أوله خير أم آخره » (١٣٩) . فلعل في الآخرين مَنْ يدخل في النطاق الذي كان النبي عليه الصلاة والسلام يتشوق إليه ويقول : « وددت أننا قد رأينا إخواننا » يقولون له : ألسنا إخوانك ؟ قال : « أنتم أصحابي » (١٤٠) .. فمن هم الإخوان الذين يتطلع الرسول ﷺ إلى أن يكونوا

(١٣٩) الحديث رواه ابن عساكر عن عمرو بن عثمان مرسلاً ، ورواه الطبراني في الجامع الصغير برقم ١٦٢٠ ، ورمز لحسنه . ولفظه : « أمتي أمة مباركة ، لا يدرى أولها خير أم آخرها » . [جمع الجوامع ١١ / ١٣٦٠] .

(١٤٠) الحديث رواه مسلم في صحيحه — عن أبي هريرة رضي الله عنه — في كتاب الطهارة ، باب : استحباب إطالة الغرة والتحجيل في الوضوء .

معه ، ونحب أن ينظر إليهم ؟ لا شك ناس كانت صلتهم بمعجزته العلمية والأدبية والبيانية التي هي القرآن ، كانت صلة عميقة جداً ، استدرجوا الوحي بين جنوبهم ، واستطاعوا أن يفسروه في عصور المعرفة والتقدم العلمي بما يجعل الإسلام يمتد ويشند . وهذا كسب كبير .

□□ هذا جانب من القضية .. لكن ، الجانب الآخر ، وهو أقرب لأن يكون فلسفياً منه أن يكون استقراءً لواقع : إنه طالما أن القرآن خطاب الزمن كله ، حتى يرث الله الأرض ومن عليها ، خطاب الأجيال ، والأجناس ، والعلماء ، والمستويات الحضارية المتفاوتة ؛ فلا يمكن منطقياً ، بحال من الأحوال — وقد يتعارض هذا مع خلود القرآن وعالميته — أن نجمله عند فهم عصر معين ..

● التجميد غير وارد . لكن ، الإنطلاق لا بد أن تكون له ضوابط .. نحن لسنا مع ما يسمى بأدب البرج العاجي ، نحن مع الواقع البشري .. والقرآن يناسب الزمن والمكان كله .. كل ما هنالك أنني أحب أن أذكر وأؤكد أن القرآن كتاب عربي ، وأن الخصائص العربية : الجملة والتركيب والمفردات ، لا يمكن أن تتجاوز وتُمحى .

□□ نحن ، نستصحب فهم الجيل الأول ، ولا بد من ذلك لأن تراكم المعارف ، أمر ضروري جداً ..

● لا تنسى أن هناك أموراً لا صلة لتراكم المعرفة بها .. هناك فرائض كالصلاة وغيرها من العبادات ، لكن مما يتصل بالآفاق الأخرى : الكون ، والحياة ، والعلوم الإنسانية ، لا بد من أن نفهم أنه سيكون أكثر من العصر الأول ، وأن العصر الأول وقف فيه عند حد ، وأن العصور المتأخرة لا بد أن تزيد ، ذلك أن القرآن تكلم مرتين عن المستقبل ، وقال في آخر سورة النمل :

﴿ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ (النمل : ٩٣)

وفي أواخر سورة فصلت يقول :

﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ (فصلت : ٥٣)

فهذه الإراءة التي تكون في الأنفس والآفاق ، مع الزمن المقبل وليست مع الزمن الماضي ، يكسبها الله لمن شاء من عباده عن طريق تفسير هذا القرآن وعن طريق بيان تطابق القرآن مع الإبداع الأعلى لهذا الوجود الذي نعيش فيه .

القرآن والعلم

□□ لم يكن العلم بمعناه المدرسي ، موضوع القرآن ، وإنما كان موضوعه : الإنسان وهدايته .. فالقرآن محله الإنسان ، والعلم هو الموقع الذي ينظر الإنسان إليه ويكسبه بهداية الله.. وهناك بعض الحقائق العلمية التي أشار إليها القرآن، للفت النظر إليها ودفع الناس إلى النظر والبحث والتجربة والملاحظة والكشف عن القوانين والسنن، وكيف يمكن الوصول إلى إدراك قوانين التسخير التي تحقق عمارة الأرض، وتمكّن من القيام بأعباء الاستخلاف.

ويبدو لي — والله أعلم — أن قدرة القرآن على العطاء حتى نهاية الزمن ، إنما جاءت من كونه ليس كتاباً علمياً .. ذلك أن العلم — بالمعنى الدقيق للعلم التجريبي — في تقدم وتطور ، ويبطل نظريات ، ويثبت حقائق .. وهذه مهمة الإنسان .. أما القرآن ، فمهمته : بناء الإنسان ، وتجهيزه بالوسائل التي تعينه على الكشف العلمي من : الحواس ، والعقل ، والإدراك ، ووضعه في المناخ العلمي الذي يدفعه للاكتشاف .. لذلك لا نجد تعارضاً بين الحقائق العلمية ومدلولات الآيات .. أما إذا أطلقنا العنان لمن يقول : بالتفسير العلمي ، والتعسف بالتفسير العلمي ، فسيثبت من العلم ما يبطل هذه التفسيرات ، أو هذه الإعجازات التي توهمها بعضهم ، أو حمل عليها الآيات في عصر معين ..

● لتتفق أولاً على أن القرآن ليس كتاباً فنياً في علم من العلوم . فهو كتاب في هداية الإنسان ، ولكن ، كلامه عن الكون والإنسان ، يتفق مع العلم ، لأن موضوع العلم هو الكون والإنسان .. فوحدة الموضوع متحققة بين القرآن والعلم .

مثلاً الشيخ نديم الجسر تكلم عن : « قصة الإيمان بين الفلسفة والعلم والقرآن » وهذا الكتاب من الكتب الجديرة بالاحترام . فهذه الوحدة في الموضوع هي التي جعلت بعضهم يرى إعجاز القرآن علمياً ، ذلك أنه يكفي أنه مع تقدم

النعيم ، ما ذكر جملة لا يمكن أن يقف العلم عندها منكراً . وهذا هو المستوى الأدنى ..

وهناك شيء نأخذه مما قرناه سابقاً وهو : أن القرآن الكريم ، ينظر إليه ربنا جل جلاله على أنه يُضارع الكون ، كأن الكون إذا وضع في كفة ، والقرآن وُضع في كفة ، فكلاهما يوازي الآخر . ذكرتُ يوماً أنه عندما أراد ربنا أن يتكلم عن بركته وامتداد نعمه ، ذكر مرة القرآن ومرة الكون :

﴿ تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (الملك : ١)

﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴾ (الفرقان : ١)

وعندما أراد أن يذكر أنه أهل الثناء الحسن والحمد والشكران ، قال :

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴾ (الأنعام : ١)

وقال :

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ ﴾ (الكهف : ١)

هذا التوازن بين الكون والوحي ، يبقى لآخر الزمن ، كلاهما يدل على الآخر .

بين فاسفة العاوم وآلات فهمها

□□ هذا قد يعطي أيضاً أنه لا يجوز أن يكون هناك إنكفاء عن الكون بالنسبة للمسلم . فملكوت الأرض ليس بعيداً عن ملكوت الله .. بل هو جزء من ملكوت الله الواسع . وليس للإنسان المسلم المؤمن بالقرآن ، أن يدير ظهره للكون وما فيه من الأسرار ، بل الكشف عنها ضرورة شرعية لعمارة الأرض وللشهادة على الناس ، والقيادة لهم .. والآيات الكونية جزء من أدلة الهداية ، والنظر فيها دين ، وطريق إلى الإيمان الحق .. فالذي خلق الكون ، هو الذي خلق الإنسان ، وأنزل القرآن .. وما ذكرتم هو في مصلحة ما نقول: من أن القرآن وضع الإنسان في مناخ الكون.. حسسه بالزمان والمكان.. ولفت نظره للسنن الجارية في الحياة والكون المادي..

● أرى أنه يكفي القرآن إعجازاً علمياً ، أنه وضع الإنسان في المناخ العلمي ، وفتح نوافذه كلها للنظر في المعارف .. وأنا لا أستطيع ، مع هذا ، أن أقول : إن الكتاب كتاب فني وضع قوانين علمية ، لأنه ليس هناك قوانين علمية إسلامية ، وأخرى نصرانية .. قوانين الكشف العلمي واحدة .. فلا يجوز التجاوز في التعبير ، وليس لأحد أن يورط الوحي الإلهي في هذا .

□□ يبدو لي ، في هذه النقطة ، أنه لا بد من التفريق بين أمرين : هناك : تقنية العلم ، وآلات فهمه ، وهذا قدر إنساني ، وكسب بشري مشترك .. وهناك هدف العلم ورسالته ، وهي قضية أخرى .. ويمكن أن تحكم العقيدة هدف العلم ، وتحدده ، وتجعل العلم في خدمته . فمن هذه الناحية ، يمكن أن أقول : طب إسلامي .. الخ .. وأتصور ، عندما نقول : إسلامي فالمقصود هو : لون من التحكم بالأهداف ، أي : توجيه هذه التقنية لتكون لها رسالة تنطلق منها ، وتحقق أهدافاً لصالح البشرية ، أي : أخلاق العلم نفسه ..

فعندما يتحدثون في المعهد العالمي للفكر الإسلامي عن : إسلامية المعرفة ،

فالمعارف العلمية قد تكون واحدة ، وآلات الوصول إليها قد تكون واحدة أيضاً .
لكن ، حينما نقول : إسلاميتها ، أو نقول مثلاً : إسلامية العلم ، فمعنى ذلك تحديد
المنطلقات الفكرية على ضوء القيم الإسلامية ، والتوجه إلى تصريف رسالة العلم
لتحقيق أهداف معينة جاء بها الإسلام ، والمطلوب توجيه النشاط العلمي في
اتجاهها .. كأن المقصود : فلسفة العلم وليس آلياته ..

● لا بأس .. لكن ضميمة أخرى لما تقول : لاحظت في العلم المادي ، أو العلم
العادي : الإحالة إلى مجهول ! وكثيراً ما تجد في أصول الفيزياء والكيمياء : «س» ..
لكن ، إسلامية العلم تأبى هذا التجهيل في أصل الخلق.. نحن نضع البذرة في
الأرض ، فتنبت .. ما الذي ينبتها ؟! في علم النبات ، يقولون : الطبيعة ! أو يقولون :
العناصر ، والشروط ، والظروف ..

وكل هذا .. يجعله غطاءً للقدرة العليا وما يصنعه الله .. أنا لا أتصور أن الأرض
فيها صناعة حبة قمح .. تلك مشكلة ! فكيف تضع مقادير نشأ إلى جانب مقادير
من السكر ، إلى جانب مقادير من الفيتامينات والأملاح ، وتلفها لفة في سنبلة فيها
سبعمئة حبة ! فهل التراب الأعمى المطموس الذي لا يعي شيئاً ، هو صانع هذا ؟!
هناك عقل ، وتدير .. فكون العلم يغطي هذا ويمر ببرود ، دون أن يتحدث عن
الله ، فهذا شيء فيه كنود ..

□□ هذا في المقدمات حيث لا يمكن أن يتحقق التفاعل من تلقاء نفسه ، وإنما له
قانون لا يتخلف .. من خلق هذا القانون ، وجعله جارياً على الشكل هذا دون ذاك ؟
لكن ، لا بد من لفت النظر إلى أمر آخر وهو : أنه لا يكفي الإيمان بأن الله هو
واضع القانون ، ونقف عند هذه الحدود ، بل لا بد من الامتداد إلى مرحلة أن تكون
النتائج والثمار محكومة بقيم وأهداف ، شرعها للبشرية واضع قانون الإنبات نفسه ..

فإذا كانت العلوم أو الحقائق العلمية واحدة في الدنيا كلها — كما أسلفنا — فإن

القضية هي في : من خلق هذا القانون الذي تسير عليه العلوم ؟

الأمر الآخر : أن هذه العلوم يجب أن تخرج من فرية مقولة : العلم للعلم ، والفن للفن .. لا بد أن يكون للعلم رسالة وهدفاً .. ما هو هذا الهدف ؟ ومن يحدده ؟ وما هو المنطلق لهذا الهدف ؟ هنا يأتي دور العقيدة لتضبط المسيرة العلمية ، وتحدد المنطلق والهدف ، فتجعل للعلم رسالة ، وللحياة العلمية معنى ، وللسلوك العلمي خلقاً .

هذا هو المطلوب من عملية أسلمة أو إسلامية العلوم ، فيما أرى .. وعندما نقول : طب إسلامي ، فلا بد أن يكون المقصود : التحكم بأهداف الطب .. مثلاً ، لو قلت : بأن العقلية الآن التي توجد هندسة البيوت تتجاهل بعض المعاني التي هي من لوازم الحياة الإسلامية من الستر .. الخ ، فيمكن أقول : بأن الهندسة هندسة ، من حيث : الخرسانة ، والكميات والنسب ، لكن أهداف العملية ورسالتها يجب أن يُنظر فيها لتأتي التصاميم العملية الهندسية محققة لقيم اجتماعية معينة في الستر ، والسكن ، وعدم الإضرار بالغير ، ومنع الهواء ، والشمس عن الآخرين .. وهكذا ..

● لا شك أن الهندسة في العصور الوسطى ، كانت محكومة بأخلاق إسلامية . ولذلك كان المهندس عندما يرسم خارطة البيت ، يضع في اعتباره أن العورات يجب أن لا تكشف ، والمطلع يبصره من بعيد لا يرى ، ولذلك وجدنا مشربيات ، وما يدخل الهواء ويمنع نظر المتلصص من أن يرى ما وراءها .. الآن ، لأن الأوروبيين فيهم حيوانية موروثه من آبائهم الذين لا يرون حرجاً في أن يكون التمثال مكشوف السوءة ! بل إن فلاسفتهم ما كانوا يرون حرجاً في الشذوذ ، وربما في مجالسهم الأدبية كانوا يقومون بهذه العمليات على أنها عمليات تنفيسية عادية .. لكن ، الإسلام عندما جاء سما بالقيم واحترمها ..

□□ هل يمكن أن نقول : بأن هناك علماً ، وفلسفة علم ، أو أخلاق العلم ، أو القيم التي يخدمها العلم ، أو تطبع مسيرته ؟

● نعم .. العلم شيء غير أخلاقه وفلسفته التي ينطلق منها ، وغير رسالته التي يؤديها في الحياة .. فعندما أقول إن مجموع درجات زوايا المثلث ١٨٠° ، فما دخل الدين في هذا ؟ لكن ، عندما ننقل هذه الحقيقة العلمية لتكون في عملية هندسة البناء ، ندخل فلسفة الإسلام في توظيف هذه الحقيقة واستثمار العلم ..

الشهود التاريخي.. والشهود الحضاري

□□ لقد عرض القرآن للتجربة البشرية من لدن آدم عليه السلام إلى الرسول الخاتم ﷺ من خلال القصص القرآني، بما يمكن أن نطلق عليه : الشهود التاريخي .. أي حقق شهوداً تاريخياً للأمة المسلمة ، لرحلة البشرية ، ليكون ذلك رصيذاً لا بد منه للأمة الوارثة التي انتهت إليها القيادة الدينية ، لتعتبر به وتبني عليه ، بما يمكن أن نطلق عليه : « الشهود الحضاري » ..

فالقرآن ، مصدق للكتب السماوية ، ومهيمن عليها .. كما أن القرآن دعا للسير في الأرض لمعايشة الحاضر — ولم يكتف بما نقل — للتبصر بأحوال الأمم السابقة والنظر في سيرها ، ومسالكها وتجاربها ، لتحقيق الخبرة والدرس الميداني .. ولم يرض للمسلم أن يقتصر على تاريخه الخاص ، بل لا بد له من الاطلاع على التاريخ العام للبشرية ، وحسن إدراكه ، لأن رسالته عالمية .

فخطاب القرآن ، عالمي .. ورسالته خاتمة .. وله بعد في الزمان الماضي ، والحاضر ، والمستقبل .. وله بعد في المكان بحيث يشتمل العالم كله .. ولا بد من معرفة حال المخاطبين ، ومعرفة التاريخ الذي يشكل مرآة حياتهم .. فنظرة المسلم ، لا بد أن تكون إلى العالم كله .. يستقرئ تاريخه ، ويقرأ حاضره ، ليتمكن من أداء دوره في الشهود الحضاري الذي يمكن أن نسميه : الشهادة على الناس ، والقيادة لهم .

كما أن القرآن طلب من المسلم — إلى جانب الرحلة في التاريخ الإنساني ، والتبصر بسنن الصعود والسقوط للمجتمع البشري — أن تكون له رحلة أخرى في الكون ، ورؤية سنن الله كما في المجتمعات والأنفس ، لأن العدول عن النظرة في الكون ، ومعرفة سنن الله في الآفاق ، وحسن التعامل معها ، موقع في الرؤية النصفية التي لا تؤهل صاحبها للشهود الحضاري .

وهنا ، يمكن أن نرتب على ذلك نتيجة أخرى ، وهي :

أن القرآن بسط نماذج من حضارات الأمم السابقة ، وتجاربها ، وعقائدها ، ومسالكتها الأخلاقية ، وأنظمتها السياسية ، بمساحات كبيرة لتكوين الحكمة عند المسلم التي تجعله ينتفع بتجارب الآخرين .. فهل يمكن أن نعتبر ذلك مؤشراً على ضرورة التبادل الحضاري ، وإباحة الإفادة مما عند الآخرين بما لا يتعارض مع القيم الإسلامية ، وأمامنا اليوم تجارب بشرية بلغت الأوج في بعض النظم ، ولا أقول القيم ؟ فإلى أي مدى يمكن أن نتلمس في إشارات القرآن ، دعوة للانفتاح على الثقافات والحضارات العالمية ، والاستفادة منها ؟ لأنني أعتقد أن الغزو الفكري شيء ، والتبادل المعرفي شيء آخر ؟

● في كتابي : « المحاور الخمسة » ذكرت ما قاله شوقي في قصيدته :

مثل القوم نسوا تاريخهم كلقيط عي في الحي انتساباً
أو كمغلوب على ذاكرة يشتكي من صلة الماضي اقتضاباً
القصص في القرآن ، أوسع أبواب الكتاب الكريم ، لأن هذا القصص هو ماضي الإنسانية .. ولو فقدت أنا ذاكرتي أكون نصف مجنون ، وسينتهي الأمر بي إلى الجنون .. والإسلام اعتبر أن التاريخ الماضي هو عقل الإنسانية ، فاستصحبه بكل ما فيه .. والقرآن الكريم ، ذكر الحضارات الماضية ، وذكر الأمم الأولى ، وذكر أسباب الازدهار ، وأسباب الانهيار ، يقول تعالى :

﴿ فَاعْتَبِرُوا يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (الحشر : ٢)

لا بد أن أنظر إلى الماضي كله ، سواء كان هذا الماضي يتصل بي كتاريخ خاص ، أو يتصل بالبشرية كلها ، كتاريخ عام .. ثم أمر القرآن بالسير في الأرض ، لأنه يريد عقلاً عملياً يستفيد من العصر الذي يعيش فيه ما يوسع آفاقه ، ولذلك طلب السير في الأرض بكثرة ، سياحة ورحلة :

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ﴾
(الحج : ٤٦)

هذا عقل يتكون من السير في الأرض ..

﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَانَارًا فِي الْأَرْضِ ﴾ (غافر : ٢١)

لا بد من الانفتاح على العالم .. الماضي انفتحنا عليه ، بالقرآن وبالتاريخ الذي ثبت لدينا بمناهج التحقيق التاريخي ، الحاضر يجب أن نفتح عليه ، بأمر وتكليف من القرآن .. وتقصيرنا في هذا الانفتاح اليوم ، ملحوظ ومعيب ..

أما إنه ملحوظ ومعيب ، فأنا آسف إذ أقول إن العرب ظنوا أن القرآن لهم ، ولم يخدموا عالميته كما يجب .. خدمة العالمية ، قام بها بعض التجار ، وبعض السياح ، وبعض الذين يعبدون الله .. فخدمة القرآن من الناحية العالمية ، جاءت شعبية ولم تجيء رسمية ! وهذا خطأ بل بالعكس ، حدث خطأ حكومي وهو أن الأمة الإسلامية استوردت ما عند الآخرين قبل أن تصدر ما لديها للآخرين .. وهذا خطأ .. كان يجب أن يتصدر لليونان والرومان ، تعاليم أو خلاصات ، أو على الأقل ترسل من يعلم اللغة العربية ، حتى تخدم عالمية القرآن ! لا بد أن يكون القرآن للبشر جميعاً .. هذا حق .. والطريق أحد أمرين : إما أن تنقل التعاليم للغات الأخرى ، أو تنقل أهل اللغات الأخرى إلى لغتك .. لكن ، قصرنا في الأمرين .

الأمة الأخرى التي عاشت بعيداً عن معالم القرآن هم بشر ، وفيهم طبائع البشر ، ولهم رغبات يحبون أن يبلغوها .. هؤلاء بذلوا جهودهم واستطاعوا أن يصلوا إلى فلسفات سلوكية ، أو قوانين إنسانية ، أو بحوث علمية ، أو اكتشافات كونية ، مما لا نستطيع إنكاره .. إنهم غلبونا في بعض المجالات . بل أستطيع أن أقول : إنهم غلبونا في أمرين :

الأمر الأول : اكتشاف قوى الكون لأنهم استطاعوا أن يأخذوا عنا قوانين التجربة والملاحظة والاستقراء كما سميتها أنت « التسخير » وما إليه ، وانتفعوا بها ..

الأمر الثاني : عندنا علوم إنسانية ، وسائلها جمدت عندنا وتطورت عندهم . فمن حق العقلاء أن ينظروا إلى أفضل الوسائل هنا وهناك لخدمة المبادئ المشتركة والانتفاع بها .. هبني جمدت الشورى عند سقيفة بني ساعدة ، أو مشورة الحاكم لبعض جلسائه ، أو وزرائه ، أو أصفياه ، أو أئمة يقتنع بجدارتهم ! لكن هم استطاعوا أن ينظموا الشورى خيراً منا .. الوسائل عندهم كانت أحسن مما عندنا .. أنا لا أتعصب للقصور عندي ، بل الحكمة ضالة المؤمن .. أنا أنتقي الوسائل التي بلغوا فيها مبلغاً خيراً مني ، وأنتفع بها في خدمة الأهداف المشتركة .. لأن الفطرة الإنسانية تتفق على أن العلم خير ، والشورى خير ، والعدالة خير ، والسلام خير .. فإذا كانوا هم يجتهدون ويصلون إلى وسائل أفضل ، أكون مثلي كمثّل النبي ﷺ عندما قال : « لقد شهدت حلفاً في دار عبد الله بن جدعان ، لو دُعيت إلى مثله في الإسلام لأجبت » (١٤١) وإذا كانوا هم قد وضعوا هيئة أمم ، فلا مانع عندي من أن أشارك في الهيئة ، وأن أنتفع بها كممبر للسلام ، وإن كانوا هم قد انتفعوا بها كممبر للنصب والاحتفال .

وسائل الشورى : يستطيع أي إنسان أن يقول للحاكم هناك : من أنت ؟ ولمَ تفعل هذا ؟ وصلوا إلى هذا بالأنظمة .. وأظن ، طالبة قالت لرئيس جمهورية فرنسا ميتران : إنني انتخبتك ، وربما أغير صوتي ، إذا رأيتك تغيرت .. قبل منها هذا ، وقال لها : أنت جديرة بالاحترام ..

فعندما يبلغ الأمر بأنظمة الشورى هناك أن تعطي الفرد العادي القدرة التي كان

(١٤١) حديث : أنه كان ﷺ في حلف الفضول ، أخرجه البيهقي من حديث طلحة بن عبد الله بن عوف الزهري ، وفيه إرسال ، ورواه الحميدي في مسنده عن سفيان عن عبد الله بن أبي بكر مرسلأ ، ورواه الحارث بن أبي أسامة أيضاً . [تلخيص الحبير ١١٨/٣] .

الإسلام يعطيها للرجل العادي عندما وقف سلمان^(١٤٢) يقول لعمر : لا سمع ولا طاعة ، ملابسك أطول من ملابسنا التي أخذتها وأنت أطول منا .. فقال : قم يا عبد الله بن عمر فأجبه . هذا الكلام كان يُقال أيام التطبيق الصحيح للمبادئ الإسلامية . ثم اختفى .. ووجد من يروّج ، ويسوغ الاستبداد .

فإذا حدث أن الوسائل الأوروبية أعطت الفرد العادي ما كان يعطيه عمر رضي الله عنه للفرد العادي ، فهذه نماذج نتفق على أنها صالحة ، ونقتبس ما لديهم من وسائل ، ونترك جمودنا في أيام الانحلال والضعف . وعلى هذا ، لا بد من دراسة الأمم الأخرى جميعاً : تاريخها وأخلاقها ، وعاداتها ، ومعرفة من منهم المؤمن بما عنده ، والكافر بما عنده ، وما سبب إيمانه ، وما سبب إلحاده ، ومن هم العلمانيون ؟ وكيف يتسلطون ؟ كل هذا أحاكمه إلى ما عندي أنا من قرآن ، وما عندي من ميراث النبوة .. وهنا ألاحظ أن هناك ميراثين للنبوة .. أنا أتجاوز الأحاديث الضعيفة لأنها ليست مصدراً معتمداً ، والأحاديث المتصلة بالعبادات ، لأن مجال العقل والاجتهاد فيها محدود ، إنما عندي وظيفة للرسول مطلوب إدراك أبعادها ، فكما أن موسى كانت وظيفته تحريرية ، يقول الله له :

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾
(إبراهيم : ٥)

كذلك ، هناك رسالة تحريرية تنويرية لنبيي أنا ، بدأت بهذا الكلام نفسه :

(١٤٢) سلمان الفارسي : صحابي : كان يسمي نفسه سلمان الإسلام، أصله من مجوس أصبهان ، عاش عمراً طويلاً. وقالوا : نشأ في قرية جيان ، ورحل إلى الشام ، فالموصل ، فنصيبين ، فعمورية ، وقرأ كتب الفرس والروم واليهود ، وقصد بلاد العرب ، فلقية ركب من بني كلب فاستخدموه . ثم استعبدوه وباعوه ، فاشتراه رجل من قريظة فجاء به إلى المدينة . وعلم سلمان بخبر الإسلام ، فقصد النبي ﷺ بقباء وسمع كلامه ، ولازمه أياماً ، فأعانه المسلمون على شراء نفسه من صاحبه . فأظهر إسلامه . وكان قوي الجسم ، صحيح الرأي ، عالماً بالشرائع وغيرها . وهو الذي دلّ المسلمين على حفر الخندق ، في غزوة الأحزاب ، وكان بحراً لا ينزف وجعل أميراً على المدائن ، فأقام فيها إلى أن توفي عام ٣٦ هـ (٦٥٦ م) .

﴿كَتَبْنَا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ (إبراهيم : ١)

ما هي الأنوار التي أنقل الناس إليها ، والظلمات التي أنقلهم عنها ؟ إنها ظلمات الجهل ، والاستبداد ، والرذيلة ، والفوضى ، والتخلف .. إذا وجدنا أنواراً للشورى أو للمعرفة أو للنظام ، أو مسائل اقتصادية مرنة ، استطاع القوم بها أن ينظموا شؤونهم ، فأنا مكلف شرعاً بأن أدرس هذا كله ، وأن أجعل هذا في نطاق الفطرة الإنسانية التي هي الصفة الأولى لديني :

﴿فَاقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ (الروم : ٣٠)

وهذا هو الذي جعلني أدرس فعلاً فلسفات كثيرة ، وأدباء كثيرين في الخارج ، وأنظر إليهم على ضوء الإسلام ، وربما وجدت نزعات أقول بها : هذا مسلم . فعندما رأيت « فيكتور هوجو »^(١٤٣) يقول للكهنة الذي جاء إليه وهو يحتضر وينتظر أن يعترف ، طرده « هوجو » وقال له : أنا أوّمن بالله الواحد ولا أحتاج إليك ، وقد تصدقت بما أملك !! قلت : هذا عمل رجل مسلم .. بهذا المنطق هو رجل مسلم .. وهذا أيضاً ما جعلني أقرأ ما كتبه « ديل كارنيجي » في كتابه : « دع القلق وابدأ الحياة » ، وأن أستخرجه من معالم الفطرة الإسلامية عندنا في الكتاب والسنة ، وأدب الكتاب والسنة كما تلقاه المربون ووضعه الفقهاء المسلمون ..

فالعالم الآن ، يمكن أن تنفتح عليه إلى آخر مدى ، وتأخذ منه ، وتتعامل معه أخذاً وعطاءً .. وكل ما هنالك أنني أفرق بين انحرافات الطبيعة البشرية .. وهذه الانحرافات موجودة بيقين .

(١٤٣) هوجو ، فيكتور Hugo, Victor شاعر وروائي وكاتب مسرحي فرنسي ، ولد عام ١٨٠٢ م . أشهر كتبه رواية «البؤساء» (Les Misérables) نشرها عام ١٨٦٢ م ، وتوفي عام ١٨٨٥ م .

العلم الأمريكي وصل لاكتشاف الفضاء . لكن لكي تنتصر أمريكا فتهلك مليون شخص في اليابان ، فهذا شيء لا يطاق ..الضمير الأوروبي قد يكون قاسياً كالحجارة ، وهو في معاملته للشعوب التي بلغها ، الفارق بينه وبين الإسلام ، كالفارق بين السماء والأرض .. فهو دمر الناس (الجنس الأحمر في أمريكا وفي استراليا) ، وبعمليات صناعية اشماز منها الأدباء الأوروبيون وأصحاب الفطرة .
فأنا أترك هذا الفساد الذي عندهم ، وآخذ ما تقدموا فيه .

الإمكان الحضاري

□□ لا شك أن السير في الأرض ، والنظر في ما عند الآخرين ، والانتفاع به ، هو من إشارات القرآن الكريم ، ومن عطائه .. والأمة بما لها من سابقة حضارية ، يمكن أن نقول : بأنها تمتلك الإمكان الحضاري ، وخميرة النهوض .. لكن ، هل تعتقد ، ونحن في ما نحن فيه اليوم من التخلف ، والغياب الحضاري ، قادرين على أن نُميّز بين ما يُنتفع به وما لا يُنتفع به مما عند الآخرين ؟ فالأقوياء الذين يتمتعون بعقول وأبصار حديدية ، ومعد هاضمة من الناحية الحضارية ، هم القادرون على الانتفاع بأغذية الأمم الأخرى ، وما عندها .. أما الأمم المتخلفة فستكون عاجزة عن التمييز بين الغث والسمين ، بين ما يُؤخذ وما يُترك ، لأنها افتقدت المقياس ، ولأنها لو لم تكن كذلك لاستطاعت أن تتقدم فتفقه بما في تاريخها الحضاري ، وما عند الآخرين كما كان حالنا عندما كنا نتمتع بالشهود الحضاري .

وتبقى القضية المطروحة : كيف يمكن أن نحقق الشهود الحضاري ، وأن نفيد من الإمكان الحضاري ، وخميرة النهوض ، ونحسن الاعتراف من القرآن ؟

● الأمة الإسلامية ، لم تفقد أبداً على امتداد تاريخها من يقوم لله بحجة ، ومن يستطيع أن يعرف : ما الذي أخطأنا فيه نحن وجعلنا نتخلف ؟ وما الذي أصاب فيه الآخرون وجعلهم يتقدمون ؟ ويوم تعجز الأمة الإسلامية عن أن يتكون لديها جماعات قادرة على التمييز وكشف الخلل ، فهي ليست جديرة بالاستمرار .

□□ معنى ذلك : أنها مسؤولية الفقهاء والحكماء بشكل عام ، الذين يشكلون خميرة النهوض في هذه الأمة ، ومسؤوليتهم : أن يُبصروا ، وهؤلاء لا ينقطعون أبداً في الأمة الإسلامية مصداقاً لقوله عليه الصلاة والسلام : « لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين حتى يأتيهم أمر الله وهم ظاهرون » (١٤٤) .

(١٤٤) الحديث متفق عليه . رواه البخاري في صحيحه — عن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه — في كتاب :

هناك نقطة أخرى ، وهي : أن معرفتنا بما عند الأمم الأخرى : بأحوالها ، وتاريخها ، وتجاربها ، وأفكارها ، وعقائدها ، هو أمر ضروري لدعوتها للإسلام .. فالإسلام عالمي الخطاب ، وهم أمة الدعوة على كل حال .. فكيف يمكن أن يكون خطابنا الذي نحمله عالمياً ، ولا نفهم ما عند العالم ؟ فلعل السير في الأرض الذي حضّ عليه القرآن يحملنا المسؤولية المزدوجة : التبصر بأحوال الأمم للعبوة والدرس ، والتعرف على أحوالها ليكون الخطاب الإسلامي مطابقاً لواقع الحال ..

وقد يكون من خطأ الدعاة في الغرب اليوم ، أنهم يحملون المؤلفات والتراث الثقافي الذي وُضع لعالم المسلمين ، بمشكلاته ، ومعاناته ، إلى أولئك الذين قد يتطلبون خطاباً من نوع آخر في ضوء اهتماماتهم ..

• من لا يعرف : ماذا يريد ، ولا من يخاطب ، فليس له أن يتكلم .. ماذا أقول ؟ لا بد أن أعرف العالم كله .. العالم الآن تستشري فيه ملل ونحل كثيرة .. ومخاطبة البوذي غير مخاطبة الهندوكي .. ومخاطبة هذا وذاك غير مخاطبة شيوعي في روسيا .. ومخاطبة هؤلاء جميعاً غير مخاطبة رأسمالي في الولايات المتحدة .. والكل ، غير مخاطبة رجل في أوروبا الشرقية أو الغربية .. الدراسة لا بد أن تكون مستوعبة لطبيعة البيئة وطبيعة العقل الذي سأحدث معه ، وطبيعة العلل التي استشرت في هذا المكان ، ثم خصائص الخير الباقية من الفطرة الإنسانية في هذه البقاع كلها .. فمع ما ينتشر من فساد ، هناك بقايا خير دائماً .. بل أنا أستطيع أن أقول : يجب دراسة الحاضر في هذه الأمم لمعرفة أصحاب الملكات ، وأصحاب القدرات الفنية والعلمية ، لأن هؤلاء قد يكونون أقرب إلى الفهم والخطاب من غيرهم ، ونستطيع أن نتعاون معهم ويتعاونوا معنا على قدر مشترك نتلاقى عليه ..

الاعتصام بالكتاب والسنة ، باب : قول النبي ﷺ : لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق ، وهم أهل العلم . ورواه مسلم في صحيحه — عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه — في كتاب الإيمان ، باب نزول عيسى بن مريم حاكماً بشريعة نبينا محمد ﷺ ، بلفظ « لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة » .

لا بد من أن الأمة الإسلامية تكون في حالة حضور وشهود حضاري — كما قلت — في العالم كله ، ويكون لها بعثات تزود الوطن الأم أو الأمة العربية ، بالزاد لأن العرب هم دماء الإسلام وقلبه ، بوصف أن القرآن كتاب العربية الأول .. وتزود بمعلومات عن المجتمع كله من نواحيه العلمية ، والعملية ، والخلقية ، والحضارية ، لكل ما يتصل به .. وأجهزة الدعوة عندما تكون عندنا جاهلة أو قاصرة فهي أجهزة فاسدة .

□□ هذا يقتضي السير في الأرض لمعرفة الرأي الآخر .. فكون القرآن يعرض لأنواع من العقائد ، والملل ، والأفكار ، والاتجاهات ، ويناقشها ، ويدعوها إلى المحاججة ، والجدل ، والمباهلة ، فهذا دليل على أنه لا مانع من معرفة ما عند الآخرين .. حتى العقائد ، عرض لها القرآن ، إذ كيف يعالج الإنسان قضية لا يعرفها ؟ وكيف يحاور أناساً لا يطلع على ما عندهم ؟ فالقرآن أباح للمسلم أن يطرح على الساحة الإسلامية عقائد الآخرين ..

• لا يزال قوله تعالى :

﴿ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ ﴾ (البقرة : ١١١)

قائماً .. وقد تكررت هذه الجملة أربع مرات في كتاب الله .. فالطلب لا يزال قائماً . ولا بد أن أقول للآخرين : ﴿ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ ﴾ .. وإلا ، كيف أحاورهم ؟ وكيف يتم إقناعهم دون أن أسمع إلى ما عندهم ؟ لا بد أن أعرف ما عندهم معرفة دقيقة ، وصحيحة ، دون تزييف .. وهم الذين يصورون وجهة نظرهم ، لا أنا ، حتى أكون سامعاً لكل ما لديهم بدقة .. وهذا هو الإنصاف .. وديننا دين الإنصاف .

□□ يعني : أن القرآن الكريم ، طلب إلى المسلم الشهود الحضاري ، ووجوب التعرف على الآفاق الثقافية والحضارية .. فمن خلال إشارات القرآن ، يجب

الانطلاق باتجاه الثقافات الأخرى ، والنظم الإدارية الأخرى ، والعقائد الأخرى ،
والأحوال الاجتماعية الأخرى ، والتاريخ الآخر ، وما إلى ذلك ..

• لا بد أن تتلاقى تيارات الفكر العالمي عندنا .. وإذا لم يكن تيارنا قوياً ، فنحن
نستحق ما يصيبنا .. الإسلام ، إنما يعلو — ولا يُعلَى عليه — ببقائه إسلاماً .. فإذا
تحول الإسلام — وهو دين العقل — إلى تقليد أعمى في أرضه ، فإنه لا يُسمى
إسلاماً .. لا بد أن تكون أصول الإسلام القرآنية ، يانعة في مجتمعه ، وأن تمتد ثمرته
لتكون في آفاق الأرض كلها ..



خاتمة

الكلمة الأخيرة التي أتحدث بها إلى إخواني :

اتفق المؤرخون على أن الانطلاقات السياسية أو العسكرية الكبرى ، لا بد أن يكون وراءها فلسفة (أيديولوجية) معنوية ، أو أدبية ، أو تشريعية ، أو اجتماعية ، أو غيرها ..

وما يكون هناك من انطلاقات عسكرية محرومة من هذه الفلسفة ، فإنها تشبه أن تكون غابة لصوص ، وتنتهي .. التتار ملكوا العالم يوماً ، ولكنهم ملكوه في معارك وحشية سريعة ، وتخلص العالم منهم ، خلال معارك سريعة أيضاً ، ولم يتركوا أثراً لأنه ما كان يسيرهم شيء ..

محمد علي باشا (١٤٥٠) ، كاد أن يرث الخلافة التركية العثمانية ولكن ، لأن المسألة كانت ذات قوة عسكرية فقط ، ما وصل إلى شيء .

ويمكن أن ينطبق هذا من بعض الوجوه ، على الدولة العثمانية التي قامت بالإسلام في أولها .. فقد كان محمد الفاتح رحمه الله ، رجلاً صوّاماً ، قوّاماً ، يوصي أولاده

(١٤٥) محمد علي «باشا» ابن إبراهيم أغا بن علي ، المعروف بمحمد علي الكبير : مؤسس آخر دولة ملكية بمصر ، ألباني الأصل ، مستعرب . ولد في قولة (التابعة الآن لليونان ، وكانت من البلاد العثمانية) عام ١١٨٤ هـ (١٧٧٠ م) ، واحترف تجارة الدخان ، فأثرى ، وكان أمياً ، تعلم القراءة في الخامسة والأربعين من عمره ، وقدم مصر وكيلاً لرئيس قوة من المتطوعة ، كمنجدة لرد غزاة الفرنسيين عن مصر ، فشهد حرب أبي قير (سنة ١٢١٤ هـ) وما زال حتى كان والي مصر (سنة ١٢٢٠) فعني بتنظيم حكومتها ، وقتل المماليك (سنة ١٢٢٦) بوسيلة تقوم على الغدر ، وأنشأ السفن في النيل ، وضم معظم السودان الشرقي إلى مصر ، وأنشأ في الإسكندرية دار صناعة «ترسانة» للسفن . وشارك في حرب «المورة» واستولى على سورية ولم تلبث أن انتزعت منه بعد أن جعلت له الدولة العثمانية حكم مصر وراثياً (سنة ١٢٥٧) وكثرت في أيامه المدارس والمعامل في الديار المصرية ، وأرسل البعثات لتلقي العلم في أوروبا . وكان يحتم على من يدخل في خدمته من الإفرنج أن يتزبوا بالزي العربي (المصري) ويتكلموا اللغة العربية ويؤلفوا بها أو ينقلوا كتبهم إليها . واعتزل الأمور لابنه إبراهيم «باشا» سنة ١٢٦٤ هـ (١٨٤٨ م) وأقام بالاسكندرية مريضاً إلى أن توفي بها عام ١٢٦٥ هـ (١٨٤٩ م) .

بقراءة القرآن ، وبالعمل الصالح .. كانت هناك فلسفة (أيديولوجية) ، لكن انتهى الأمر بعد ذلك ، وأصبح الأمر ملكاً عادياً .

جاء الاستعمار الغربي ووراءه فلسفات اجتماعية ، فالثورة الفرنسية ، أو الثورة الشيوعية ، وراءها كتب فكرية : كتابات جان جاك روسو^(١٤٦) ، وكتابات مونتسكيو^(١٤٧) ، وكتابات غيرهم من قادة الفكر الأوروبي ، هي التي كانت من وراء الثورة الفرنسية ، فبقيت الثورة .. كتابات كارل ماركس^(١٤٨) وزملائه ، من وراء الثورة الشيوعية ، فبقيت الثورة الشيوعية ، أو على الأقل كان لها امتداد ..

الإنطلاق الإسلامي ، أو الثورة الإسلامية ، أو التغيير الإسلامي الكوني ، كان وراءه القرآن الكريم .. وهذا سر نجاحه الذي جعله ، خلال القرن الأول ، يمتد في العالم المعروف آنذاك كله .. ما ترك منه شيئاً .. أما بقية العالم ، فبقي وكأنه في منطقة شبه الظل ، يستظل من القرآن وتعاليمه ، داخل الأمة الإسلامية .

أما ، بعد أن بدأت تتقلص فلسفة القرآن الكريم ، وتتقلص دعوته ، فإن الأمة الإسلامية انتهت إلى أمم أشبه بالمغول والتتار ، تقاتل بلا فلسفة ، وبدون وعي ، وانتهى الأمر إلى ما انتهينا إليه .

ولكي ، نعود إلى ديننا ، لا بد أن نعود إلى القواعد التي انطلقنا منها قديماً .. عمر رضي الله عنه ، الذي يقول لقائده « متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً » فاهم للقرآن .. « لو عشت لهم لوصل إلى الراعي في صنعاء ، حظه من هذا المال » .. « ما أحد أولى بهذا المال من أحد » .. إنه فاهم للقرآن .

(١٤٦) روسو ، جان جاك Rousseau, Jean Jacques كاتب فرنسي ، ولد عام ١٧١٢ م ، وكان لآرائه السياسية أثر كبير في تطور الديمقراطية الحديثة ، توفي عام ١٧٧٨ م .

(١٤٧) مونتسكيو Montesquieu كاتب وفيلسوف سياسي فرنسي ، ولد عام ١٦٨٩ م ، أشهر كتبه «روح القوانين» (L'Esprit des lois) نشره عام ١٧٤٨ م . وتوفي عام ١٧٥٥ م .

(١٤٨) ماركس ، كارل Marx, Karl فيلسوف اجتماعي ألماني ، ولد عام ١٨١٨ م ، أشهر كتبه «رأس المال» (Das Kapital) ، توفي عام ١٨٨٣ م .

أيضا : الرجل البدوي الذي يقول لقادة الفرس : جئنا لنخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله .. فهم الإسلام من القرآن ..

فهذا الفهم القرآني هو من وراء إنطلاق الإسلام الأول . الجزر الذي حصل بعد المد ، إنما حدث من تقلص الفلسفة القرآنية ، والأنظمة القرآنية ، وشيوع عادات ومرويات ضعيفة ، جعلت الأمة الإسلامية لا تتمثل كتاب ربها الذي نزل .. لكي نعود سيرتنا الأولى ، لا بد أن نعود لكتابنا ، ننطلق منه بعد أن تشرب روحنا هدايته .. نتعرف على ما فيه ..

القرآن الكريم ، يجب أن يدرس تفسيراً موضعياً ، وتفسيراً موضوعياً .. ويجب أن يُنظر إليه كلاً وجزءاً على أنه دعامة أمة .. هو عقلها المفكر .. هو ضميرها الصاحي .. هو علمها المرفوع .. أما أن يُترك القرآن لأُمور أخرى ، فلا يجوز .. كان عمر رضي الله عنه ، ينهى وهو يُرسل الجيوش ، عن الإكثار من رواية الأحاديث ، ويقول : لا تشغلوهم عن القرآن .. والسبب : أنه من الممكن جداً أن يحدث قتال بين عدة جنود بسبب حديث لا يفهمون معناه ، أو تختلف الأنظار في تحديد مدلوله ، واستنباط الحكم الفقهي منه . وتضيع الأمة بهذه الخلافات ، كما يضيع الآن المسلمون في الخلافات الفقهية التي مزعتهم ، وجعلتهم مزعاً .. تستغرب حقاً حينما ترى الذي يقاتل في أفغانستان ، له سبعة أو ثمانية أحزاب ! ما الذي قسم الأمة هذا التقسيم ؟ خلافات فقهية ، أو خلافات شخصية .. لكن ، القرآن لا يعرف هذا أبداً .. إنه يعرف أمة موحدة على هدفه ، تدور على محوره ، وتنبعث من هدايته ..

نريد أن نعود إلى القرآن الكريم .. ننشغل به ، ليكون محور حياتنا .. أما العدد الأكبر من السنن والاختلافات الفقهية ، فهو للمتخصصين . ويمكن أن يدخل في القضاء ، إعداد اللوائح ، كما يمكن أن يدخل في التفاصيل التي تحتاج إليها الأمة في الشؤون التي تعنى بالفروع والجزئيات .. الأمة لها دستور .. والدستور غير لائحة الجمارك ، غير قانون الضرائب .. الخ فالدستور شيء ، أما الأمور التفصيلية فشيء

آخر يمكن أن يختلف الناس في نطاقها ..

إن الأمة لا بد لها أن تنزع كلها إلى الدستور الرصين ، والأركان الكبرى في هذا الدستور ، لا بد أن تبنى .. وكذلك تفعل الأمم الأخرى .. فليس هناك من يقول : إن حزب المحافظين والعمل والأحرار في إنجلترا ، تمثل كيانات مستقلة .. أبداً .. وإنما لهم جميعاً امبراطورية يعبدونها من دون الله .. خدمتها تحتاج إلى شيء من التفصيل ، ربما يختلف حوله الناس ، وربما يختلف حوله الرجل الذي قد يكون من المحافظين ، مع زوجته التي قد تكون من العمال .. ولا حرج ، طالما يجمعهم الدستور والهدف الأساسي .

فنحن ، يجب أن لا يغيب عن بصائرنا أبداً : الهدف الأساس الذي لا بد منه وهو: كتابنا.. كتابنا يكاد يضيع منا، ونقرأه موسيقى من كبار القارئین، ونسمعه بتبلد لأننا نريد أن نتلاقى على مجالس تأوهات ، وإعجاب بالأصوات ، وانتهى الأمر .. أما أن ينطلق القرآن كتاباً محركاً للحضارات ، فقد غاب عنا هذا كله لأننا اشتغلنا بغيره ، وهذا ما نرفضه .

والحمد لله رب العالمين

فهرس الآيات القرآنية

أ

- ﴿ ءَامَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ﴾ ٢٢٠
- ﴿ اَلَّذِينَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ﴾ ٩٨
- ﴿ أَذْهَبَ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴾ ٢٤٤
- ﴿ أَفْتُو مَنُونٍ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ﴾ ٨٣
- ﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْءَانَ أَمْرَ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ ١٢ ، ٩
- ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا ﴾ ٢٧٥ ، ٧٠
- ﴿ أَقْرَأْ بِأَسْمَاءِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾ ١٤٩ ، ٨٥
- ﴿ أَقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾ ٥٧
- ﴿ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا ﴾ ٨٨
- ﴿ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ ٤٥
- ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَلُهُمْ ﴾ ٥٥
- ﴿ اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ ﴾ ١٢٣
- ﴿ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا ﴾ ٤٥
- ﴿ اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلُكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ ﴾ ٦٤
- ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾ ٢٥٤ ، ٢٣٢
- ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ ﴾ ٢٢٨

- ﴿ أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ ﴾ ١٠٠
- ﴿ أَمْنَ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا ﴾ ٢٠٥
- ﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا ﴾ ١٢٠ ، ١٢٩ ، ١٣١ ، ١٣٥
- ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ ٥٥ ، ٦٠
- ﴿ إِبْرَاهِيمَ اللَّهُ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾ ٥٤ ، ١٩٤ ، ١٩٥
- ﴿ إِنْ تُرِيدُوا إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ ﴾ ٢٢٣
- ﴿ إِبْرَاهِيمَ خَيْرَ مَنْ اسْتَجَرْتَ الْقَوِيَ الْأَمِينُ ﴾ ٢٠٠
- ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيعًا ﴾ ٢٢٢
- ﴿ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَجْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لِيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ ﴾ ٤٧
- ﴿ إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى ﴾ ٢٣
- ﴿ إِنَّا بَلَوْتُهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ ﴾ ١٦٥
- ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلًا لَّا فَهَىٰ إِلَى الْأَذْقَانِ ﴾ ٢٠٣
- ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ ﴾ ٤
- ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾ ٦١
- ﴿ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ ﴾ ١١٩
- ﴿ إِنَّهُمْ مِّنْ يَّتَّقَى وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ ٥٥ ، ٨٤
- ﴿ أَوَلَمْ تَسْأَلِ الْمَنَاءَ فَلَمْ يَجِدْ أَوْ أَمَاءَ فَتَيَمَّمُوا ﴾ ١٣٢
- ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا ﴾ ٢٣١ ، ٢٧٥

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ٢٤١

ت

﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ٢٦٨

﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ﴾ ٢٨٨

﴿تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ يُبَدُّونَهَا وَيُخَفُّونَ كَثِيرًا﴾ ٩٠

﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا﴾ ٢١٩

ث

﴿ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٦٤﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ﴾ ٢٦٤

ح

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ﴾ ٢٦٨

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ ٢٦٨

خ

﴿ خَلَقَ لَكُمْ مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ ١٦٢

ذ

﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴾ ٢٢٠

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُوْنَ ﴾ ٨٠

﴿ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ أَيْدِيكُمْ ﴾ ٥٤

﴿ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ ٢٣ ، ٢٦٢

﴿ ذَٰلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ ﴾ ١٢٣

ر

﴿ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾ ٢٢٣

﴿ رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَنِ ﴾ ١٢٥

ز

﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ ﴾ ١٦٦

س

﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ ﴾ ١٥ ، ٤٧ ، ٧١ ، ٢٥٩ ، ٢٦٦

ش

﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ ﴾ ١٧٦

ط

﴿ الطَّلَقُ مَرَّتَانٍ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَنٍ ﴾ ٢٠٠

ظ

﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ ﴾ ٦١

ع

- ﴿ عَلِمَ أَنْ لَنْ تُخْصَوْهُ فَتَابَ عَلَيْكَ ﴾ ٩٨
- ﴿ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴾ ١٧٥

ف

- ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُمْ وَنَفَخْتُ فِيهِمْ رُوحِي ﴾ ٤٨
- ﴿ فَأَذْهَبَ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتِلَا إِنَّا هَهُنَا قَاعِدُونَ ﴾ ٢١٧
- ﴿ فَأَصْدَعُ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضُ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴾ ٩١
- ﴿ فَأَعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ ﴾ ٧١ ، ٧٣ ، ٢٧٤
- ﴿ فَأَقِضْ مَا أَنْتَ قَاضٍ ﴾ ٢٢٤
- ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ﴾ ٤٧ ، ١٣٢ ، ٢٧٨
- ﴿ فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ﴾ ٨١
- ﴿ فَإِنَّكَ لَا تَسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تَسْمِعُ الضُّعْفَ الدُّعَاءَ ﴾ ٦٢
- ﴿ فَيُظْلَمُونَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ ﴾ ١٤٥
- ﴿ فَقَدْ أَتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ﴾ ١٢٣
- ﴿ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّكُمْ كَانَتْ غَفَّارًا ﴾ ١٦٤
- ﴿ فَلَا أَقْسَمُ بِمَوْقِعِ النُّجُومِ ﴾ ٤ ، ١٠١ ، ١٧٣

- ﴿ فَلَمَّا تَرَأَ الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمَذْكُورُونَ ﴾ ٢٢١
- ﴿ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ ﴾ ٥٦
- ﴿ فَمَاءٌ آمِنٌ لِّمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّنْ قَوْمِهِ ﴾ ٢٢١
- ﴿ فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَّعُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ ٨٣
- ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٦﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ ٩٠
- ﴿ فِي يَضْعِ سِنِينَ ﴾ ١٧٤
- ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ ﴾ ٩٣

ق

- ﴿ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتَضَعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدٌ ذُنُكُرٌ ﴾ ٢٢٩
- ﴿ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴾ ٢٢٧
- ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَن أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴾ ٢٢٣
- ﴿ قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ ٢٢٧
- ﴿ قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ ٢٢٧
- ﴿ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ﴾ ٣٠
- ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَشْئِئًا وَفَرَادَى ﴾ ١٧٦
- ﴿ قُلْ لَا آجِدُ فِي مَا أُوْحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ ﴾ ١٣٧
- ﴿ قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ﴾ ٢٤٩

- ﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴾ ٤٧
- ﴿ قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ ﴾ ١٥٢ ، ١٦٩

ك

- ﴿ كَتَبْنَا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾ ٢٦ ، ٢٧٨
- ﴿ كَتَبْنَا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ ﴾ ١٢ ، ٢٩
- ﴿ كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ ﴾ ٣١
- ﴿ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ ﴾ ١٢١
- ﴿ كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّاظٍ ﴾ ٢١٩
- ﴿ كَمَا أُنْزِلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ ﴾ ٨٩

ل

- ﴿ لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بَاطِلًا مَضْمُونًا ﴾ ١٤٦
- ﴿ لَتَكُونَنَّ لِمَنْ خَلَقَكَ آيَةً ﴾ ٢٢٦
- ﴿ لَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ﴾ ١٤٢
- ﴿ لَعَلَّنَا نَتَّبِعَ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمْ الْغَالِبِينَ ﴾ ٢٢٤
- ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ ﴾ ١٢٣
- ﴿ لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّءْيَا بِالْحَقِّ ﴾ ١٧٥

- ﴿ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴾ ١٤٩
- ﴿ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ﴾ ١٤٩
- ﴿ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ ١٨٠ ، ١٣
- ﴿ هُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا ﴾ ٨٢
- ﴿ لَوْ أَطْلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا ﴾ ١٠٤
- ﴿ لَوَاتِكْ لَنَا كَرَّةٌ فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا ﴾ ٢٣٠
- ﴿ لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ ﴾ ٥٥
- ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ ٢٠٤
- ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ ﴾ ٥٤

م

- ﴿ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴾ ٢٢٥
- ﴿ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ ﴾ ١٩٦
- ﴿ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴾ ٢٢٩
- ﴿ مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا ﴾ ١٠٠ ، ٩٩ ، ٩٧
- ﴿ مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ﴾ ٥٤
- ﴿ مَا يَوْذُو الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ ﴾ ١٠٠

﴿ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ ۚ ﴾ ١٦٢

﴿ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ ﴾ ١٣٢

ن

﴿ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ ﴾ ٢٢٩

﴿ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ۚ ﴾ ٥٦

﴿ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ ﴾ ١٦١

هـ

﴿ هَآؤُلَآئِكَ مَتَرَفُوكُمْ ﴾ ٢٨٢ ، ١٤٤

﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا ۖ ﴾ ٨١

و

﴿ وَاتِمُّوا إِلَيْنَا مِمَّا بَعَرْتُمْ ۖ ﴾ ٢٠٢

﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ۖ ﴾ ١٤٩

﴿ وَاحْذَرُهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ ۖ ﴾ ١٣

- ﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا ﴾ ١٦٥
- ﴿ وَإِذَا بَدَلْنَا آيَةً مَكَاتٍ آيَةً وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ ﴾ ٩٧
- ﴿ وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ ﴾ ٢٥٣
- ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا تَأْتُونَنَا بِمَاءٍ أَنْزَلَ عَلَيْنَا ﴾ ١٠٠
- ﴿ وَأَذِّنْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ ﴾ ٨٨
- ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ ﴾ ٦٣
- ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ ﴾ ٥٣
- ﴿ وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى ﴾ ٢٥٧
- ﴿ وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ ﴾ ٤
- ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يُخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴾ ٢٦
- ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ ٨٧
- ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ ﴾ ٤
- ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ ﴾ ٨٨
- ﴿ وَإِنْ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا الْغَافِلُونَ ﴾ ٢٢٦
- ﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ ﴾ ١٥٠ ، ٥٦
- ﴿ وَأَنْ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ﴾ ١٨٤ ، ١٣
- ﴿ وَإِنْ يَكُ كَذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ ﴾ ٢٢٥
- ﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴾ ٢٣٢
- ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ ﴾ ٢٢٣

- ﴿ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىٰ أَنْ عَبَّدَتْ بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴾ ٢٢٢
- ﴿ وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ ٥٩
- ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا ﴾ ٢٠٣
- ﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا ﴾ ١٦٨ ، ١٦٦
- ﴿ وَعَلَّمَتِ بِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ ٦٥
- ﴿ وَقَتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يَقْتُلُونَكُمْ كَافَّةً ﴾ ٨٨ ، ٤٠
- ﴿ وَقَالَ الَّذِي ءَامَنَ يَقَوْمِ اتَّبِعُونِ ﴾ ٢٢٥
- ﴿ وَقَالَ الرَّسُولُ يَرْبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا ﴾ ٢٣
- ﴿ وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ ﴾ ٢٢٩
- ﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ ﴾ ٩٣
- ﴿ وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ ﴾ ٩٠
- ﴿ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ ٢٦٥
- ﴿ وَكَاتِبِينَ مِنْ قَرْيَةٍ عَنَتٍ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا ﴾ ٢٠١
- ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْبَرًا مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا ﴾ ١٢٢
- ﴿ وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ ﴾ ٣٢
- ﴿ وَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا ﴾ ٨٣
- ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا ﴾ ١٣٨
- ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا ﴾ ١٣١
- ﴿ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ ١٢٩ ، ١٢٠

- ﴿ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ ١٥٢ ، ١٥٥
- ﴿ وَلَئِنْ أَتَبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ﴾ ٢٥٣
- ﴿ وَلَنَعْلَمَنَّ نَبَأَ بَعْدَ حِينٍ ﴾ ٩ ، ١٩ ، ٩٢
- ﴿ وَلَقَدْ عَلَّمْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنْ اشْكُرْ لِلَّهِ ﴾ ٩٠ ، ١٢٣
- ﴿ وَلَقَدْ عَلَّمْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَأَخْلَفَ فِيهِ ﴾ ٥
- ﴿ وَلَقَدْ عَلَّمْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ ﴾ ٩١
- ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ ﴾ ٢٧٧
- ﴿ وَلَقَدْ جَاءَ كُتُبُ يُوسُفَ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ ٢٢٥
- ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ ﴾ ٥٥
- ﴿ وَلَقَدْ سَرَّنا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدْكِرٍ ﴾ ٩
- ﴿ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ﴾ ١٥
- ﴿ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾ ٥٣
- ﴿ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴾ ١٤٣
- ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ ﴾ ١٦٤
- ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىءِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ ﴾ ١٦٤
- ﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانَا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ ﴾ ٣١
- ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ ﴾ ١٣٨
- ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾ ٢٦٢
- ﴿ وَلَوْ لَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ ﴾ ١٤٩

- ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفُتَّتْ صَوْمِعُ ﴾ ١٥٧
- ﴿ وَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ رَبِّكَ لِيَرْبُؤُوا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ ﴾ ١٤٥
- ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا ﴾ ١٢٢
- ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾ ٢٣٨ ، ١٥
- ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجَا لَأَتُوحَىٰ إِلَيْهِمْ ﴾ ٤
- ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ ١٥
- ﴿ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ ٢٢٧
- ﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ ﴾ ٩
- ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ فَتْهَجَّ بِهِ نَافِلَةٌ لَكَ ﴾ ٩٩
- ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ﴾ ٢٠٢
- ﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِي ﴾ ١٠
- ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ ﴾ ١٣٠
- ﴿ وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ ﴾ ٢٢٢
- ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ ﴾ ٨٦ ، ٧
- ﴿ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ ٨١
- ﴿ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴾ ١٧٤
- ﴿ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْتَوْنَ عَنْهُ ﴾ ٢٣٣
- ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ ﴾ ١٩٦

- ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ ٨١
- ﴿ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ ﴾ ١٩٦
- ﴿ وَتَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ ﴾ ١٤٩
- ﴿ وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴾ ١٢٣
- ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لِيُسْأَلُنَا عَنْ سَاعَتِهِ ﴾ ١٥٣
- ﴿ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٧٤﴾ بِنَصْرِ اللَّهِ ﴾ ١٧٤

ي

- ﴿ يَتَاهَدُ الْكِتَابُ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ ﴾ ٩٠
- ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا ﴾ ١٤٦
- ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا ﴾ ١٦٤
- ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَصُورُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ ﴾ ١٦٤
- ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ﴾ ٤٥
- ﴿ يَرْبِّ إِن قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا ﴾ ٢٣
- ﴿ يَقُومُ لَكُمْ الْمَلَكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ ﴾ ٢٢٥
- ﴿ يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا ﴾ ٩٣
- ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي ﴾ ١٤٩

فهرس الأحاديث والآثار

أ

- أجزأتك صلاتك ١٣١
- إذا هلك كسرى فلا كسرى بعده ١٧٥
- اعتمر أربع مرات، إحداهن في رجب ١٣٧
- افترقت اليهود على إحدى أو ثنتين وسبعين فرقة ١٣٣
- إقرأ وارتن ٢٦٠
- أمتي كالضيف لا يدري أوله خير أم آخره ٢٦٤
- إن الله ليزيد الكافر عذاباً ببكاء أهله عليه ١٣٧
- إن الميت يعذب ببعض بكاء أهله عليه ١٣٧
- إنّا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب ٢٥٢
- أنتم أصحابي، وإخواننا الذين لم يأتوا بعد ٢٦٤
- أنتم أعلم بأمر دنياكم ١٢٧
- إنك ستأتي قوماً أهل كتاب ١١٦
- إنك ما حدثت قوماً بحديث لم تبلغه عقولهم ١٤٣
- إنما نهيتكم.. من أجل الدافة ٩٦
- إني لأعلم إذا كنت عني راضية ١٠٥
- أن غلاماً جميل الوجه ٢٠٦

ب

- بلغوا عني ولو آية ١٦

ت

تركت فيكم شيئين لن تضلوا بعدهما ١٨٥

ث

ثكلتك أمك يا لبيد ١٢

ح

حدثوا الناس بما يعرفون ١٤٣

س

ستفتح مصر بعدي ١٧٥

ف

فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه ٢١٦

فإن خلق نبي الله ﷺ كان القرآن ٢٨

فُرب حامل فقه إلى من هو أفقه منه ١٦ ، ٢٦٣

فُرب مبلغ أوعى من سامع ١٦

ك

كان خلقه القرآن ٢٨

كلو وأطعموا وادخروا ٩٦

ل

لا تجتمع هذه الأمة على ضلال أبداً ١٤١

لا ترجعوا بعدي كفاراً ١٣٣

لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين ٢٨٠

- لا يأتين الناس بالأعمال وتأتون بالأثقال ١٨١
- لا يركب البحر إلا حاج أو معتمر أو غاز ٦٥
- لا يصلين أحد العصر إلا في بني قريظة ١٣٠
- لتتبعن سنن من كان قبلكم ١٩٧ ، ٢٣١
- لقد شهدت حلفاً في دار عبدالله بن جدعان ٢٦٢
- لو أن موسى كان حياً ما وسعه إلا أن يتبعني ١٣
- لو عشت لهم لوصل الراعي ٢١٠

م

- ما عليه أنا وأصحابي ١٣٤
- من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب ٢٥٥
- من قال في القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ ٢٥٨
- من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين ٨٠

ن

- نحن أمة أمية لا تقرأ ولا تحسب ٢٥٤
- نور على نور ١٣١

هـ

- هو الطهور ماؤه، الحل ميتته ٦٥

و

- والله ليلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار ١٥٤
- والله، ليهنك العلم أبا المنذر ٢٥٣
- وددت أنا قد رأينا إخواننا ٢٦٤
- وذاك عند ذهاب العلم ١٢

ومن أصاب شيئاً من ذلك فستره الله عليه ١٦٧

ي

يقال لصاحب القرآن اقرأ وارتنق ورتل ٢٦٠

فهرس الأعلام

أ

- أبي بن كعب ٢٥٣
- أحمد بن حنبل ١١
- أحمد شوقي ١٩٠
- أرسطو ١١٣
- الأعمش، سليمان بن مهران ٢٥٥
- الأفغاني ، جمال الدين ١٨٨
- الأقرع بن حابس ٢١٢
- امرؤ القيس ١١٠
- أينشتاين ، ألبرت ٢٦١

ب

- البحثري ١١٠
- البخاري ٢٥٥
- أبو بكر الصديق ١٢٩
- أبو تمام ١١٠
- البيضاوي، أبو سعيد ٤٣

ت

- توينبي، أرنولد ١٥٨
- ابن تيمية، تقي الدين ١٠

ج

- جابر بن حيان ٤٠
- أبو جهل ٢٢٠
- ابن الجوزي ٢٠٦
- جينز، السير (جيمس) ٦٥

ح

- الحارث المحاسبي ٤٨
- الحجاج بن يوسف الثقفي ٧٧
- ابن حجر العسقلاني ٤٣
- ابن حزم ١٩١
- الحسن البصري ٧٧
- حسن البنا ٦٨
- الحسين بن علي ١٨٩
- أم حرام ٦٤

أبو حنيفة النعمان ٣٨

حي بن يقضان ١٠٢

خ

الخازن ٩٧

الخضري، محمد ٩٧

ابن خلدون، عبد الرحمن ١٠٣

الخوازمي، محمد بن موسى ٤٠

د

دراز، محمد عبدالله ٢٦٠

ذ

الذهبي ٢٥٥

ر

الرازي، محمد بن عمر ٤٢

ربيعي بن عامر ٢٩

ابن رشد ٣٩

٩٧ رشيد رضا، محمد
٢٨٥ روسو، جان جاك

ز

٤٢ الزمخشري، أبو القاسم
١١ زياد بن ليلى
٤٣ زينب بنت جحش الأسدية
١٦ زيد بن ثابت

س

٣٥ سالم مولى أبي حذيفة
٤٢ أبو السعود، محمد بن محمد
٢٣٥ أبو سفيان بن حرب
٢٧٧ سلمان الفارسي
٤١ سيد قطب
١٠٧ سيف الدولة الحمداني

ش

٣٤ الشاطبي، إبراهيم بن موسى
----	--------------------------------

٢٨ الشافعي، محمد بن إدريس
١١١ ابن الشجري
٢٤٢ شكسبير، وليم
٢١٠ شو، جورج برنارد
٣٤ الشيباني

ط

٢٣٣ أبو طالب، عبد مناف بن عبد المطلب
١٧٣ الطاهر بن عاشور، محمد
٤١ الطبري، محمد بن جرير
٢٣٤ طرفة بن العبد
٢٣٧ طه حسين

ع

٢٨ عائشة أم المؤمنين
١٦٧ عبادة بن الصامت
٢١٢ العباس بن برداس
١٠ عبدالله بن عباس
١٣٧ عبدالله بن عمر

عبدالله بن عمرو بن العاص	١٦
عبدالله بن مسعود	١٦
عبد الرزاق نوفل	٢٥٧
عبد القادر عودة	١٨٩
عثمان بن عفان	١٨٢
عروة بن الورد	١١٠
العقاد، عباس محمود	٢٧
علي بن أبي طالب	٧٥
عمر بن الخطاب	١٠

غ

الغزالي، أبو حامد	٣٩
-------------------------	----

ف

الفارابي، محمد بن محمد	١٠٧
فرويد، سيجموند	٤٨

ق

قتادة	١٠
-------------	----

ابن القيم ١١

ك

كارنيجي، ديل ٦٠

كاريل، أليكسس ٥٢

ابن كثير، اسماعيل بن عمر ١١

الكرخي، أبو الحسن ١٧

الكندي، يعقوب بن إسحاق ١٠٧

الكواكبي، عبد الرحمن ١٨٩

ل

لويس السادس عشر ١١٤

م

ماركس، كارل ٢٨٥

ماكدوجل ١٠٤

مالك بن أنس ٧٥

المتنبي، أبو الطيب ١١٠

محمد بن الحسن — انظر الثيباني ٣٤

محمد عبده	٦٨
محمد علي باشا	٢٨٤
محمد الفاتح	٧٢
محمد المبارك	٢١٥
محمد يوسف موسى	٢٠٤
مسلم بن الحجاج	٢٥٦
معاذ بن جبل	١٤٦ ، ١١٨
معاوية بن أبي سفيان	٧٥
مونتيסקيو	٢٨٥

ن

نديم الجسر	١٠٢
نعيم بن مسعود	١٥٩
أبو نواس	١٠٤

هـ

هند بنت عتبة	٢٣٥
هوجو، فيكتور	٢٧٨
ابن الهيثم، محمد بن الحسن	٤٠

ي

يزيد بن معاوية ١٨٩

أبو يوسف، يعقوب بن ابراهيم ٣٤

المعهد العالمي للفكر الإسلامي

يقدم إلى القارئ الكريم

الكتاب الرابع - في سلسلة قضايا الفكر الإسلامي:



الكتاب القيم

كيف نتعامل مع
السنة النبوية
معالم وضوابط

للدكتور

يوسف القرضاوي

تقديم: الدكتور طه جابر العلواني

كتاب يعتبر دعامة في بناء منهج فهم السنة النبوية..
يعرض لأهم قواعد فهم السنة النبوية المطهرة.. ويعمل على
توجيه الأمة إلى قضايا فهم السنة.. ويجعل دراسات السنة
وفهمها تأخذ مكانها اللائق بها..

يطلب من الموزعين المعتمدين.

سعر الكتاب: غلاف عادي: ٧٥ دولارات

إصدارات المعهد العالمي للفكر الإسلامي

أولاً — إسلامية المعرفة:

- ١ — إسلامية المعرفة: المبادئ وخطة العمل، الطبعة الثانية، ١٤٠٦/١٩٨٦م.
- ٢ — الوجيز في إسلامية المعرفة (المبادئ العامة وخطة العمل مع أوراق العمل لمؤتمرات الفكر الإسلامي)، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م. أعيد طبعه في المغرب والأردن والجزائر. (الطبعة الثانية ستصدر قريباً)
- ٣ — نحو نظام نقدي عادل للدكتور محمد عمر شابرا، ترجمه عن الانجليزية سيد محمد سكر وراجعه الدكتور رفيق المصري، (الكتاب الحائز على جائزة الملك فيصل العالمية لعام ١٤١٠هـ/١٩٩٠م)، الطبعة الثانية (منقحة ومزودة)، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م.
- ٤ — نحو علم الإنسان الإسلامي للدكتور اكبر أحمد ترجمه عن الانجليزية الدكتور عبد الغني خلف الله، الطبعة الأولى، (دار البشائر) ١٤١٠هـ/١٩٩٠م.
- ٥ — منظمة المؤتمر الإسلامي للدكتور عبدالله الأحسن ترجمه عن الانجليزية الدكتور عبد العزيز الفائزة الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ/١٩٨٩م.

ثانياً — سلسلة إسلامية الثقافة:

- ١ — دليل مكتبة الأسرة المسلمة خطة وإشراف الدكتور عبد الحميد أبو سليمان، الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ/١٩٨٥م، (الطبعة الثانية المنقحة ستصدر قريباً).
- ٢ — الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف للدكتور يوسف القرضاوي (بإذن من رئاسة المحاكم الشرعية بقطر) ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.

ثالثاً — سلسلة الفكر الإسلامي المعاصر:

- ١ — حجية السنة للشيخ عبد الغني عبد الخالق، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ/١٩٨٦م، (والطبعة الثانية ستصدر قريباً).
- ٢ — أدب الاختلاف في الإسلام للدكتور طه جابر العلواني، (بإذن من رئاسة المحاكم الشرعية — بقطر)، الطبعة الثانية، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.
- ٣ — الإسلام والتنمية الاجتماعية للدكتور محسن عبد الحميد، الطبعة الثانية، ١٤١٠هـ — ١٩٨٩م.
- ٤ — كيف نتعامل مع السنة النبوية: معالم وضوابط للدكتور يوسف القرضاوي، الطبعة الثانية ١٤١١هـ — ١٩٩٠م.

رابعًا — سلسلة المنهجية الإسلامية:

- ١ — المنهجية الإسلامية والعلوم السلوكية والتربوية (أعمال المؤتمر العالمي الرابع للفكر الإسلامي) الجزء الأول: المعرفة والمنهجية ، الطبعة الأولى ١٤١١ هـ — ١٩٩٠ م.

خامسًا — سلسلة أبحاث علمية:

- ١ — أصول الفقه الإسلامي، منهج بحث ومعرفة، للدكتور طه جابر العلواني ، الطبعة الأولى، ١٤٠٨ هـ/١٩٨٨ م. (الطبعة الثانية تصدر قريبًا).

سادسًا — سلسلة المحاضرات:

- ١ — الأزمة الفكرية المعاصرة: تشخيص ومقترحات علاج، للدكتور طه جابر العلواني، الطبعة الأولى، ١٤٠٩ هـ — ١٩٨٩ م.

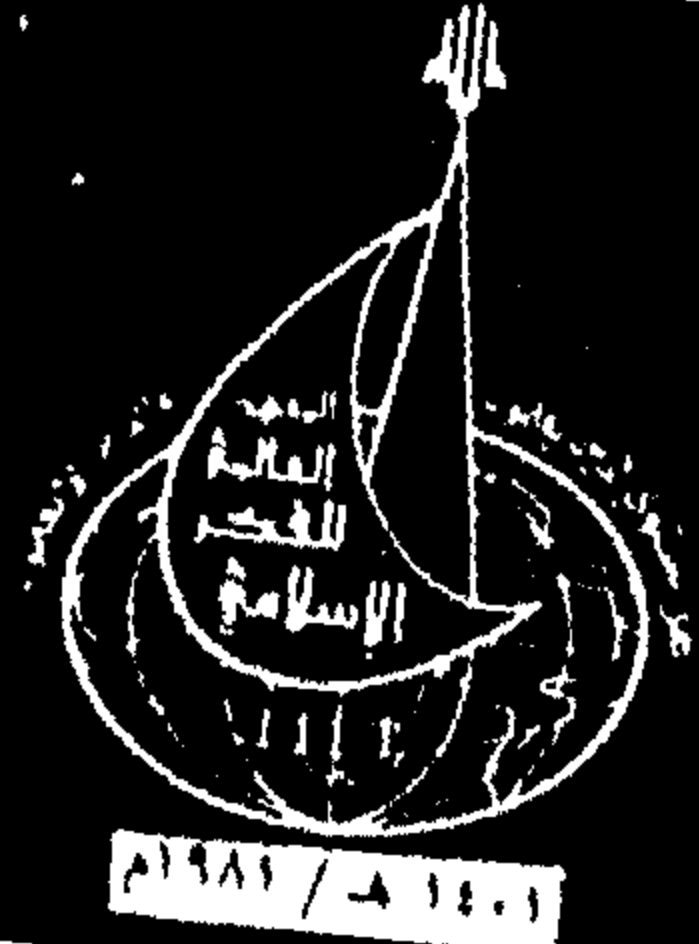
سابعًا — سلسلة رسائل إسلامية المعرفة:

- ١ — خواطر في الأزمة الفكرية والمأزق الحضاري للأمة الإسلامية، للدكتور طه جابر العلواني، الطبعة الأولى ١٤٠٩ هـ/١٩٨٩ م.
- ٢ — نظام الإسلام العقائدي في العصر الحديث، للأستاذ محمد المبارك، الطبعة الأولى، ١٤٠٩ هـ/١٩٨٩ م.
- ٣ — الأسس الإسلامية للعلم، (مترجمًا عن الإنجليزية)، للدكتور محمد معين صديقي، الطبعة الأولى، ١٤٠٩ هـ/١٩٨٩ م.
- ٤ — قضية المنهجية في الفكر الإسلامي، للدكتور عبد الحميد أبو سليمان، الطبعة الأولى، ١٤٠٩ هـ/١٩٨٩ م.
- ٥ — صياغة العلوم صياغة إسلامية، للدكتور اسماعيل الفاروقي الطبعة الأولى، ١٤٠٩ هـ/١٩٨٩ م.
- ٦ — أزمة التعليم المعاصر وحلولها الإسلامية، للدكتور زغلول راغب النجار ، الطبعة الأولى ١٤١٠ هـ/١٩٩٠ م.
- ٧ — مدخل إلى إسلامية المعرفة، للدكتور عماد الدين خليل، الطبعة الأولى ١٤١١ هـ/١٩٩٠ م.

ثامنًا — سلسلة الرسائل الجامعية:

- ١ — نظرية المقاصد عند الإمام الشاطبي، للأستاذ أحمد الريسوني ، الطبعة الأولى، ١٤١١ هـ/١٩٩٠ م.

مجلة



"The Contemporary Muslim"

فصلية تعالج قضايا الاجتهاد المعاصر في ضوء الأصالة الإسلامية

صاحب الامتياز
ورئيس التحرير المسؤول: الدكتور جمال الدين عطية

تصدر عن :

المعهد العالمي للفكر الإسلامي

INTERNATIONAL INSTITUTE
OF ISLAMIC THOUGHT

P.O. Box 669
Herndon, VA 22070, U.S.A.

Phone (703) 471-1133

Fax: (703) 471-3922

Telex: 901153 IIIT WASH

مؤسسة المسلم المعاصر

AL MUSLIM AL MU'ASIR
FOUNDATION

ص.ب. ٢٨٥٧ الصفاة

13029 - الكويت

تليفون 241-4220 (965)

(فاكسيميلى) 245-0789 (965)

الموزعون المعتمدون لمنشورات المعهد العالمي للفكر الإسلامي

في شمال أمريكا:

خدمات الكتاب الإسلامي

Islamic Book Service
10900 W. Washington St
Indianapolis, IN 46231 U.S.A.
Tel: (317) 839-9248
Fax: (317) 839-2511

المكتب العربي المتحد

United Arab Bureau
P.O. Box 4059
Alexandria, VA 22303, U.S.A.
Tel: (703) 329-6333
Fax: (703) 329-8052

في أوروبا:

خدمات الاعلام الإسلامي

Muslim Information Services
233 Seven Sister Rd.
London N4 2DA, U.K.
Tel: (44-71) 272-5170
Fax: (44-71) 272-3214

المؤسسة الإسلامية

The Islamic Foundation
Markfield Da'wah Centre, Ruby Lane
Markfield, Leicester LE6 ORN, U.K.
Tel: (44-530) 244-944 / 45
Fax: (44-530) 244-946

الأردن:

دار البشير للنشر والتوزيع
ص.ب ١٨٢٠٧٧ - عمان
تليفون (962) 665-9891
فاكس (962) 665-9893

المغرب:

دار الأمان للنشر والتوزيع
4، زنقة المامونية
الرباط - المغرب
تليفون (212-7) 723276

المملكة العربية السعودية:

الدار العالمية للكتاب الاسلامي
ص.ب. ٥٥١٩٥ الرياض ١١٥٣٤
تليفون (966) 1-465-0818
فاكس (966) 1-463-3489

مصر:

المعهد العالمي للفكر الاسلامي
٢٦ - ب شارع الجزيرة الوسطى
الزمالك - القاهرة
تليفون (202) 340-9520
فاكس (202) 340-9520

المعهد العالمي للفكر الإسلامي

المعهد العالمي للفكر الإسلامي مؤسسة فكرية إسلامية ثقافية مستقلة أنشئت وسجلت في الولايات المتحدة الأمريكية في مطلع القرن الخامس عشر الهجري (١٤٠١هـ - ١٩٨١م) لتعمل على:

- توفير الرؤية الإسلامية الشاملة، في تأصيل قضايا الإسلام الكلية وتوضيحها، وربط الجزئيات والفروع بالكلية والمقاصد والغايات الإسلامية العامة.
- استعادة الهوية الفكرية والثقافية والحضارية للأمة الإسلامية، من خلال جهود إسلامية العلوم الإنسانية والاجتماعية، ومعالجة قضايا الفكر الإسلامي.
- إصلاح مناهج الفكر الإسلامي المعاصر، لتمكين الأمة من استئناف حياتها الإسلامية ودورها في توجيه مسيرة الحضارة الإنسانية وترشيدها وربطها بقيم الإسلام وغاياته.
- ويستعين المعهد لتحقيق أهدافه بوسائل عديدة منها:
- عقد المؤتمرات والندوات العلمية والفكرية المتخصصة.
- دعم جهود العلماء والباحثين في الجامعات ومراكز البحث العلمي ونشر الإنتاج العلمي المتميز.
- توجيه الدراسات العلمية والأكاديمية لخدمة قضايا الفكر والمعرفة.
- وللمعهد عدد من المكاتب والفروع في كثير من العواصم العربية والإسلامية وغيرها يمارس من خلالها أنشطته المختلفة، كما أن له اتفاقات للتعاون العلمي المشترك مع عدد من الجامعات العربية والإسلامية والغربية وغيرها في مختلف أنحاء العالم.

The International Institute of Islamic Thought
555 Grove Street (P.O. Box 669)
Herndon, VA 22070-4705 U.S.A
Tel: (703) 471-1133
Fax: (703) 471-3922
Telex: 901153 IIIT WASH

هذا الكتاب

تدور المدارس في حـول مناهج فهم القرآن المجيد وقضايا تفسيره وتأويله وتصنيفه وتبويبه، وعلاقاته بعلوم المسلمين قديماً وحديثاً، وكيفية جعله المصدر الأول لثقافة المسلم المعاصر، ومعرفته وعلمه وتوجيهه، مما يُمكنُ العقل المسلم من العودة إلى التعامل السليم مع القرآن العظيم، ويعيد القرآن الكريم إلى مركز الدائرة في ثقافة المسلم المعاصر ومعرفته وحضارته، ليستعيد العقل المسلم عافيته ويسترد القرآن المجيد دوره في عطائه وإنارته.

والكتاب مدارس جرت بين الشيخ محمد الغزالي والأستاذ عمر عبيد حسنة وتتسم بمداخل نقدية عديدة تبعاً لتعدد وتنوع الموضوعات التي تشملها في محاولات بذلها المتدارسان لاستخلاص وعي قرآني بقواعد معرفية تقارب ضوابط المنهج الذي لا يأخذ بكل ما ورد ضمن الفكر السائد دون تمحيص وتحليل ونقد.

وتعمل هذه المدارس على استدعاء القرآن في إطار واقع عالمي متغير بوعي جديد لا تدعي أنه اكتمل في هذا العمل. كما تكمن أهميتها في محاولتها لتصحيح كثير من المفاهيم المتعلقة بالتعامل مع القرآن في الموضوعات الإسلامية كخطوة أولى يؤسس بموجبها الوعي الإسلامي المعاصر.